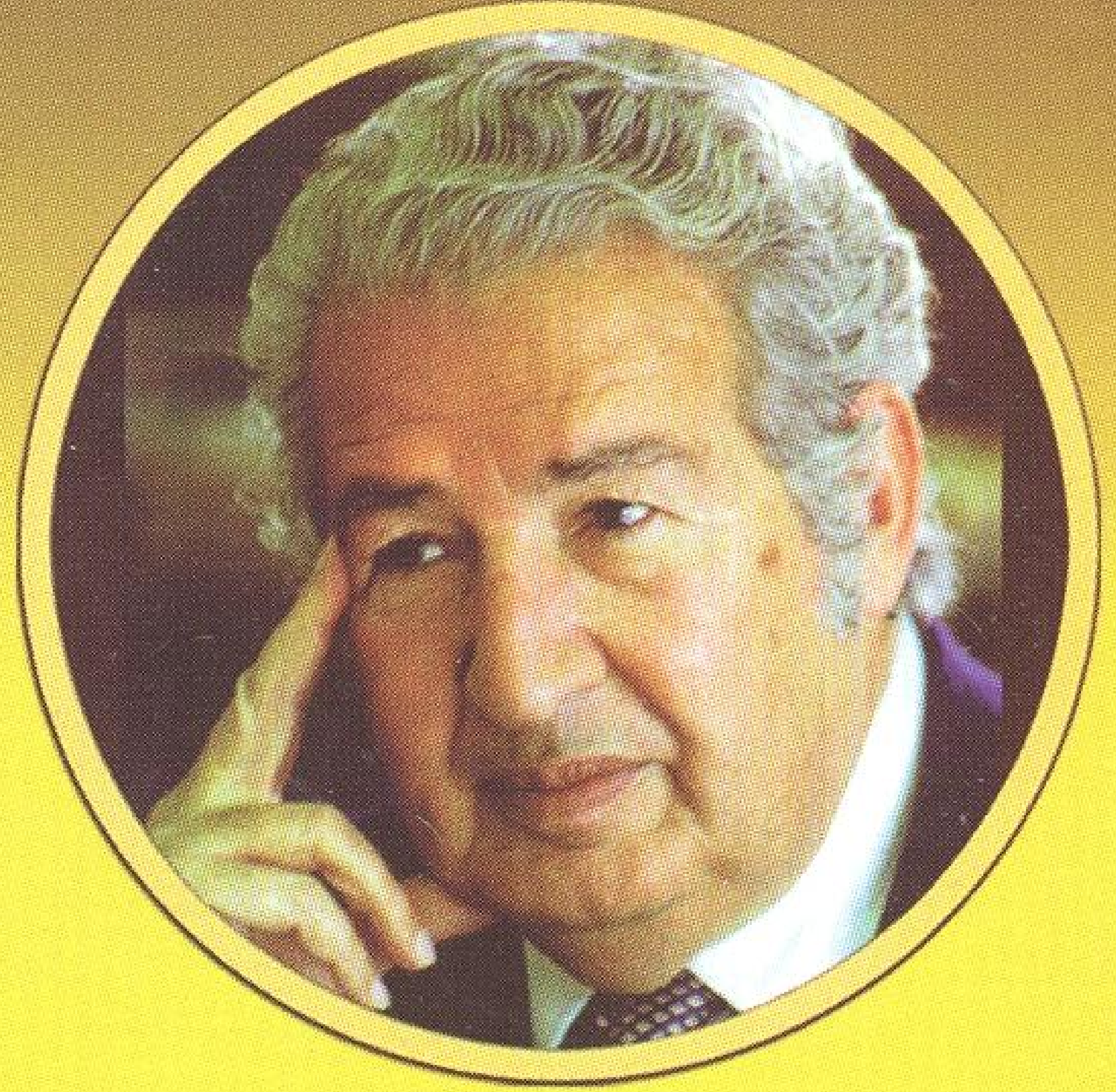


قطاع الثقافة

Ahmed Mady

إحسان عبد القدوس



لمن أترك كل هذا

الأعمال الكاملة

١٧

إحسان عبد القدوس

■ولد إحسان محمدعبدالقدوس أحمدرضوان فى أول يناير عام ١٩١٩ بالعباسية بالقاهرة. والده المهندس الفنان الممثل والشاعر/ محمد عبد القدوس. ووالدته السيدة فاطمة محيى الدين اليوسف، لبنانية الأصل. ممثلة مسرح وأسست دار روزاليوسف للصحافة والنشر عام١٩٢٥

■ تخرج فى كلية الحقوق عام١٩٤٢. عمل لمدة سنة كمحام ثم عمل بعدها كصحفى بمجلة روزاليوسف ثم عينته والدته رئيساً لتحرير المجلة، وظل بها رئيساً للتحرير حتى عام١٩٦٤

■ تولى رئاسة تحرير «أخبار اليوم» من عام١٩٦٦ حتى ١٩٧٤ ورئيساً لمجلس إدارتها من عام١٩٧١ حتى عام١٩٧٤.

■ عمل كاتباً بالأهرام من عام١٩٧٤ حتى وفاته وكان قد عين رئيساً لمجلس إدارة مؤسسة الأهرام خلال عامى١٩٧٥، ١٩٧٦

■تعرض للأغتيال والسجن عدة مرات بسبب كتاباته السياسية وخصوصاًعن قضية الأسلحة الفاسدة التى استخدمت فى حرب فلسطين وكان لهذه الكتابات أثر كبير لتهيئة الرأى العام لقيام ثورة٢٣ يوليو١٩٥٢

■ كتب مئات الروايات والقصص القصيرة نشرت فى جرائد ومجلات مصرية وعربية وجمعت فى ٦٠ كتاباً وترجم العديد منها إلى أكثر من لغة أجنبية وتم تحويل عشرات منها إلى أعمال سينمائية وتليفزيونية ومسرحية وإذاعية

■ كان يؤمن بشدة بأن الحب والصدق وحرية الرأى هى أسس العلاقات الأنسانية

■ أنعش الحركة الثقافية بدعوته لإنشاء المجلس الأعلى للفنون والأدب ومشاركته الأيجابية فى تأسيس نادى القصة وجمعية الأدباء

■ حاز على العديد من الجوائز والأوسمة المصرية والأجنبية من جمعيات ومهرجانات سينمائية تقديراً لقصص أفلامه منها جائزة الدولة التقديرية فى الأدب بعد وفاته

■ توفاه الله إلى رحمته فى ١١ يناير ١٩٩٠.



Sat. 3 Dec. 2011
Riyadh

إحسان عبد القدوس

مجموعة قصص

لمن أترك كل هذا ؟

إلى أين تأخذنى هذه الطفلة ؟

كانت سميـرة جالسة كعادتها تقـرأ كتابا بينما البنت الصغـيرة فوزية جالسـة بجانبها تشـخبط بأقلام الألوان المتـعددة تحاول أن ترسم شيـئا لا تدرى هى نفسـها ماذا ترسـم.. وفجأة قـفزت البنت الصغـيرة وألقت بنفـسهـا على سمـيرة كـأنها تخـتبىء بين أحـضانـها وصاحت سميرة :

- جرى إيه يا فوفو..

قالت فوزية كأنها تهمس :

- بابا وصل..

ولم يكن الأب قد دخل عليهما بعد، ولكن الصـغيرة فوفو قد أحست بوصوله ربما من صوت باب الشقة أو من وقع خطواته أو ربما تعودت أن تشم رائحـته أو أن مجرد اقتـرابه منها حتى دون أن تراه يثير فـيها كل هذا الخوف.. إلى أن ظهر أمامـهما..

ليس على وجهه أى ابتسـامة.. كل ملامحه معقـدة صارمة كأن هذا هو شكله.. كأنه هكذا خـلق.. صـارم التقاطيع.. ولم يتـعود الابتسام أبدا.. وقال بمجرد ظهوره أمامهما :

– كيف حال البنت يا آنسة سميرة..

وقـفـزت سـمـيـرة واقـفـة بمجـرد أن رأته وشـدت البنت الصغيرة، واقـفة معها وهى ممسكة بيدها، وقـالت وهى تبتسم ابتسـامة كبيـرة كأنها تتعـمد سد الفراغ الذى يصـحب تبويزة الأب وصرامة وجهه :

– فوفو هائلة.. النهاردة كانت تقرأ وتكتب أحسن منى.. إنها فى منتهـى الذكاء يا رحمى بيـه.. ولم يكن الأب قد اقـترب من ابنته فوفو ليقبلها ولا مد يده ليصافح سميرة ولكنه أخذ يتطلع إلى مـا ترك على المائدة من أوراق وأمـسك بالورقة التى كـانت فوفو تملؤها بخطوط ملونة كأنها لا تدرى ماذا ترسم.. ثم رفع هذه الورقـة وألقى بهـا فى وجـه البنت الصـغيـرة ثم مـد يده وصفعها على خدها.. وهو يصيح :

– إيه الشخبطة دى يا بنت..

ثم التفت إلى سميرة صائحا :

هل تقصدين أنها أحسن منك فى الشخبطة..

وكانت الطفلة فوفـو قد ألقت رأسها على صدر سـميرة وبدأت فى البكاء والغريب أنه بكـاء صامت.. بلا صوت.. كأنهـا تخاف أن تصرخ ببكائها حتى لا يسكتهـا أبوها بمزيد من الصفعات.. وقالت سميرة وقد تجهم وجهها وتنظر إلى الأب فى سخط :

- لقد كنا فى فترة إجازة وهى تلعب بالأقلام الملونة.. وكنا قد انتهينا من الدراسة من قبل.. وكأنه لم يسمعها وأدار لهما ظهره يهم بالخروج من الغرفة قائلا :

- من كانت قبلك كانت تقول إنها هائلة.. إلى أن اكتشفت بنفسى أنها خيبة.. إنكن تدافعن عن أنفسكن وتحاولن إثبات أنكن قادرات على الارتفاع بالبنات إلى قمة العظمة.. أو ربما تشفقن على فوفو وهى ترفض أن تتعلم شيئا.. أو تعجز عن فهم أى شيء.. ربما كانت مريضة.. هل أنت ستتركين البنت الآن ؟

قالت سميرة :

أمامى نصف ساعة وسأبقى مع فوفو إلى أن تتناول العشاء وتنام..

ثم تركت فوفو وخطت نحوه بعد أن خرج من الغرفة وقالت له وهى تواجه عينيه بعينيها كأنها تتحداه :

- لماذا ضربتها الآن.. ؟

وارتعشت عيناه أمام عينيها كأنه فوجيء بإنسان يحاسبه على أعماله وقال وهو يلوى شفتيه أمام وجهها كأنه يحذرها :

- لأنى اكتشفت أنها لم تفعل شيئا سوى الشخبطة بالأقلام الملونة.. وأنك كنت تكذبين علىّ عندما قلت لى : إنها أصبحت هائلة فى دراستها..

قالت سميرة :

- إنها فعلا درست.. هل تريد أن أمتحنها أمامك..

قال وهو يهم بالابتعاد عنها :

- لا يهم.. إنك تجالسينها وتعملين عندى منذ قريب.. وأمامى فرصة لأختبرك.. وعلى كل حال إن ضرب البنات هو أحسن الوسائل لتربيتهن.. إنى أربى على الخوف.. يجب أن تخاف منى حتى تخاف من أن ترتكب أى خطأ.. وحتى تخاف أن تخرج عن طوعى عندما تكبر..

قالت سميرة :

- هذه أسوأ طريقة لتربية البنات.. البنت الخائفة هى البنت المعذبة.. والبنت المعذبة هى التى تلقى بنفسها فى أول مصيبة تصادفها..

قال رحمى وهو يلوى شفتيه احتقارا لما يسمعه وربما احتقارا لسميرة نفسها :

- لقد عاشت أمها معى وهى خائفة دائما.. كلها خوف.. وكانت من أنظف وأشرف وأعقل الزوجات..

قالت سميرة برنة ساخرة :

- ولهذا ماتت.. رحمها الله..

وتجهم وجه رحمى أكثر وقال بلهجة جادة :

- إنها خالفتنى وتحررت من الخوف منى بأن ماتت.. لم أكن قد سمحت لها بالموت.. وأحطتها بكل ما يضمن لى أنها لن تموت.. ورغم ذلك ماتت..

وأبشع ما فعلته أن تموت وتركت لى ابنتنا فوزية لأحمل همها وحدى، دون أن تقدر أنى لا أستطيع أن أكون أُمّاً وإنْ

كنت اعتبر خير أب.. وقالت سميرة وهى تنظر إلى رحمى فى تعجب ودهشة :

- ربما ماتت من الخوف..

وتركها رحمى دون أن يرد عليها ولعله لم يسمعها ودخل إلى حجرته المجاورة وأغلق الباب وراءه..

وعادت سميرة إلى الطفلة فوزية واحتضنتها إلى صدرها وقلبها يتمزق عليها.. إنها فتاة يتيمة الأم بين يد أب مجنون.. وأخذت تضفى عليها من الحنان والتدليل حتى هدأت وتناولت طعام العشاء وظلت معها حتى نامت..وارتدت معطفها وجمعت حوائجها ثم خرجت.. وعلى الباب قابلتها أم أمينة التى تقوم بمهمة الشغالة فى البيت.. قابلتها كأنها تواجهها ثم مدت لها يدها بورقة مالية قيمتها عشرة جنيهات.. قائلة فى سخط :

- البيه ترك لك هذا المبلغ، وأراد منى أن أسلمه لك.. والله خسارة.. أنا الأَوْلى بكل هذا.. ولم ترد عليها سميرة .. وأخذت ورقة الجنيهات العشرة ووضعتها فى حقيبتها بهدوء وفتحت الباب وخرجت وحتى دون أن تحيى أم أمينة بكلمة..



وعادت سميرة إلى البيت ودخلت حجرتها بخطوات واسعة دون أن تبحث عن أمها أو أختها الأصغر كأنها تحاول أن تختبىء.. إنها فى حالة لا تطيق معها أن تلقى أمها أو أختها وتناقش معهما أو مع من تجد منهما شئون حياتهن.. إنها تحس أنها مغتاظة غيظا كأن قنبلة داخل صدرها على وشك

الانفجار.. والسبب هو الفتـاة الطفلة فوزية.. إنها تعيش فى كل فكرها ولا تتركه وهى لا تحـاول أن تطردها منه.. كيف تنقذها من صرامـة وكراهيـة أبيها لهـا.. لعله لا يكرهها ولـكن هذا ما يؤمن به.. وهو أن الفـتـاة - أى فـتـاة - يجب أن تعـيش على الخوف حتى تحتفظ لنفسها بالسلامة.. ولا تخاف أباها وحده.. بل تخاف كل من فى الدنيا ممن يقتربون منـها ويفرضون حقا عليها.. ولكن ماذا تستطيع هى بالنسبة لهذه الفتاة.. إنها ليست ابنتها... ولا قريبتها ولا حتى صديقة من صديقات العائلة، إنها مجرد جليسة تقضى معها ساعات متفقا عليها نظير أجر.. وهى ما يسمى بالإنجليزية وينطلق بكل اللغات BABY SITTER.. جليســة أطفال.. وإن كانت لأول مـرة فى حياتهـا تتفق على أن تكون جليـسة لـطفلة طوال النهـار نظير عـشـرة جنيهـات فى اليوم.. إنها طفلة بلا أم.. وأبوها مشــغول فى عمله طوال النهار وإن كان يتعـمد أن يتفرغ بالليل للإشراف على ابنتـه.. وعشرة جنيهات فى اليـوم ليست كثيـرة.. لقد مرت عليها أعـمال كانت تتقاضى فيها عشرة جنيهات فى الساعة أو كل ساعتين..

إنها ليست المرة الأولى التى تعمل فيها كجليسة أطفال.. وقد تنقلت بين مسئـوليات أعمال كثيرة.. لقـد ولدت لتعمل وتكسب حياتـها بعرق جبـينها.. وقد فتـحت عينيها على الحـياة وأبوها مسـئول عنهـا.. أب رائع مثـالى ينفق كل مليم يصل إليـه على أولاده.. ولم يكن له إلا هى وأختـها.. وقد وضعهـا عندما شبت فى مدرسة سان جوزيف تتلقى العلـم باللغة الفرنسية.. وظلت

بها إلى أن وصلت إلى السنة النهائية وكـان المفروض أن تتفوق فى امتحان التخرج وتتم تعليمها فى باريس.. ولكن الأب مات.. لقد مات فجأة.. واتضح أنــه لم يترك وراءه أى قرش.. لقد كان ينفق كل ما يصل إليه على العائلة.. ولم يهتم بأن يكون له رأس مال يحتــفظ به فى البنك لتواجه به العــائلة الأحداث.. بل إنه لم يكن له معاش فهو لم يكن موظفــا فى الحكومة.. لقد كان يعتبر نفسه من رجال الأعمال وقد ترك وراءه ديونا لعمليات صغيرة كان يقوم بهــا.. كما أن بعض زملائه وأصدقائه أضــافوا مبالغ لمساعدة العائلة.. وكلها مبــالغ لا تحتمل إلا شهورا بل يمكن أن تضيع كلها فى أيام..

وكان أول ما واجــهت الأم هو التساؤل عن المستــقبل.. كيف تعيش هى والابنتــان.. إنهن نساء وليس أمــامهن من طريق إلا الزواج من رجل لكل منهن يتحمل مسئوليــتها.. والأم نفسـها لم تعــد تصلح للزواج.. إنها عــجوز وليس لديــها أمــلاك أو أموال تغرى أى رجل بأن يمد يده إليها رغم أن كثيرات فى مثل سنها تزوجن للمرة الثــانية.. إنهــا لم تتجاوز الحــادية والأربعين من عمــرها.. ورغم ذلك فهى تتمنى لنفــسها رجــلا يتزوجهــا.. لقد كانت تحب زوجــها وأب ابنتيهــا.. ولكنها فى حالة لا تتــيح لها الاحتفاظ بــالحب إنها حالة تفرض عليها أن تتــدبر ما يكفل لها الحياة ولابنتيها..

لا أمل إلا أن تتزوج سميرة.. ولكن سمــيرة لا تتميز بجمال يمكن أن يفرض نفسه على الرجال.. وإن كانت تتميز بشخصية

رقيقة مهذبة واسعة المعرفة تعتبر شخصية تجذب كل من حولها وكل من يتعامل معها.. ستجد من يتزوجها.. رجل يستطيع أن يضمن حياة العائلة.. وعليها أن تبذل مجهودا كبيرا لتجد هذا الرجل.. ولكن سميرة ترفض هذا التخطيط لتدبير حياة العائلة.. إنها لن تتزوج.. ولن تسعى للزواج.. الطريق الوحيد الذى ستسير فيه بعد أن مات أبوها هو أن تعمل.. وتكسب.. وتركت مدرسة سان جوزيف قبل أن تنال الشهادة النهائية.. لتؤجل هذه الشهادة إلى عمر آخر.. وبدأت تقضى كل دقائق عمرها فى البحث عن عمل.. عمل ليس فى حاجة إلى أن تكون فى منتهى الجمال.. لأنها ليست جميلة.. ولكنه فى حاجة إلى مهارتها فى التقاط وسائل الخدمة.. كل الخدمات.. وقد استطاعت فى أسبوع واحد أن تكون موظفة فى كباريه كل مهمتها أن تستقل الزبائن وتجلسهم وتنادى لهم الجرسون.. أى لم تكن ممن يبعن أجسادهن للزبائن بل ترحب بهم.. وانتقلت إلى عمل آخر وصلت إليه كبائعة كتب فى إحدى مكتبات شارع قصر النيل.. وتعتمد على اللغة الفرنسية التى تعلمتها فى سان جوزيف للتفاهم مع الكتب ومع الشارين.. ووجدت نفسها تقضى معظم ساعات يومها فى القراءة.. فالزبائن الذين يترددون على المكتبة لا يزيدون على مجرد بضعة أفراد وقد يمر يوم كامل لا ترى فيه أى زبون.. وهى تهوى القراءة، ولكنها لا تريد أن تكون مجرد قارئة إنها تريد أن تكون عاملة.. واستقالت من العمل فى المكتبة خصوصا أن

المرتب كـان ضـئـيـلا لا يتـجاوز ثمـانين جنيـهـا فى الشهـر.. والجنيهات هذه الأيام لـم تعد لها قيمـتها واحترامـها.. وقضت أياما تبحث عن عمل جديد.. ولم تطل بها الأيام وأصبحت عاملة فى فندق شيـراتون وعهـدوا إليها بأن تخـدم فى الكافيـتريا.. وبسـرعة اسـتطاعت أن تكتـشف أسـرار العمل كله، وأسـرار التعامل مع الزبائن أو مع العاملين فى الفندق نفسه.. وأصبحت تكسب أكثـر.. مائتى جنيه فى الشهـر علاوة على نصيبـها من البقشيش..

ولم تهـتم بأى رجل.. إنها تتـعامل كأنـها معـهم من جنس واحد.. والواقع أنه لم يتقدم إليـها أى رجل يغازلها ويحاول أن يقيم معها علاقة خاصة.. إنها ليست مغرية كامرأة.. وجاذبيتها الخاصـة لم تفكر فى استـغلالها إلا فى حـدود مجرد المعـرفة وتقديـم الخدمات.. وقـد استطاعت فى هذه الحـدود أن تكسب كـثيـرا من الأصـدقاء والصـديقـات.. بل اسـتطاعت أن تكسب صداقة كثـير من الصديقات ممن تعودن التردد على الـكافيتريا لتناول الإفطار أو الغـداء.. وأغلبـهن أجنبـيـات وقد قـالت لهـا إحداهن يوما :

– إن صديقتى فى حاجة إلى من تجالـس أطفالها فى غيابها على أن تكون قادرة على التفاهم بالفرنسية.. فهل يمكن أن نجد واحدة.. وكيف..

قالت سميرة وعيناها تلمعان كأنها وجدت ما يبهرها :

– أنا.. إنى أحب أن أجالس الأطفال..

قالت السيدة الأجنبية :

- ولكنك تعملين هنا..

قالت سميرة وهى تسلط كل لباقتها من خلال ابتسامتها :

- أستطيع أن أوافق بين العملين.. وأدبر الأوقات التى أحتاج فيها للتفرغ لكل عمل.. ووجدت سميرة نفسها تعمل جليسة طفلين فى السادسة والرابعة من عمريهما وأمهما سيدة فرنسية تعمل فى إحدى الشركات الفرنسية فى مصر.. والمرتب محترم.. خمسة جنيهات فى الساعة.. ومطلوب منها أن تجالس الطفلين من الساعة التاسعة صباحا حتى الثانية بعد الظهر.. وفى أيام كثيرة تخرج السيدة مع زوجها فى المساء وتطلب من سميرة أن تجالس طفليها فى المساء أيضا.. بل حدث أكثر من ذلك.. فإن كثيرا من الزوجات الأجنبيات أصبحن يلجأن إليها لتجالس أطفالهن فى غيبتهن.. والساعة بخمسة جنيهات ورفعتها بعد أن عرفت المجتمع الأجنبى الواسع فى مصر إلى عشرة جنيهات.. إنها تكسب كثيرا.. ثلاثمائة جنيه فى الشهر على الأقل وقد تصل إلى أربعمائة أو إلى خمسمائة.. إنها تكسب ما يكفيها للتفرغ لتكون جليسة أطفال فحسب.. واستقالت من عملها فى فندق شيراتون.. وتفرغت لتلبية مطالب الأمهات لمجالسة أطفالهن أثناء غيبتهن.. وكانت قد أعدت ودبرت نفسها على النجاح فى مهمتها.. إنها أصبحت تعرف كيف تلاعب الأطفال فى مختلف الأعمار.. وكيف تتعامل معهم.. ثم كيف تشغلهم بما يريحها منهم وتجلس هى وتقرأ ما تحمله

من كتب.. إنها تقرأ كثيرا وتعد نفسها لنيل الشهادة التى تؤهلها للالتحاق بالجامعة.. ولكنها كانت تصادف العجائب فى التعامل مع الأطفال..

لقد كان بينهم طفل أو صبى فى السادسة أو السابعة من عمره.. قدم لها وهو مرتد أزياء عسكرية تغطيه من رأسه إلى قدميه وفى يده بندقية وحوله ألعاب كلها ألعاب قتال.. مسدس.. وقوس وسهم.. وعصا.. ومجموعة من الرصاص الذى يطلق من البنادق.. وطبعا كلها ألعاب.. ليس بينها أى شىء سوى مجرد لعبة.. واستقبلت كل ذلك مبتسمة.. ربما كان والده هو الملحق العسكرى فى سفارة بلده.. وأخذت تلاعب الصبى.. ألعاب أقرب إلى التحركات العسكرية.. إلى أن تعبت وطلبت منه أن يترك اللعب ويقرأ فى الكتب التى حوله ويتفرج على الصور وكلها صور عسكرية.. وقالت له إنها ستستريح قليلا وتقرأ فى الكتاب الذى معها هى الأخرى.. وإذا بالصبى المسلح يصرخ قائلا لها :

– أنت هنا لتكونى دائما معى وتلبى كل ما أريده.. أنت أسيرة تحت سلطة الجيش..

وكان يقول هذا الكلام وهو يوجه البندقية إلى صدرها ثم ترك البندقية وأمسك بالقوس وأطلق عليها السهم.. وكل تحركاته اعتداءات.. وصحيح إنها مجرد لعب ولكنها خافت وطاوعته وأخذت تلعب معه ألعابا عسكرية.. إلى أن عادت أمه ومعها أبوه فسلمته لهما وقبضت حقها.. خمس ساعات

بخمسين جنيها.. ومن يومها لم تذهب لتجالس هذا الطفل.. وتعتذر دائما عن تلبية دعواتهما.. والعجيب.. إنه طفل ألمانى لا أمريكى ولا إنجليزى. ومفروض أن ألمانيا لا تربى أولادها على خوض الحرب.. والإيمان بالحرب.. ولكن لقد ثبت لها العكس.. ربما كان الأمريكان ينشئون أولادهم على الإيمان بالحرب حتى يضمنوا السلام.. والألمان يربون أولادهم على الإيمان بالحرب ليشتروا كرامتهم بعد الهزيمة القديمة التى لا يستطيعون التخلص من آثارها..

كان هذا واحدا من الصبية الذين أثاروا عجبها واعتبرته شخصية شاذة.. إلى أن دعيت يوما لمجالسة فتاة ستغيب عنها أمها بضع ساعات.. إنها ليست طفلة بل هى صبية ربما كانت فى الحادية أو الثانية عشرة من عمرها.. واستقبلتها الصبية بترحاب كبير، ثم أخذت وهما جالستان وحدهما تقدم لها كل ما فى البيت من قطع الحلوى والشيكولاته.. ثم فجأة أخرجت من جيبها عشرة جنيهات أعطتها لسميرة وأخذتها منها فى دهشة وسألتها فى تعجب :

– ما هذا..

قالت الصبية :

– هذا كل ما استطعت أن أحتفظ به لنفسى لأعطيه لك حتى تحبينى وتشمليني بعطفك.

قالت سميرة ضاحكة وهى لا تفهم ما تريده الصبية :

– إنى أحبك.. إنك حلوة إلى حد أن لا أحد يستطيع أن يقاوم

حبك.. وقالت الصبية وهى تتكلم باللغة الفرنسية.. رغم إنها من أهل السويد :

– إذا كنت تحبيننى.. فإنى أرجو أن تسمحى لى بالخروج من البيت.. وسألت سميرة فى تعجب :

– لماذا..

قالت الصبية :

– أريد أن أريح نفسى من هذا البيت.. وأمى لا تخرج منه تحبسنى معها بين هذه الجدران..

وتحرك عقل سميرة بسرعة عنيفة كأنه بركان.. لماذا تريد هذه الصبية أن تخرج.. ربما تريد أن تهرب من البيت.. ولكن لعل هناك دوافع أخرى.. وقالت لها وهى تربت عليها وتدللها :

– سنخرج.. أنت وأنا وحدنا..

وصاحت الصبية :

– لا.. أريد أن أخرج من البيت وحدى.. وقالت سميرة وهى تحتضنها بابتسامتها تريدها أن تستسلم لها حتى لو كانت تخدعها :

– ستكونين وحدك حتى وأنا معك.. أنا لست أمك رغم حبى لك ولن أقول شيئا لأمك عما تريدينه من الخارج.. ولكنى مضطرة أن أخرج معك وقالت الصبية فى سخط :

– تعالى..

وسبقت سميرة على السلم للوصول إلى الشارع وسميرة تجرى وراءها إلى أن وجدتها تقف أمام شاب كان ينتظرها

قريبا من البيت.. إنه قطعا شاب مصرى أسمر.. وهو ليس كبيرا.. ربما كان فى الخامسة عشرة من عمره.. والتصق الشاب بالصبية وخطت إليهما سميرة.. واحتفظت بابتسامتها ومدت يدها تصافح الشاب.. وقالت له :

– سأكون معكما.. ولكن بعيدة عنكما.. وصحب الشاب الفتاة وسميرة تسير بجانبهما ولا تحاول أن تسمع كلامهما ولكنها غارقة فى الدهشة وفى الحيرة.. ماذا تستطيع أن تفعل.. لا شىء.. إنها حتى لن تقول شيئا لأمها بعد أن تعود.. هكذا وعدت الصبية.. وسار الشاب والصبية إلى أن دخلا فى إحدى الحدائق.. وأخذا يجريان كأنهما يلعبان استغماية.. ثم يجلسان على الحشيش... ومال الصبى وقَبَّلَ الصبية.. وسميرة تتلقى القبلة البريئة كأنها صفعة على خدها هى.. إنها قطعا قد أخلت بمسئوليتها عن الصبية.. وقد يأتى يوم يلتقيان بين الجدران ليلعبا بما هو أكثر.. إنه أمر عادى فى المجتمع الأوربى وخصوصا فى مجتمع السويد.. إن كل ما تستطيعه هو أن تهرب من هذا المجتمع ومن هذه الصبية.. وقد ظلت تراقبها حتى أعادت الصبية إلى البيت.. ومن يومها أصبحت ترفض أن تكون مسئولة عنها.. ولكنها قالت لها قبل أن تتركها :

– يجب أن تقدمى كل من تلعبين معهم إلى ماما وبابا.. حتى تلعبا فى البيت كما تلعبان فى الشارع..

قالت الصبية فى زهو كأنها فخورة بصديقها المصرى :

– إنه لا يريد أن يدخل البيت.. ولا يشرفه أن يعرف ماما

وبابا.. وما لنا والعواجيز.. لذلك فنحن نلعب دائما فى الشارع أو فى بيته بعيدا عن أمه وأبيه..

وأقنعت سميرة نفسها بأنه مهما كان ما يحدث بين الفتى والفتاة فهو ليس غريبا عن مجتمع السويد، أى المجتمع الذى تنتمى إليه الفتاة.. إنه مجتمع مفتوح لا قيود فيه بين الفتى والفتاة، وكل ما هنالك إنها لا تستطيع أن تحتمل هذا المجتمع وتقبل تقاليد الحياة فيه.. إنها ليست سويدية إنها مصرية..

وقد تنقلت خلال هذه الفترة بين عشرات من العائلات وتقوم بمجالسة الأطفال.. وكلها عائلات أجنبية.. إن العائلات المصرية لا تعترف بحاجتها إلى جليسة أطفال.. وغاية ما يمكن أن تصل إليه هو التعامل مع دور الحضانة.. إلى أن جاءتها صديقتها عزيزة وطلبت منها فى رجاء أن تعمل جليسة للطفلة فوزية.. وقالت لها إنها يتيمة الأم وأبوها رحمى بيه من رجال الأعمال ويعيش وحده مع ابنته الطفلة حائرا معها ويتعذب بمسئوليته عنها.. وهو غنى مستعد أن يدفع لمن تتحمل معه مسئولية معاشرة هذه الطفلة.. إنه مقتنع بنظام جليسة الأطفال أو « بيبى سيتر » على الأقل لترعى ابنته إلى أن يعود من العمل إلى البيت.. وترددت سميرة فترة.. ولكن صديقتها عزيزة ظلت تلح عليها وأكدت لها أنها لن تعامل كخادمة فى هذا البيت ولكن ستعامل كما تعامل فى بيوت الأجانب.. جليسة أطفال.. وأخيرا قبلت عملها الجديد.. لتجرب العمل مع العائلات المصرية..



وذهبت إلى عملها الجديد وكل ما وصفت به صديقتها عزيزة صاحب البيت وأب الفتاة الصغيرة هو أنه رجل جاد.. إنها تعمل فى مكتبه منذ سنوات مطمئنة إلى أنه فى منتهى الجدية.. ولكن سميرة رأته أكثر من رجل جاد.. إنه رجل مخيف.. صارم التقاطيع.. يتكلم فى صوت جاف.. ولا يبتسم أبدا.. بل يتكلم من خلال شفتين مطبقتين كأن لسانه فى صدره.. ورغم ذلك فهو ليس منفرا.. إن فيه شيئا خفيا يريح من يقف معه.. وقد قال لها فورا بعد أقصر وأسرع تحية مما تسمعه فى استقبالها :

– إنى أريدك أن تكونى مع ابنتى فوزية من الساعة العاشرة صباحا حتى السادسة بعد الظهر.. وتكونى مسئولة عنها خلال هذه الفترة.. إلى أن أعود أنا إلى البيت.. والمسئولية تشمل كل ما تتطلبه تربية فتاة صغيرة.. أى العلم والأدب والتعامل الاجتماعى.. كل شىء.. وسأدفع لك عشرة جنيهات فى اليوم..

وكان يتكلم كأنه يلقى أوامر ولا ينتظر ردا عليه.. إنه لا يعلم أنها تتقاضى عشرة جنيهات فى الساعة الواحدة فى بيوت العائلات الأجنبية التى تخدمها.. ولا يمكن أن تقبل أن تكون الجنيهات العشرة أجرا لليوم كله وفى بيت مصرى.. بيت بلا عائلة.. بيت رجل يبدو كأنه الحاكم بأمر الله.. لا.. لن تقبل..

وقبل أن تتكلم دخلت امرأة ترتدى زيا كأنه زى إحدى الفلاحات.... ووجهها أسمر كالح ليس فيه أى بادرة حلاوة.. وكانت تحمل فتاة.. لا شك إنها فوزية.. إنها حلوة فى منتهى

حـلاوة الأطفال.. ولكن مـنكمشـة على نفـسـهـا وتبـدو كأنهـا ترتعش.. وقال رحمى بسرعة :

– هذه نفـيسـة بنت بلدنا وتقـيم معنا منذ قـديم.. ولا تزال فلاحة كما هى لهذا ظلت معنا منذ سنوات لأنها لا تتغير..

ثم مد ذراعه وشـد الطفلة فى عنف وقدمها إليـها كأنه يلقى بها إليها قائلا :

– هذه ابنتى فوزية التى ستكونين مسئولة عنها..

ثم أدار ظهره وخطا ناحية الباب قائلا :

– سأعود إلى البيت فى الساعة السادسة تماما..

لم ينتظر أى مناقـشة مع سـمـيرة.. لم ينتظر أن ترد عليـه بالقبول أو الرفض.. وسميرة تعلق عينيها بالطفلة فوزية ومدت يديهـا إليها وهى تحـس أنها تنشلهـا من جحـيم ألقوها فـيه.. وتنازلت عن الرد على رحمى.. وسـتقبل الجنيهـات العشرة فى اليوم كله.. ولا تدرى لماذا هذا الاسـتسلام.. إن المعـروف عنها أنها تحب الأطفال ولكن حـبها لهذه الطفلة فـاق أى حب مر بها مع الأطفـال.. إن مجرد التـقائهـا بها فى نظـرة واحدة جعلـها تحس بأنهـا مكلفـة بإنقـاذها.. مم تنفـذها ؟ لا تدرى.. ولكنهـا لاحظت أنهـا كانت تنظر إلى أبيـها فى خـوف.. وإلى الفـلاحة نفيسة فى خوف.. مم تخاف.. لا تدرى..

ووجدت نفسـها قد وافقت على أن يدفع لها عشـرة جنيهات فى اليوم لا فى السـاعة.. وأحست كـأنها مـقبلة على مغـامرة تستـحق أن تضحى فى سبـيلها.. على كل حال فـهى تستطيع

الآن أن تضحى ببعض مكاسبها.. إنها تكسب دائما ما يكفيها ويكفى أمها وما يكفى جنون أختها الأصغر التى تعيش بلا عمل سوى البحث عن رجل يتزوجها.. لقد قدمت لها أختها الأصغر ثلاثة شبان على أن كلا منهم يريد الزواج منها.. ولم يتزوجها أى واحد.. وهى فى انتظار أن تقدم لها أختها الشاب الرابع..

وسميرة تستعرض حالها وحال عائلتها وهى ممسكة بيد الطفلة فوزية تطوف بها فى أرجاء البيت.. لا شك أن كل شىء فى البيت كان جميلا وموضوعا فى مكانه.. ولكنها الآن ترى كل شىء « مبعزقا » بلا ترتيب.. الأثاث.. والتحف.. والسجاجيد.. حتى لوازم المطبخ.. كلها مبعزقة فى فوضى مما يجعل البيت كأنه بلا صاحب.. إنه فعلا بلا ست بيت.. والمرأة الوحيدة فيه.. نفيسة.. تسير بجانبها، وهى تنظر لها فى سخط كأنها تقول لها مالك ومالنا.. ومالك والبيت بما فيه.. ولكنها لا تتكلم.. وسميرة لا تسألها.. على كل حال ليس من مهمتها أن ترتب أو تشرف عليه.. وصلت إلى الحجرة المخصصة للطفلة فوزية وكانت قد ابتكرت لها اسما تدللها به.. فوفو.. إنها حجرة ليس فيها شىء يحتاج إليه الطفل.. بل إنها معفرة بالتراب ملطخة بأكوام الزبالة.. واستطاعت أن تحصل على مكنسة وفوطة وأخذت تعد الغرفة وتنظفها من جديد وهى تقول لفوفو ضاحكة.. نظفى معى يا فوفو.. وفوفو لا تدرى ماذا تفعل ولكنها تتحرك وراء سميرة وتقلدها كأنها هى الأخرى تنظف الحجرة.. وسميرة تمسك بها بين كل خطوة وأخرى وتقبلها..

إنها تحب فوفو حبا آخر له طعم آخر عما كانت تحس به ناحية كل الأطفال الذين صاحبتهم.. ربما كان هذا الحب هو ما دفعها إلى كل هذا الجهد الذى تبذله لإعداد غرفتها.. بل إلى كل هذا التطلع ومعرفة حقيقة كل ما تعيش فيه الطفلة..

وأصبحت الساعة السادسة وسمعت باب البيت يفتح ويغلق.. لابد أن رحمى قد عاد.. والطفلة فوفو التصقت بها وأمسكت بثوبها كأنها تحتمى بها وهمست فى خوف :

- بابا عاد.. لا تتركينى يا ماما.. ورفعتها سميرة إلى صدرها وقبلتها وقالت لها :

- أنا لست ماما.. ماما الله يرحمها.. أنا نينة.. أو طنط.. أفضل أن أكون نينة.. ولا تخافى من بابا.. انتظرى إلى أن يأتى إلينا وابتسمى له ودعيه يقبلك..

ولكن رحمى بيه لم يظهر بينهما.. ودخل غرفته مباشرة.. وتركها تنصرف فى الساعة السادسة وكانت الفلاحة نفيسة هى التى أعطتها أجرها عن يومها.. الجنيهات العشرة..

ومضت أيام ورب العائلة لا يراها.. وهى تحس مع الأيام كأنها تعمل فى بيت بلا أم وبلا أب.. وهى تتصرف داخل البيت فى حرية تامة كأنها سيدته.. وقد اكتشفت أن فى البيت رجلا يعمل كطباخ.. ولكنه مجرد فلاح.. من نفس بلد نفيسة ربما كان أخاها أو قريبا لها.. ولا يعرف كيف يقدم طعاما على الطريقة المودرن المتطورة.. لا يعرف إلا ما يعرفه أى فلاح.. فأخذت تدخل المطبخ وتعلمه كيف يعد الطعام لها وللطفلة فوفو.. إن

فوفو دائما معها أصـبحت كأنها قطعة منها.. وهى لا تدخل هذا البيت إلا لتكون مع فوفو..

ولم يظهر لهـما رحمى بيـه إلا فى هذه المرة التى قلّب فيـها أوراق فوفو ثم صفعها بالقلـم.. ضربها.. وصارح سميرة بأنه يؤمن بأن الخـوف هو الذى يربـى البنات.. لذلك فـهـو لا يدلل فوفو.. إنه يفرض عليها الخـوف.. وقطع الكلام معها وانصرف عنهما ودخل غرفته.. ويومها لم تترك سميرة البيت فى الساعة السادسة كما ينص الاتفـاق.. خافت على فوفو بعد أن رأت فى أبيها هذه الشخصية، وبقيت معها حتى قدمت لها طعام العشاء وإلى أن وضـعتهـا فى فراشـها واطمـأنت إلى أنها قـد نامت.. وكانت السـاعة قد أصبـحت التاسعـة.. إنها تقدم ساعـات عمل مجانا.. ووضـعت نفيسة فى يدهـا الجنيهات العشـرة كما هى العادة..

وقد قضت هذه الليلـة بعد أن عادت إلى بيتهـا وهى ساهمة كأنها تائهة حـتى إنها لم تحس بأُمّها وأختها وهمـا معها داخل البيت.. مـاذا تفعل حتى تـنقذ فوفـو من هذا الأب الذى يفرض الخوف على ابنته.. يجب أن تفعل شـيئا.. وإن كانت لا تستطيع أن تحدد هذا الشىء..

وفى صباح اليوم التالى ذهبت إلى فـوفو فى الساعة الثامنة صباحا لا فى العاشرة كمـا ينص الاتفاق.. إنها خائفة أن تترك فوفو وحدها حتى لا ينفرد بهـا أبوها ويضربها لمجرد أن يبذر فـيـهـا بذور الخـوف.. وبمجـرد أن دخلت البـيت وجـدته فى

مواجهتها جالسا فى الصالون الكبير يقرأ الصحف.. ونظر إليها فى دهشة ثم رفع يده ينظر فى ساعته.. وقالت فى صوت متحفز لأى خناقة :

– لقد جئت مبكرة قبل الموعد حتى أحمى فوفو..

قال ووجهه المتجهم لا يخفى دهشته :

– تحميها من ماذا ؟

قالت فى حدة :

– من الخوف الذى تربيها عليه.. لعلك تصعد إليها وتضربها، كما ضربتها بالأمس.. يا رحمى بيه أحب أن أقول لك إنى لا أؤمن بفرض الخوف على الأطفال لتربيتهم.. المفروض أن تعتمد فى التربية على الإقناع..

وقاطعها دون أن يبدو عليه الغضب :

– إن الخوف هو أضمن طريقة للإقناع.. إن المقتنع بالله يخافه أكثر مما يخافه الكافر به..

قالت وهى لا تزال محتدة :

– هذا الكلام رجعى.. إن الإقناع لا يحتاج إلى الخوف... بالعكس إن الإقناع مع الخوف يسمى الاستسلام.. إنك تريد من فوفو أن تستسلم لك، وهو ما يدفعها إلى أن تستسلم لغيرك.. لكل ما يخيفها.. وكأنك جعلت منها حيواناً أليفا..

ونظر إليها نظرة ليست غاضبة أو مهددة :

– ماذا تريدين ؟

قالت كأنها تفرض أوامرها :

– أريدك أن تترك لى حق تربيتها كاملا.. أى شىء تريده منها اطلبه منى أولا.. حتى لو أردت أن تضربها يجب أن أوافق أنا أولا على ضربها.. إنها أول مرة أضع شروطا للاستمرار فى الخدمة..

قال فى هدوء :

– كما تشائين..

ثم قام من أمامها ودخل غرفته..

وتتبعته إلى أن أغلق الباب وراءه.. غريبة.. إنه ليس حاد الطباع كما كانت تتوهم.. وهو يحتمل أن يوجهه غيره مهما اختلف معه.. وقد أصبحت تذهب إلى فوفو فى الثامنة صباحا ولا تتركها إلا بعد تناول العشاء وتنام.. وفى مرات كثيرة كانت تلتقى به فى الصباح جالسا يقرأ الجرائد، وتكتفى بتحيته من بعيد وهو يرفع رأسه عن الجريدة ويرد تحيتها.. ولم تر أبداً ابتسامة يستقبلها بها.. ولكنها ترى فى عينيه خطوطا مرحبة بها، كأنه يبتسم بعينيه.. ولم يكن يدخل غرفة فوفو كل يوم.. كان يدخل أحيانا ويكتفى بأن ينظر إليها من بعيد ثم ينقل عينيه إلى سميرة ثم يخرج.. وفى مرة استوقفته قائلة :

– إن فوفو ستتم السادسة ولم تدخل مدرسة حتى الآن..

قال وهو يقلب شفتيه كأنه قرفان :

– إننا نستدعى لها مدرسات ثم إنك معها.. وهذا يغنيها عن المدرسة.. قالت كأنها تتحفز لمعركة طويلة :

– لا.. هذا لا يكفى..

قال مقاطعا وهو يبتعد خارجا من الغرفة :

– لنؤجل المناقشة إلى العام القادم..

ووقفت مـجمدة مغـتاظة.. إنه أصبح يحل المشـاكل بالهرب منها.. وكانت قد تتبعته طوال هذه الأيام والأسابيع التى قضتها مع ابنته، وهى تحاول أن تـكتشف شخصيـته.. من هو ؟.. وقد استقرت عـلى إنه يعيش شخصية فـلاح من الجيل القديم.. إنه فـلاح.. وكل ما عـاشـه فى المدينة لم يجـرده من شخـصـيتـه كـفـلاح.. إنه يؤمن بالخـوف كطريق وحـيد لـتربيـة الأطفـال والتعامل مع الناس وهو نفس ما كان يؤمن به أسياد القرى من سادة الفـلاحين فى معاملـة أهل القرية.. وهو لا يريد أن تذهب ابنته إلى المدرسة كما كانت بنات العائلات الكبيرة فى الريف لا يذهبن إلى المدرسة.. ونفـيسه الـتى تخدمه ويعـتمد عليـها كل الاعتماد من أهل قريته.. كذلك الرجـل الذى يعتبر نفسه الطباخ والسفـرجى إنه أيضا فلاح.. والبـيت الذى يقيم فـيه انقلب إلى دوار فلاحى بمجـرد أن توفيت زوجتـه.. وهو يكره ابنته.. لا.. لايكرهـهـا.. ولكنه يعـاملها مـعـاملة البنات فى عـائلات الريف الكبيـرة أيام زمان.. وأحيـانا تحس أنه يعتـبر ابنته عـورة.. قد تفضـحه.. هكذا كـان ينطر رجل زمان من الفلاحين إلى بناتهم.. بل إنه عندما يجلس إلى المائدة ليأكل ويكون وحـيدا لا يستعمل الشـوكة والسكيـن وهو يأكل.. إنه يأكل بأصـابعه.. وبمنتـهى حرية التعامل مع ما يأكله.. إنه ابن فلاح.. ولا يزال هو فلاحا.. ورغم ذلك فقد بدأت تحس أنه يمكن أن يحتمل.. بل بدأت تحس

بالاطمئنان إليه.. وتحس أن شخصيتـه تهب شخصيتها منتهى القوة.. لقد دخل عـليها مرة من المرات النادرة التى يدخل فـيها حجرة فوفو.. ورأى البنت جالسة وصدرها عار فرفع كفه وهَمّ أن يضربها، لكنهـا أمسكت بيده قبل أن تصل إلى صــدغ فوفو وقالت له :

– إنك لم تتفق معى على ضربها.. كما عاهدتنى..

وهبطت ذراعه وأطبق على كفه دون أن يضرب ابنته.. ولوى شفتيه كأنه يحتقر من حوله.. أو ربما يحتقر نفسه.. إنها تربيها وتنشئها بكل مـا تحتاج إليه التربية.. ثم إنهـا أصبحت تصارح نفسهـا بأنها تهتم أكثر من الاهتـمام العادى بتحليل شخـصية رحمى وتـتبعـه فى كل تحركـاته.. إنها تحس بـأنها أصبـحت متعلقة بهـذه الشخصية الفلاحى رغم كل ما فـيها من شذوذ.. ربما أصبحت تحبه.. لا.. إنها حرمت على نفسها حب أى رجل.. ثم من أدراها أن رحمى يمكن أن يحبهـا هو الآخر.. إنها ليست جميلة جمـالا يغريه بها حتى يحبها ويـريدها أكثر.. لعل كل ما هناك أن شخصيتها الجذابة هى التى دفعته إلى تحملها كل هذه المدة.. وتحمل كل مـا تريده لابنته.. على كل حال، فقـد تعودت على العمل فى هذا البيت كأنها لـم تعد تستطيع الاستغناء عنه.. وعن ابنتها فوفـو.. إنها تحبها كأنها فعـلاً ابنتها.. تعودت على العمل فى هـذا البيت حتى إنهـا لم تعد تفكر فى المطـالبة برفع أجــرها.. إنهـا إلـى الآن تعـرف الطـريق إلى عـائـلات السلك الدبلوماسى الذين يدفـعون عشــرة جنيهات فى الســاعة لا فى

اليوم..

إلى أن دخلت يوما البيت فى الصباح الباكر كما تعودت، وقام من على مقعده واقترب منها وقال، وليس فى صوته ابتسامة ولكن فيه رنة رجاء وتحايل :

- إنى مضطر أن أسافر غدا إلى بور سعيد.. وسأضطر إلى أن أغيب يومين.. فهل يمكن أن تبقى مع فوفو هذين اليومين ولا تتركيها وحدها..

ولم تفكر سميرة طويلا، وقالت وهى تبتسم :

- لا.. لا يمكن.. إنى سأبقى معها إلى أن تنام ثم أعود إلى أمى.

قال فى صوت آمر :

- قولى لأمك إنك ستقضين الليل هنا مع فوفو..

وضحكت سميرة كأنها تستهين به كرجل يستطيع أن يأمر :

- أمى لا يمكن أن توافق على أن تختفى البنت عن البيت طوال الليل إلا إذا كانت قد تزوجت..

قال رحمى فى صوت لايبدو فيه المفاجأة وكأنه يقول ما قرره من زمن طويل :

- لنتزوج.. اليوم سأذهب معك إلى والدتك ومعنا المأذون..

قالت سميرة وهى ترتعش من الدهشة..

- ماذا تقول ؟

قال فى هدوء :

- سنتزوج.. وإن كنت أرجو إعفائى من أى حفل لزواجنا..

لن يكون معنا غـريب.. وثقى أنى سبق أن فكرت طويلا فى هذا الزواج.. لا من أجل التـخلص من عبء تربيـة فوفـو فحـسب.. ولكن لأنى فى حاجة إلى هذا الوضـع..

وكان يـقول كل هذا دون أن تبـدو بين شفـتيه ابـتسامـة، ولكن نظرات عينيه فيها رجاء لها.. قالت وهى ساهمة دون أن تنظر إليه :

– إنى لا أستطيع أن أعيش خائفة..

قال بسرعة :

– أعرف.. أنك تعيشين بالمنطق والإقناع لا بالخوف..

قالت فى صوت متردد..

– إذن كما تريد..



وتم الزواج.. وعادا وحـدهما إلى البيت.. وفـوفو فى انتظار سميرة وهى تبكى لغيابها عنها.. وأخذتها سميرة بين أحضانها ودخلت بها إلى غرفتها.. وقال رحمى من بعيد :

– سأنتظرك فى غرفتى..

قالت وهى تضحك ضحكة لم يسمع البيت مثلها من قبل :

– لا.. سـأنام مع فـوفـو.. كـان الزواج لهـا ولنـنتظر إلى أن يصـبح لك.. وأكـون كأنى أصـبـحت زوجـتك لا زوجـة فوفـو وحدها..

ودخل غـرفتـه وقـذف بالباب وراءه يغلقـه فى عنف كـأنه يصفعها على وجهها..

وبدأت القصة من جديد..

صديق ذهب..

تعودت نسيان أى قصة أكتبها بعد نشرها حتى يتفرغ عقلى تفرغا كاملا للبحث عن قصة أخرى أكتبها.. إنى أكتب كل قصة وكأنى لم أكتب قبلها أى قصة.. وأحس أنى فى حاجة دائما لمن يذكرنى بما نشر لى من قصص قصيرة فإنى منذ وعيت وأنا أهوى كتابة القصص القصيرة إلى حد الإدمان.. حتى أنى أكاد أكتب كل أسبوع قصة قصيرة ووصل عدد ما نشر إلى مئات.. وكل قصة أنساها وأعيش كلى فى قصة أخرى أكتبها..

ولكنى بعد أن انتهيت من كتابة هذه القصة القصيرة وجدت خواطرى تندفع إلى تذكر أنى عرضت موضوع هذه القصة فى قصة أخرى سابقة قد أكون نشرتها منذ عام أو منذ عشرة أو عشرين عاما.. ودون أن أحاول التأكد بمراجعة ما سبق أن نشر لى من قصص قررت بينى وبين نفسى عدم نشر هذه القصة..

ولكن لماذا لا أنشرها.. إن الموضوع الواحد يتسع لعشرات القصص.. وتختلف كل منها فى رسم الشخصيات.. وفى تحديد الأحداث.. وفى الوصول إلى النتائج.. ثم فى أسلوب الرد نفسه.. بل إن بعض كبار الكتاب العالميين أعادوا كتابة قصص سبق أن كتبوها ونشروها بعد أن خطرت لهم صور وأفكار أوسع مما سبق أن كتبوه.. ولا يمكن أن يتهم كاتب بأنه يسرق أفكاره من نفسه أو يحدد نفسه مادام يقدم جديدا حتى فى موضوع يعتبر قديما بالنسبة له بعد أن سبق أن عرضه.. لذلك ودون أن أراجع ما سبق أن كتبته فقد أقدمت على نشر هذه القصة وأنا متأكد أنها قصة جديدة حتى لو كانت تعرض موضوعا سبق أن عرضته.



سألوه وهو بينهم :

– أين صديقك معتز عبد الرحمن.. لقد تعودنا أن نراه دائما وهو فى صحبتك.. ثم لم نعد نراه.. وابتسم الدكتور ياسر وقال وقد انطلقت عيناه إلى بعيد كأنها تعلقت بذكريات :

– ولا أنا.. لم أعد أراه..

وكان الناس قد تعودوا فعلا على أن يروا معتز عبد الرحمن، وكأنه ولد ملتصقا بالدكتور ياسر.. فهو دائما معه فى جميع مجالات المجتمع.. بل إن الدكتور ياسر كان يدعى أحيانا بمفرده إلى إحدى السهرات، فيستأذن دائما فى صحبة معتز معه.. وحتى فى العيادة الطبية التى يعمل فيها الدكتور ياسر فقد

كانت تنقسم إلى غرفة مكتب بجانب غرفة الكشف على المرضى.. وكل مريض يدخل إلى غرفة المكتب يرى معتز قابعا فيها منزويا على مقعد جانبى بعيدا لا يتكلم ولا يسمع.. ولكنه يقطع الوقت الطويل يتصفح الصحف والمجلات أو قراءة كتاب.. حتى ينتهى الدكتور ياسر من الكشف على مرضاه فيخرج من العيادة وبصحبته معتز الذى تنطلق على شفتيه ابتسامة فرحة كأنه طفل يصحبه أبوه إلى نزهة..

وقد ارتبط أحدهما بالآخر منذ كانا طالبين فى المدرسة الثانوية.. ومنذ البداية والفارق شاسع بين شخصية كل منهما... فقد كان ياسر يعيش الحياة كلها، ويقبل على التمتع بكل جوانبها.. كان وهو طالب من الشخصيات البارزة بين الطلبة.. كان من البارزين فى أكثر من رياضة.. وكان من قادة كل المشاكل الطلابية.. وكان فى الوقت نفسه ينجح بسهولة فى امتحان كل عام.. كما كان أيضا يعيش فى قصص غرام متنقلا بين قصة وقصة، أى بين فتاة وأخرى.. بينما كان معتز لا يمارس الحياة، ولكنه يبدو كأنه لا يستطيع أكثر من الفرجة عليها.. ولعل ما كان يربطه بياسر إنه أدمن الفرجة عليه.. يتفرج عليه وهو يلعب.. وهو يعمل.. وهو يضحك.. وهو جاد.. حتى وهو يغازل فتاة.. أو يهرب من فتاة.. كان معتز يبدو بلا أى شخصية فى أى مجال.. كان يبدو كأنه يعيش كمجرد إناء يصب فى نفسه متعة الفرجة على ياسر.. وقد انتهى ياسر من دراسته الثانوية قبل معتز بسنتين.. والتحق بكلية الطب..

استطاع بعد تخرجه بسنوات قليلة أن يكتسب اسما محترما بين الأطباء، وثقة هائلة بين المرضى.. أما معتز فبعد أن اجتاز الدراسة بمشقة التحق بكلية التجارة، وطال عمره فيها إلى أن تخرج، واستسلم لوظيفة حكومية متواضعة جاءت إليه دون أن يسعى إليها.. ورغم هذا فقد عاش دائما ملتصقا بياسر.. مستسلما لإدمانه الفرجة عليه..

وقد تعود الدكتور ياسر على صحبة معتز والارتياح إليه كأنه هو الآخر قد أدمنه.. ربما لأنه مستسلم له كل هذا الاستسلام.. ولأنه ليس فيه شيء يثيره أو يخشاه.. ولذلك كان يترك بابه مفتوحا له على آخره.. ويترك له حق الاطلاع على كل أسرار تصرفاته.. سواء تعمد اكتشاف هذه الأسرار أم وصلت إليه تلقائيا بحكم معاشرته.

ولم يكن فى مظهر معتز ما يفرض عليه هذا الاستسلام لشخصية ياسر.. أى ليس - مثلا - له مظهر منفرد بحيث يعتزل الناس كلهم ويكتفى بارتباطه بياسر.. أو يصاب بعقدة نفسية تجعله يتصور أن الناس تنفر منه ولا يطيقه إلا ياسر.. بالعكس.. لقد كان معتز عبد الرحمن شابا وسيما رشيقا. مريحا يمكن أن يجتذب كل من يلتقى به.. ولكنه هو نفسه لم يكن يحس بوسامته ولا برشاقته حتى يحاول الاعتماد عليها واستغلالها.. كان غريبا.. لا يحس بأى صفة من صفاته.. ولا يحس بأنه وسيم أو رشيق.. ولا يحس بأنه ذكى أو غبى.. ولا يحس بأنه قوى أو ضعيف.. كأنه حتى بعد أن أصبح شابا لا يزال

طفلا رضيعا لا يحس بأى حاجة من نفسه إلا حاجته إلى ثدى أمه.. وكأن صديقه ياسر قد أصبح الثدى الوحيد الذى يحس به ويحتاج إليه ليرضع.. وهو دائما مبهور بكل ما يرضعه من هذا الثدى.. مبهور بالشخصيات التى يتفرج عليها وهو بصحبة ياسر.. ومبهور بالمجتمعات اللاهية أو الجادة التى يصحبه إليها..

وقد كانت ناحية من نواحى شخصية الدكتور ياسر قد ازدادت اتساعا بعد أن نجح كطبيب وأصبح ذا اسم رنان فى المجتمع.. وهى ناحية تعلق البنات والنساء به وإدمانه إشباع متعته بهن.. إلى منتهى ما يستطيع أن يصل إليه من متعة.. حتى إنه نظم حياته كلها على هذا النوع من البنات والنساء اللاتى وقعن فى التعلق به.. ولم يطرأ على باله أبدا أن يتزوج.. إنه ليس فى حاجة إلى الزواج.. ولم تصادفه واحدة فرضت عليه الاقتناع بأن يتزوج.. ثم لماذا يضحى بكل هذه المتعة السهلة التى توفرها له شخصيته ونجاحه ويتزوج..

وكانت كل امرأة من هذه المجموعة تأتى إليه فى العيادة بالاتفاق معه.. وتبقى فى غرفة المكتب إلى أن ينتهى من مرضاه فيغلق باب العيادة ويتفرغ لها فى غرفة المكتب.. وصديقه معتز دائما فى غرفة المكتب والمرأة الوافدة تجلس بجانبه.. ولم يكن من طبيعة معتز أن يثير الحديث بينه وبين أى امرأة.. فكانا يجلسان صامتين.. وربما يقنعان نفسيهما بالصمت حتى لا يزعجا الدكتور ياسر وهو يؤدى عمله.. حتى يغلق باب العيادة

ويبدأ الدكتور ياسر نفسه فى بث الحياة الأخرى فى الغرفة.. ويرتفع انبهار معتز بأسلوبه فى التعامل مع المرأة.. وينبهر بكل الكلمات التى يتداولها معها كأنها كلمات موسيقية تطرب أذنيه.. إنها كلها كلمات حب.. ورغم إنها كلمات مكررة يتبادلها ياسر مع كل امرأة إلا إنها كلمات مطربة.. ثم يقوم معتز ويعد الكؤوس ومستلزماتها دون أن يطالبه الدكتور ياسر بشىء.. وكأنها مسئولية مكلف بها معتز.. وفى الغرفة دولاب صغير مبتعد مختف يضم كل متطلبات الكأس ولا يعرف سره إلا معتز.. ثم يعود ويجلس معهما حول الكؤوس التى أعدها إلى أن يقوم الدكتور ياسر ويشد المرأة إلى الغرفة الأخرى.. غرفة الكشف.. وهو يقول ضاحكا.. عن إذنك.. سأكشف على ست الحسن والجمال.. لعل صحتها قد تحسنت.. ثم يغلق باب الحجرة الأخرى عليهما.. ومعتز قد يبقى وحيدا منتظرا نهاية الكشف وهو يكمل كأسه.. أو قد ينصرف بلا استئذان.. وهو لا ينصرف ولا يبتعد عن الدكتور ياسر إلا إذا ألح النوم على جفنيه ولم يعد يستطيع مقاومته..

كانت هذه مظاهر روتينية فى الحياة التى تجمع بين ياسر ومعتز.. وإن كان ياسر أحيانا يستقبل امرأة فلا يتركها تنتظره فى غرفة المكتب بل يصحبها مباشرة إلى غرفة الكشف بعد أن يؤجل موعد الكشف عن أحد المرضى المنتظرين.. خصوصا إذا كانت هذه المرأة جديدة التردد على العيادة.. أو كانت صغيرة لا تستطيع الانتظار الطويل.. وفى مثل هذه الحالات يحس معتز

بحسرة.. يحس أنه ظلم مع هذه الفتاة.. لأنه حُرم من جلسة الفرجة التى يعيش بها..

إلى أن ظهرت ماجدة فى العيادة وأصبحت ممن ينتظرون فى غرفة المكتب..

وماجدة امرأة شابة جميلة.. ومثيرة.. وإن كان جمالها يبدو كأنه مرسوم كما يبدو أنها تحترف الإثارة.. ولم تكن ماجدة تجلس صامتة بجانب معتز وهما فى الانتظار بل كانت تستطيع دائما أن تشد معتز إلى أحاديث يتبادلانها فى همس.. ومعتز يستجيب إلى هذا الهمس كأنها تنتشله من طبيعته.. والدكتور ياسر يصل هذا الهمس إلى أذنيه.. ويلومها بنظرات عينيه فيعودان إلى الصمت برهة ثم لا تلبث ماجدة أن تضيق بصمتها وتعود إلى الهمس مع معتز.. إلى أن ينتهى الكشف على المرضى ويغلق باب العيادة وتبدأ الجلسة الروتينية دون أن يتغير فيها شىء..

إلى أن جاءت ماجدة ذات مساء إلى غرفة المكتب وانتظرت.. ولكنها كانت متعجلة.. وطلبت من الدكتور ياسر أن يؤجل الكشف على مرضاه.. ولكنه اعتذر فى كلمة حلوة.. إن العيادة مزدحمة هذا المساء بالمرضى وهو لا يستطيع أن يتخلى عنهم.. أو ربما لم تكن ماجدة دافعا كافيا له للتخلى عنهم وقالت ماجدة بابتسامتها المثيرة :

– آسفة.. إنى مضطرة أن أتركك.. لنؤجل موعد الكشف إلى موعد آخر يادكتور..

قال الدكتور ياسر ضاحكا :

- كما تريدين.. ما دمت لست فى حالة حب خطيرة.. ثم التفت إلى معتز قائلا :

- اصحب ماجدة فى سيارتك إلى حيث تريد.. وقام معتز مستسلما فى صمت وخرج من غرفة المكتب وراء ماجدة..

وتفرغ الدكتور ياسر لاستقبال مرضاه إلى أن انتهى منهم كلهم.. وألقى نفسه على مقعده فى غرفة المكتب وهو يزفر أنفاسا متعبة.. ثم فجأة وبسرعة اتسعت عيناه دهشة كأنه تذكر شيئا قد نسيه.. أين معتز.. إنه ليس معه فى الغرفة.. وأطل فى ساعته.. لقد مضى على خروجه أكثر من ساعتين.. وتكليفه بتوصيل ماجدة إلى حيث تريد لا يمكن أن يستغرق أكثر من نصف ساعة.. وليس من عادته أن يتصرف فى نفسه مما يكلف به.. فلماذا لم يعد إلى العيادة حتى الآن.. أين ذهب.. أو ماذا حدث له.. وضاقت عينا الدكتور ياسر جزعا وهو يتصور أن معتز قد يكون تعرض لحادث وهو يقود سيارته..

وفجأة دق جرس التليفون.. ورفع ياسر السماعة فى لهفة.. إنه معتز.. وقبل أن ينطق بكلمة سمعه يصيح :

- لا تكلفنى مرة ثانية بتوصيل ماجدة.. أو مجرد أن تتركها تنفرد بى فى أى مناسبة.. لقد حاولت أن تحرضنى على نفسها.. إنها من الصنف الذى يسعى إلى التهام أى رجل..

وابتسم ياسر بينه وبين نفسه ابتسامة ساخرة ثم قال فى هدوء :

– لماذا لم تعد إلى.. أين أنت الآن..

قال معتز بكلمات مرتعشة :

– لقد أنهكتني مقاومة ماجدة وتأديبها حتى إني بعد أن تخلصت منها أحسست أنني لن أستطيع أن أقف على قدمي.. وقررت أن أعود إلى البيت وألقى بنفسي على الفراش حتى أسترد أنفاسي بعد أن أتصل بك بالتليفون وأطمئنك..

قال ياسر من خلال دهشته :

– إذن.. إلى الغد.. تصبح على خير..

وألقى سماعة التليفون وهو يحس بإحساس غريب يطرأ عليه لأول مرة كأنه يريد أن يثبت لمعتز أنه لا يهمه وأنه يستطيع أن يستغنى عنه فى أى ليلة من الليالى..

ولم تمر سوى دقائق حتى دق جرس التليفون مرة أخرى.. ورفع الدكتور ياسر السماعة وهو يعتقد أنه معتز عاد ليقدم مزيدا من الاعتذارات.. أو ربما تحامل على نفس وقرر مقاومة ما يدعيه من إنهاك ويبلغه أنه فى طريقه إليه.. ولكنه ليس صديقه معتز.. إنها ماجدة.. وقالت له فورا :

– يبدو أن الصداقة لا تساوى شيئا بين الرجال.. وأنت تعتز أن معتز صديقا لك حتى إنى كنت أغار منه عليك.. وأتحمل فى سخط أنك تفرضه علينا فى كل جلسة تجمع بيننا.. وكنت أتحمله مقتنعة بما يربطكما من صداقة كأنكما أخ وأخوه.. لا يا دكتور.. أحب أن أقول لك إن معتز لا يحترم صداقتك.. لقد حاول أن يعتدى علىّ بعد أن انفرد بى بعيدا عنك.. كأنه لا

يعترف بأنى لك وحدك.. كأنــى زوجة أخيه.. إنه لم يراع شرف المبادىء التى تجمع بين الأصدقاء.. ولكنى قاومته حتى وصلت به إلى اليأس من أن أمنحه ولو مجرد لمسة..

وافتعل ياسر ضحكة عالية وقال :

– اعذريه يا ماجدة.. فإن جمالك لا يقاوم..

قالت ماجدة فى حدة :

– لا تترك له الفرصة لينفـرد بى مرة ثانية.. وأنا نفسى لن أقبل أن أنفرد به..

قال ياسر وهو لا يزال يضحك :

– اطمـئنى.. سـأدعـوه إلـى المبـارزة وسـأقطع رقـبـتـه.. وسأنتظرك غدا..

قالت ماجدة فى تردد :

– لا.. ليس غدا.. وإلى اللقاء..

ووضع الدكتور ياســر سماعة التيلـفون وهام فى تحليل ما سمعه وما حدث.. ووجـد نفسه ينتهى إلى ترجيح أنه قد تم كل شىء بين معـتز وماجدة.. لقـد أعطى كل منهما نفســه للآخر.. أخذ معتـز ماجدة.. وأخذت ماجدة معـتز.. وذاب كل منهما فى جسد الآخر.. ولكن لا شك أن معتـز متأكد من قوة تعلق النساء بصديقه الدكـتور ياسر وربما خشى أن تسبقـه ماجدة وتروى له ما حدث بيـنه وبينها وتدعى أنها كانت بريئـة ومغلوبة على أمرها.. ولذلك فقـد سبقها هو إلى صديقـه ياسر وروى له أنها حاولت إغراءه ولكنه قاومها.. وكـذلك من ناحية ماجدة فهى لا شك تقدر مدى ارتباط معتز بصداقة ياسر وخشيت أن يسبقها

إليه ويروى له ما حدث مدعيا هو الآخر أنه مغلوب على أمره لذلك فقد حاولت أن تسبق معتز إلى التحدث مع ياسر حتى تبرىء نفسها من كل ما يمكن أن يقوله له معتز.. أى أن كلا منهما حاول أن يبرىء نفسه حتى يحتفظ بصداقة الدكتور ياسر.. وارتباطه به.. وثقته فيه..

هذا ما وصل إليه فكر الدكتور ياسر.. واعتمد على عدة مظاهر تؤكد أنه على حق.. فقد اتصل به كلاهما بالتليفون فى وقت واحد.. وبعد أن مضت ساعات على ابتعادهما عنه تكفى ليحققا خلالها متعة لقائهما معا..

ورغم ذلك فهو ليس ثائرا ولا ناقما على ماجدة أو على معتز.. إن ماجدة ليست سوى متعة عابرة من بين عشرات المتع التى تملأ حياته.. ولا يطالبها بأى دليل على الحب إلا دليل ترددها عليه بين وقت وآخر.. ولا يحس بأنه يفرض عليها الإخلاص وأن تكون له وحده.. ما دامت تعطيه ما يريد.. وهو لا يريد أكثر من لحظات المتعة.. أما معتز فقد ربطته به فعلا صداقته الطويلة.. حتى لم يعد يستطيع أن يستغنى عنه وعن صداقته.. وقد كان اطمئنانه إليه يتخلله إشفاق عليه لأنه يعزل نفسه عن متع الحياة كل هذا العزل.. ويكتفى بمجرد الفرجة عليه.. وكثيرا ما حاول أن يدفعه إلى مصاحبة فتاة يختارها له.. أو يدفعه إلى عمل واسع يوفر له مكانة اجتماعية خاصة به.. ولكن شخصية معتز.. الشخصية المتباعدة والخجولة والضعيفة اجتماعيا كانت لا تحتمل أى تطور بها.. فإذا كانت ماجدة قد

استطاعت أن تحقق هذا التطور وتشد معتز إلى دنيا جديدة عليه.. فإن ياسر سعيد.. وربما لو أن معتز نفسه سأله أن يترك له ماجدة لتركها له..

إنه لا يهمه ما حدث بين ماجدة ومعتز مهما كان ما حدث.. إن كل ما يهمه هو أن يتأكد من معرفة ما حدث بكل تفاصيله..

وكان قد تأخر الليل وهو جالس فى مكتب العيادة شاردا مع خواطره.. ثم إنه لم يتعود أن يخرج ليقضى سهرة دون أن يكون معتز فى صحبته.. لذلك قرر فى هذه الليلة أن يخرج من العيادة إلى البيت.. دون أن يحس بحاجته إلى أى متعة ترفع عنه تعبه مع مرضاه..

إنه لا يزال مرتبطا بمعتز.. كلاهما يقضى السهرة وحده فى البيت.. وإن كان معتز فى هذه المرة هو الذى فرض إرادته..



وعاد معتز مواظبا كعادته فى التردد على العيادة والانتظار الطويل فى غرفة المكتب إلى أن ينتهى الدكتور ياسر من عمله ولقاء مرضاه.. وقد فقد واحدة من المعجبات إلى غرفة المكتب، ويقوم معتز فى بساطة بتأدية واجبه المفروض عليه بتقديم الكؤوس وما تحتاجه الكؤوس.. إلى أن يترك الدكتور ياسر يصحب المرأة إلى غرفة الكشف ويغلق الباب وراءه.. وفى هذه الأيام لم يحاول ياسر أن يلح على معتز حتى يروى له ما حدث بينه وبين ماجدة.. إنما مجرد بعض كلمات ضاحكة عابرة كانت

تمر كلمـا جاء ذكـر مـاجدة.. وكـان ياسـر لا يحاول أن يفـتح الموضوع فى نقـاش مع معـتز فى انتظار أن يبـدأ هو بالحديث فيه ورواية أسراره.. ولكن معتز لم يبدأ أبدا كما أن ياسر لاحظ أنه أصبح أكثر سرحانا وصمـتا مما كان عليه.. بل إن معتز بدأ يتأخر كثـيرا عن موعد ظهوره فى العيـادة وانتظاره فى حجرة المكتب.. كـما إنه فى أحـيان كـثيـرة يعتـذر عن إتمام السهـرة بصحبة ياسر ويدعى حاجته إلى العودة إلى بيته..

وفى نفس الأيام بدأ الدكتور ياسـر يلاحظ أن ماجدة لم تعد تفـد عليـه دون أن يدعـوها إلى لقـائه فى غـرفـة المكتب كـمـا تعـودت.. كأنهـا قـد أنهت ارتباطهـا به.. مـضت أيام طويلة لم تظهر فى العـيادة.. وهو لم يتعـود أن يبدأ بدعوتهـا ولكنه كان يكتفى دائمـا بالسمـاح لها بزيارته عندما تطلـب وعندما يحس بحاجته إليها..

وقد اشـتدت الحـيرة بالدكـتور ياسـر حتى تجـرأ واتصل بماجدة وبدأ هو بدعوتها إلى رؤيته مؤكدا فى كلمات حارة أنها قد أوحشته.. وقالت ماجدة كأنها تقاوم استسلامها :

– أريد أن أراك وحـدك.. وأنت تعـرف لماذا ؟ فقـد سـبق أن شكوت لك..

قال ياسر بسرعة :

– إنى وحدى وليس لى إلا أنت..

كأنه خدعها بكلمة حلوة..

وفى نفس اليوم تأكد أن معتـز سيكون معه ولو إنه حرص

على ألا يبلغه أنه اتفق مع ماجدة لتكون معهما..

إنه يريد أن يفرض واقعا يعينه على اكتشاف السر الذى لم يصل إليه بعد.. يريد أن يعرف أسرار ما تغير فى شخصية صديقه معتز وما تغير فى ارتباط ماجدة به..

وجاء معتز وجلس على المقعد المنزوى فى انتظار أن يبدأ الفرجة.. وبعد قليل دخلت ماجدة..

ولاحظ ياسر رعشتها كأنها صدمت برؤية معتز.. ولاحظ أنفاس معتز تنهج كأنه صدم برؤية ماجدة..

ولكن كليهما كتم مشاعره وبدأت الجلسة مع الدكتور ياسر كما تعودوها.. وإن كان معتز قد ابتعد عن ماجدة كأنه لا يريد أن يستمع إلى همساتها التى عودته عليها كلما التقيا فى هذه الغرفة.. وماجدة نفسها لا تحاول أن تهمس له.. وقد أدارت رأسها عنه كما أدار رأسه عنها..

وكما هى العادة انتهى الدكتور ياسر من مرضاه وانتقل جالسا بينهما.. ومعتز لم يندفع فى إعداد الكؤوس كعادته حتى اضطر ياسر أن يصيح به :

- أين الكؤوس يا معتز..

وقام معتز متكاسلا دون أن ينظر إليهما وعاد بالكؤوس.. ثم استمر لجلسة باردة ثقيلة تتردد فيها كلمات مفتعلة دون أن يستطيع الدكتور ياسر بكل خفة دمه ولباقته أن يزودها بأى ضحكة.. إلى أن قام وشد يد ماجدة قائلا :

- تعالى لأكشف عما جرى.. إنى متأكد أنك أصبحت

مريضة..

وحاول أن يشدها إلى الغرفة الأخرى.. فإذا بها تقاوم وهى تنظر إلى معتز كأنها تستغيث به.. وقام معتز منطورا قائلا :

- إنى منصرف..

وصاحت ماجدة :

- انتظر.. سأنصرف قبلك ولن أنصرف معك حتى لا تدعونى إلى سيارتك..

ثم التفتت إلى ياسر وقالت من خلال ابتسامة مرسومة :

- آسفة يا دكتور.. إنى متعبة..

ودون أن تنتظر منه كلمة شدت يدها من يده وخطت كأنها تجرى إلى خارج العيادة..

وانتظر معتز دقائق وهو صامت.. والدكتور ياسر ينظر إليه كأنه يحلق فيه متسائلا وهو صامت هو الآخر.. إلى أن خطا هو الآخر خارجا من العيادة..

وابتسم الدكتور ياسر ابتسامة ثقيلة وهو يقول لنفسه.. من يدرى.. ربما وجد ماجدة فى انتظاره داخل سيارته..



ومن يومها لم تدخل ماجدة العيادة ولم تجلس فى غرفة المكتب فى انتظار أن تبدأ السهرة.. ولم يحاول الدكتور ياسر الاتصال بها ودعوتها.. لم يعد فيها ما يجذبه إليها.. وازدحام حياته يجعله فى غنى عنها..

والأغرب من ذلك أن معتز عبد الرحمن أيضا بدأ يتباعدعن

الدكتور ياسر.. كأنه يهرب منه أو كأنه يقطع نفسه منه بعد هذا الارتباط الكامل الذى جمع بينهما كل هذا العمر الطويل.. وقد اتصل به بالتليفون وقال فى لهجة لم يسمعها منه من قبل :

– لن أراك الليلة.. فإنى مشغول.. مشغول جدا.. وسأروى لك التفاصيل عندما نلتقى..

ومع صدمة الدهشة استسلم الدكتور ياسر إلى اعتذاره دون أن يلح عليه.. وكان أشد ما أثار دهشته هى اللهجة التى يحدثه بها معتز.. إنه يتحدث فى لهجة قوية باترة كأنه يفرض عليه قراره بعدم رؤيته.. وهى لهجة لم يتعود سماعها منه.. فقد كانت لهجته دائما لهجة استسلام وضعف كأنها لهجة طفل يحادث أباه.. لهجة محتاج.. على الأقل محتاج للفرجة.. لعل معتز قد كبر وأصبح رجلا يمكن أن يستقل بشخصيته ويرتفع فوق الاستسلام.. ياترى فيم هو مشغول حتى يستطيع أن يعيش بلا رؤيته ؟.. مشغول بنفسه إلى حد لم يعد فى حاجة إلى أن يكون مجرد متفرج على صديقه.. وابتسم الدكتور ياسر ابتسامة ساخرة وهو يقول لنفسه.. لعله أصبح مشغولا بماجدة..

وقد جاء إليه معتز بعدها بأيام ووقف كأنه شخص جديد لم يره من قبل.. واقف مشدود أمامه كأنه فى منتهى قوة الشخصية.. وقال فى كلمات حاسمة كأنه لا يسمح بمناقشته :

– لقد استقلت من الوظيفة الحكومية.. وساهمت فى شركة للتصدير والاستيراد.. أكاد أتحمل كل مسئولياتها.. لذلك فإنى

متفرغ لها تفرغا كاملا ولم أعد أجد الوقت للقياك.. اعذرنى..

وقال الدكتو ياسر فى دهشة :

- مبروك.. إنى أؤيد انطلاقك فى الأعمال الحرة و..

وقاطعه معتز بسرعة قائلا :

- لن أستطيع أن أسـهر معك.. إنى على موعـد.. وسأحاول أن أراك.. سلام عليكم..

ومد يده يصافـح ياسر.. وهذا أيضا شىء غريب.. فـهما لم يتعـودا المصافـحة بالأيدى.. فـقد كـانا من الاندماج : أحـدهما بالآخر إلى حد لا يشعران بحاجتهما إلى مصافحة الأيدى.. كأن ليس بينهمـا ما يفرق بـين أيديهما.. إنهـما يلتقـيان ويبتـعدان بمجرد لقاء النظرات.. يكفى أن يرى كل منهما الآخر..

وغـاب معـتز بعـدها عن ياسـر.. لم يعد يراه.. ولم يحـاول ياسـر أن يبـحـث عنه.. إنه يعـتـقـد أنه سـيـتنازل عن قـوة شخـصيتـه.. شخصـية السيـادة.. أوعلى الأقل شخصـية الأخ الكبير المحترم.. ولكنه كان يصل إلى أخباره من بعيد وقد عرف أنه استـقال فـعلا من الحكومـة.. وإنه يعمل فـعلا فى شـركة تصـدير واسـتيـراد.. وعـرف أنه شـوهد أكثـر من مـرة وهو بصحـبة مـاجدة .. هل هى ماجـدة التى غيـرت معـتز كل هذا التـغيـير وجـعلت منه شـخصـيـة جديدة مـخـتلفة تمامـا عن الشخـصية الـتى كان يعيـشها.. أو ربما كـان معـتز فى الواقع يعيش بلا شخصية فخلقـت له ماجدة هذه الشخـصية.. أو ربما كان كل ما حدث أن معتز بعد أن كـان مستسلما للحياة مرتبطا

بالدكتور ياسر أصبح يعيشها مستسلما لارتباطه بماجدة.. ولكنه استسلام نقله إلى دنيا جديدة وإلى شخصية أخرى أقوى وأقدر على إثبات وجودها.. وماجدة امرأة شاطرة تستطيع أن تلهم بناء الشخصيات..

وقد أصبح الدكتور ياسر يعانى فقدان معتز.. لقد عاش حياته كلها ومعتز بجانبه يعيشها معه.. وقد فقده.. ومن المستحيل أن يجد شخصية أخرى تعوضه عنه.. لن يجد أبدا شخصا آخر يعيش كمجرد متفرج عليه كما كان معتز.. إنه يعيش الآن وهو فى منتهى الوحدة ولا يحس بأحد يتفرج عليه.. ولكنه كان لا يزال يتتبع أخبار معتز من بعيد... كأنه يتتبع قطعة منه قد تركته وهاجرت إلى الخارج.. إلى أن عرف أن معتز قد تزوج ماجدة فعلا.. وأنهما أصبحا يقيمان فى عش الزوجية..

ولم يكن معتز قد دعا ياسر إلى عقد الزواج.. وحتى بعد ذلك لم يدعه أبدا إلى عش الزوجية كمجرد صديق..

وله حق..

إنه حريص على نسيان ماضى زوجته وينأى عن كل ما يذكره به ولعل زوجته هى التى لا تريد أن تذكره بماضيها..

الحـــب والــفـــــن..

لقد حقق النجاح منذ البداية.. وأصبح مخرجا سينمائيا من أفراد القمة الذين يعدون على أصابع اليد الواحدة.. ولم يكن مجرد مخرج سينمائى بل كان أيضا منتجا سينمائيا.. وكان قد ورث عن أبيه مشروعا زراعيا كبيرا ترك إدارته كله لأخيه الأصغر، وتفرغ هو للسينما وكان يسحب على حساب المشروع الزراعى وينتج فيلما.. وأخوه لا يعارضه أبدا.. ولكنه كان يغطى دائما قيمة ما سحبه من المشروع الزراعى إلى أن أصبح الدخل السينمائى أضعاف دخل المشروع..

أى إنه كان منتجا ومخرجا سينمائيا ناجحا جدا.. وذلك أيام مجد السينما أى قبل عصر التليفزيون.. وكان أيضا إنسانا اجتماعيا وسيما خفيف الدم..

وكل هذه الصفات كانت كافية بلا شك لتجذب إليه كل أنواع

البنات والنساء.. يذبن صبابة فيه ولو من بعيد لبعيد... ولكنه منذ البداية كان قد حرم على نفسه نوعين من النساء.. فهو لا يقيم علاقة خاصة مع أى أنثى تعمل فى السينما كممثلة أو تسعى لتكون ممثلة ونجمة سينمائية.. لا لأنه لا يحترم نساء السينما أو يعتبرهن من عالم آخر غير عالمه الخاص البعيد عن السينما.. أى عالم حياته الخاصة.. إنما فقط لأن الفن أقوى من الحب.. وأى امرأة تعمل فى التمثيل السينمائى هى فنانة.. وفنها يغلبها على الرجل الذى يمكن أن تحبه أو تتزوجه.. أى تهجره أو تخونه إذا اضطرها الفن أن تهجر أو تخون.. ولا تهجر أو تخون الفن نفسه من أجل رجل سواء كان حبيبها أو زوجها أو أباها أو أخاها.. وهو يريد من أى فنانة تعمل معه أن تعيش الفن وحده. لا شيء غير الفن.. لا حب ولا زواج ولا حتى مجرد ساعات متعة.. وعلاقة أقرب إلى علاقة رسمية بين مخرج سينمائى وفنانة.. لذلك لم تعرف عنه أى علاقة مع أى امرأة أو فتاة فى كل المجتمع السينمائى أو كل المجتمع الفنى.. أى بما فيه مجتمع المسرح ومجتمع الموسيقى ومجتمع الرقص..

وكان دائما يستشهد بأنه لا الحب ولا الزواج استطاع أن يعيش بين اثنين من الفنانين.. أى بين رجل وامرأة كل منهما يحترف الفن.. والمجتمع الفنى مزدحم برجال تزوج كل منهم امرأة فنانة مثله.. وتمر الأيام ولا بد أن يقع الطلاق.. وقد يتزوج نفس الرجل أو يعاشر فنانة أخرى وأيضا لا تمر الأيام إلا ويقع الانفصال.. يبدو أن الفنان أو الفنانة لا يستطيع أن

يعيش فى حالة فن طول اليوم والعمر كله.. فهو يقضى عمله مع الفن ثم يعود إلى البيت ويجد زوجته أو تجد زوجها فلا يجد أحدهما ما يتحدث فيه إلا الفن.. ويصاب كل منهما بنوع من الزهق والملل ثم تنتهى بالفراق.. إن الإنسان يجب أن يفصل حياته الخاصة عن حياته العامة.. أى إذا كان يقضى عمله بين فنانين فيجب أن يعود إلى بيته فلا يجده أيضا يضم فنانا أو فنانة.. لذلك فإن كل الفنانات اللاتى تزوجن أصحاب مهن أخرى كأطباء أو مهندسين أو مدرسين عشن العمر كله فى استقرار وأكيد قوى، وكذلك كل الفنانين الذين تزوجوا ستات بيوت لسن فنانات..

المهم إنه لم يكن فى حياته الخاصة أبدا ممثلة من ممثلات السينما.. إنه لم يخلط أبدا بين عمله وأغراضه وأمزجته الخاصة..

أما النوع الثانى من النساء اللواتى حرمهن على نفسه.. فهن النساء أو الفتيات اللاتى يعملن فى الصحافة وخصوصا اللاتى يحررن الصفحات الفنية فى الصحف والمجلات.. فإن الصحافة قد تتمكن من الصحفى حتى تتغلب على أى حب.. أى قد يستغنى عن حبيبته أو تستغنى عن حبيبها إذا وجدت ما يفرض نشره الاستغناء عن الحب.. وقد عرف كثيرا من الفتيات الصحفيات وكل منهن تقدمت إليه وهى تعرض أى شىء وكل شىء فى سبيل الحصول منه على خبر أو على موضوع أو على حادث يثير ضجة لو نشرته.. أو على الأقل يصلح للنشر..

ولكنه كان يتعمد أن يعامل الصحفيات باحترام شديد ولا يعطى لنفسه أى فرصة لإقامة أى علاقة شخصية بينه وبين أى صحفية.. وكان بينهن كثيرات من الفتيات المغريات.. ولكنه كان يقاوم هذا الإغراء بحيث يظل كل ما بينه وبين أى واحدة منهن هو الاحترام المتبادل.. وهو لا ينكر أنه فى حاجة إليهن للنشر فى المجلات عن أفلامه وعن نفسه.. كما إنهن فى حاجة إليه للوصول إلى مواد النشر.. وقد عرفن عنه أنه لا يخضع للإغراء النسائى ولإشباع شهواته بل قيل عنه إنه عنين.. وهو عنين فعلا تجاه الصحفيات..

وقد اكتسب فى مجال عمله سمعة الفنان المحترم الهادىء الذى لا يتاجر بفنه لمجرد المتاجرة أو يبيع نفسه لشهواته مع النساء المحيطات به من الفنانات والصحفيات..

ولكن بعيدا عن مجالات العمل السينمائى وبعيدا عن دنيا الفن كانت له دنيا خاصة واسعة مزدحمة بالنساء والبنات.. فهو شاب وسيم.. ومخرج ناجح.. وغنى يكسب الكثير.. كل ذلك كان يشد إليه بنات ونساء المجتمع الراقى.. وقد ارتبط بواحدة.. والثانية.. والثالثة.. والرابعة.. و.. و.. وكان يقول لنفسه إنه ينتظر إلى أن يجد من يتزوجها.. ولكنه لا يعتبر الزواج بداية تجربة.. بل يعتبر الزواج نهاية تجربة لتوفير حياة مستقرة أبدية تجمع بينه وبين من تزوجها.. وحتى يكون الزواج نهاية تجربة لا بداية تجربة فيجب أن تستمر التجربة مدة طويلة.. سنوات.. حتى تؤكد أن كلا من الرجل والمرأة لم

يعد أحدهما يستطيع أن يستغنى عن الآخر وأن كلا منهما يوفر شخصية الآخر للاستمرار بالحياة.. ولكن.. كأنه يحلل الحرام.. فكيف يقضى مع امرأة يحبها سنوات دون زواج.. كيف يعاشرها بلا زواج.. يقصد المعاشرة الجنسية.. ولم يكن يهتم بهذا التساؤل.. إنه يترك هذه المعاشرة من حرية الطرفين.. فقد تقبل امرأة المعاشرة بلا زواج أو تمهيدا للزواج وقد ترفض أخرى أن تلمسها يد رجل إلا بعد الزواج.. وهو يحترم كل احدة وإرادتها وحريتها.. ولم يحاول أبدا أن يخدع امرأة أو يفرض إرادته على امرأة.. يجب أن تكون هى حرة كما إنه هو حر.. وقد قضى شهورا طويلة مع امرأة فى لقاء يومى وليس بينه وبينها أى لقاء جنسى وقضى شهورا أخرى مع امرأة أخرى كانت لا تربط الجنس بالزواج.. المهم إنه لا يخدع ولا يفرض نفسه.. ولا يعد بالزواج إلا إذا وجد من تنتهى إليها التجربة.. ولم يجد حتى اليوم من تنتهى إليها هذه التجربة.. والزواج ليس لقاء جسد امرأة بجسد رجل حتى يكفى فيه الاتفاق عليه دون تجربة كاملة.. إن الزواج هو لقاء الفكر والأحاسيس والطبائع بين رجل وامرأة ولذلك فهو يتطلب مدة طويلة وتجارب واسعة حتى ينتهى إلى نجاح التجربة التى تؤدى إلى عقد القران.. وربما كان ذلك من تقاليد الزواج الشرعية فالتقاليد تخصص فترة خطوبة قد تطول سنوات.. هى فترة تجربة كل منهما للآخر حتى تنجح التجربة فى لقاء الفكر والأحاسيس بين الرجل والمرأة فتنتهى فترة الخطوبة ويعقد القران.. أى إنه

كان يعتبر نفسه مع كل فتاة يجتاز فترة الخطوبة.. وللأسف لم يجتز فترة الخطوبة مع أى امرأة إلى فترة الزواج..

حتى اليوم..

أى إنه ليس متزوجا..

وهو فى الخامسة والستين من عمره ولم تصل به أى تجربة إلى الزواج.. واتسعت عيناه فى دهشة عندما اكتشف أنه فى الخامسة والستين.. كأنه كان قد نسى.. ومهما كان مستوى احتفاظه بقوته التى يعيش بها فهو معرض لأن ينتهى عمره فى أى يوم.. يموت.. وهو يعلم أين ستذهب كل أفلامه وإنتاجه بعد أن يموت.. ولكنه خسر شيئا هاما.. فإن فى مكتبه درجا يعتبره درج الأسرار يضم ألبوما كبير الحجم لصور جميع النساء اللاتى كان لهن دور فى حياته، وكان لكل منهن بعض شهور أو سنوات استولت خلالها عليه.. فماذا يصنع بهذه الصور.. لا يجب أن يتركها حتى يرثها من بعده ورثته.. إن بينها صوراً لنساء تزوجن وأصبحن أمهات ومهما كانت الحالة التى تعيش فيها الآن فلا يجب أن تقع صورهن فى أيد غريبة قد تستغلها ضدهن رغم إنها كلها صور بريئة..

وقد كان من عادته منذ شبابه كلما قامت علاقة خاصة يسميها علاقة حب بينه وبين أى امرأة فإنه يطلب منها صورتها أو يلتقط لها بنفسه صورة ويحتفظ بها فى درج الأسرار ويرفض أن يعيد الصورة إلى صاحبتها حتى بعد أن تنقطع العلاقة بينهما.. ولم يفرض إرادته ويثير مشاكل بسبب

إعادة هذه الصور إلى صاحباتها، ولكنه كان رقيقا مقنعا بحيث تسمح له كل واحدة بالاحتفاظ بالصورة إلى الأبد.. وكان يحس كأن مجموعة هذه الصور تمثل حياته إنها مجتمعة صورة لحياته الخاصة وما جرى فيها.. ورغم ذلك فهو لم يتعود أن يفتح الدرج السرى فى مكتبه ليراجع مشاهدة هذه الصور.. إنه يحتفظ بها كأنها فى داخله.. والإنسان لا يتفرج على داخله.. لا يتفرج على الكبد والطحال والقلب والأمعاء.. و.. و.. ولكن كلها فى داخله يعيش بها.. وكذلك هذه الصور.. إنها فى داخله يعيش بها دون أن يراها أو يتفرج عليها.. وإن كان يحس كثيرا بما تركته فيه من ذكريات.. وهو لا يستطيع أن يتخلص منها حتى لا يتركها وراءه قبل أن يموت.. لا يستطيع أن يمزقها أو يحرقها حتى يصون صاحبتها من أن تقع أى صورة فى يد غريبة قد تعكر حياة صاحبتها أو على الأقل كأنه يذيع سرا من أسرار حياة هذه المرأة الخاصة بعد أن مات.. إنه يحس أنه لو تخلص من هذه الصور وطبعا معها الخطابات الغرامية التى يحتفظ بها أيضا.. يحس لو تخلص منها كأنه ينتحر.. لو أحرق هذه الذكريات فكأنه أحرق نفسه.. ومضت أيام طويلة وهو حائر بين التخلص من هذه الصور بحرقها قبل أن يموت وبين أن يحتفظ بها حتى يموت ويترك الصور إلى المصير المجهول..

وتذكر أنه مضت سنوات لم يتفرج على هذه الصور.. إنه يراها ويتذكرها كأنها تعيش فى داخله.. ولكن يجب أن يشاهد كل امرأة مرت فى حياته.. تحية لها ولنفسه.. ومد يدا مرتعشة

إلى الدرج السرى فى مكتبه.. وأخرج الألبوم الكبير وبدأ يفتح صفحاته بيد مرتعشة.. تزداد ارتعاشا أحيانا كلما ذكرته صورة من الصور بذكريات تثيره..

هذه صورة سعاد.. لاشك أنها أحبته حبا كبيرا لم تتحمل أن تستمر فى التجربة حتى يتم الزواج.. كانت تريد الزواج حالا.. لذلك فقد خدعته وخانته.. تعرفت على شخص آخر وعدها بالزواج.. وظلت عدة شهور وهى تجمع بينه وبين هذا الآخر دون أن يدرى شيئا.. إلى أن فاجأته بالهجرة وذهبت إلى الآخر.. وللأسف.. فقد كان يكذب عليها ويخدعها فلم يتزوجها بعد أن جعلها له وحده.. أى أن سعاد لم تحبه الحب الكامل الذى يمكن أن يبقى العمر كله.. إذن فهى تستحق أن ينزع صورتها من الألبوم كما نزعته من قلبها..

ونزع صورة سعاد ومزقها وألقى بقصاصاتها فى صندوق المهملات.. وهذه صورة خديجة.. لا شك أن خديجة أعطته كل ما يستطيع أن يعطى حب امرأة لرجل.. لم ينقصه شىء أبدا وهو معها.. ولكنه يذكر الآن ما كان عليه الحال أيامها ولم يكن يهتم به وهو ملفوف بلحاف الحب.. لقد كانت خديجة متزوجة وتوفى زوجها وتركها مع ابنتين وبطنها منفوخ أعطى ابنة ثالثة.. ولم يترك لها ما يكفى لكفالة البنات الثلاث وتنشئتهن بحيث تصل بهن إلى المستوى الذى تريده لهن.. مستوى أولاد الذوات.. وتعبت سنوات طويلة وهى تسعى إلى جمع ما يكفى لتنشئة بناتها إلى أن التقت به.. ولا شك إنه بهرها كمجرد رجل

وسيم ناجح خفيف الدم.. وكانت هى الأخرى جميلة وخفيفة الدم وذكية.. وفى أيام ربطهما الحب ووجد نفسه دون تعمد منها أو اضطرار منه مسئولا عن كفالة البنات.. وقد استطاع بثرائه أن يوفر لهن غاية ما تريده لهن أمهن.. ولم تشده إلى التفكير فى الزواج وهو نفسه لم يحس بحاجته إلى الزواج بها.. إنه لا يحتاج منها إلى أى شىء آخر يفرض الزواج... ولكن البنات كبرن.. وهن يتأثرن بما يقال اجتماعيا عن أمهن.. والحب يضعف غالبا وهو يقاوم المجتمع.. إنها لا تدرى ما يكون عليه مصير بناتها وأمهن معروفة بأنها عشيقة رجل.. وبدأت تلح عليه فى الزواج.. ولكنه لا يستطيع الاقتناع بالزواج.. لا يستطيع أن يصل إليه.. وكان أن ابتعدت خديجة هى وبناتها عنه.. لتعيش زوجة لرجل آخر.. لا تحبه هذا الآخر ولكنه يوفر لها ما يفرضه عليها وعلى بناتها المجتمع.. المجتمع الذى يفرض الزواج..

إذن فإنها لم تكن تحبه كل الحب.. كامل الحب.. كانت تحبه من خلال حبها لبناتها.. ورفع الصورة بين يديه وبدأ فى أسى يمزقها ويلقى بها فى سلة المهملات.. ورغم ذلك فهو لا يستطيع أن ينكر أنها كانت تعطيه منتهى الحب... ويحس وهو يمزق الصورة كأنه يكاد يبكى..

وعاد يقلب فى صفحات الألبوم.. هذه صورة ميرفت.. لقد عاشت معه شهورا تبدو وكأنها أيام بل تبدو كأنها دقائق.. لقد كان أيامها فى حاجة إلى الحب.. إلى امرأة تعطيه الحب.. كان

فى أزمة نفسيــة تحتاج إلى أن يخفف منها.. واستــسلم سريعا لحب ميرفت.. وجد نفســه فى الشهور الأولى يصل بكرمه إلى حد أن يشترى لهــا شقة باسمها.. وانتقلت إليهــا هى وأمها بعد أن أشرف بنفســه على تجهيزها.. ولكن كيف تقــيم ميرفت فى شقــة بلا زواج ولكنه لم يقتنع أبدا أن يتزوجــها.. ربما لم يكن أبدا مقــتنعا بالحيــاة الزوجية.. وبســرعة استطاعت مــيرفت أن تجد رجلا آخــر يتزوجها كأنهــا تكمل به عفش وتجهيــز الشقة التى أصبحت ملكهــا.. وعرضت عليه أن يبقى مــرتبطا بها حتى بعد الزواج.. ولكن لا.. مستــحيل.. هذا ليس من طبعه.. إنه يريد المرأة له وحده.. هذا هو الحب..

ورفع صورة ميرفت من الألبوم ومــزقها وألقى ببقاياها فى سلة المهملات التى سيشعل بداخلها النار..

ومرت بين أصابعه كل صــور الألبوم.. وهو يجد فى كل ما يقنعه بأن الحب لم يكن كــاملا فيمزقــها ليحرقــها.. وربما كان يبالغ فى تصوراته ليقنع نفــسه بالتخلص من هذه الصــور قبل أن يموت حتى لا يتركها ليستغلها أحد من الورثة..

ولكن بقيت صــورة..

لم تكن هذه الصــورة هدية من صاحبتها.. إنها صورة توزع فى الشوارع.. صــورة الفنانة الكبيــرة.. السيدة مــديحة بليغ.. وقــد التقطهــا واحــتفــظ بها كــأى واحــد من الناس.. ولكنه لم يحتفظ بها كمخرج ومنتج سينمائى قد يحتاج إليها.. احتفظ بها لأن لها قصة ربما كانت أهم قصة فى حياته الخاصة..

لقد كان أول من جاءته من رجال السينما.. إن فن التمثيل السينمائى يعيش فيها ولا تستطيع أن تعيش بغيره.. وقد وجدها منذ النظرة الأولى جميلة.. جذابة.. محترمة.. عاقلة.. وجد نفسه يستطيع أن يجلس معها ساعات دون أن ينقطع الحديث بينهما.. وهو دائما حديث نظيف.. وقد بدأ يفكر فى أن يظهرها بطلة للفيلم ولكنه وجد نفسه يؤجل اتخاذ هذا القرار.. إنه يريدها لشىء آخر أهم.. وكل يوم يجد الساعات التى تجمعه فى حديث معها.. وهى تصر على ألا يتم اللقاء إلا داخل الاستوديو.. لقد رفضت دعوته لأن يلتقيا فى مكان آخر.. ورفضت إلحاحه فى أن تزوره فى بيته بحجة تقديمها إلى أمه.. إلى أن قالت له :

– متى سأبدأ التصوير..

قال مرحا فى بساطة :

– لن تبدئى الفيلم.. هناك ما هو أهم..

قالت فى دهشة :

– ما هو أهم..

قال فى حب :

– إننا سنتزوج.. والمعروف عنى إنى لا أجمع بين الفن والزواج..

وقد اخترت لك الزواج ولذلك سأخطفك من الفن..

قالت فى لهجة جادة دون أن يبدو عليها أى سخط :

– لا شك إنك قد أحسست بأنى أحبك ربما أكثر مما تحبنى..

وإنى اتمنى الزواج بك ربما أكثر مما تتـمناه.. ولكنى لا أستطيع أن أترك الفن حـتى فى سبـيل الزواج بك.. إنى أحس بالفن فى دمى وأنى سأموت لو لم أظهـر كفنانة.. دعنا نتزوج وأنا فنانة تخرج لى أفلامى..

قال فى حدة :

– مســتحيل أن أجمــع بين الفن والزواج.. لن أتزوج واحدة أحركها أمام الكاميرا لا أمام اقتناعى..

قالت وهى تبتسم فى بساطة :

– مـستـحـيل أن أترك الفن لأتزوجك.. ولا أريد أن أضــحك عليك بأن أبدأ بالموافقة.. باى باى.. ابتعـدت عنه وتركته مذهولا وقد فقد كل ثقته بنفسه.

واستطاعت أن تتـصل بمخرجين وممولين آخـرين.. وظهرت فى أول فـيلم.. والثـانى.. والثالث.. والمـائة.. أصبـحت كـبيـرة ممثلات مــصر.. ولم تقدم على أن تتـركه يخرج لهـا أى فيلم.. كانا إذا التقيا صدفة يلتـقيان فى منتهى الرقة والفرحة ولكن لا يعـرض أحدهـما أن يعـمل مع الآخـر.. إلى أن كـان الأسبـوع الماضى والتقيا بنفس الفرحة وقال لها :

– ألا يمكن الآن أن أخرج لك فيلما..

قالت مبتسمة :

– لا.. مستحيل..

قال :

– لماذا ؟

- لأنى ما زلت أحبك.. وأنت لا تجمع بين الحب والفن وعودتنى على أن أكون مثلك..

قال :

- لقد أصبحنا الآن عواجيز..

قالت :

- حبنا لا يزال فى عز شبابه.. ولكن فننا لا يزال هو الأقوى وهو كل حياتنا حتى اليوم.. وقد احتفظ بصورتها لا فى داخل الألبوم بل رفعها واحتفظ بها تحت الوسادة التى يضع رأسه عليها لينام..

لمن أترك كل هذا ؟!

هذه القصة من وحى سطرين سجلتهما فى تحليل شخصية أحد أبطال رواية « قلبى ليس فى جيبى ».. التى سبق نشرها..



كان يعتبر نفسه دائما إنسانا قادرا على النجاح فى تحقيق كل ما يخطر على باله.. ولم يكن يخطر على باله إلا الوصول إلى مستوى أعلى وأرقى من المستوى الذى عاش فيه مع أبيه.. وقد وصل إلى هذا المستوى العالمى الذى يشمل كل نواحى الحياة التى يعيشها.. وكان يقضى معظم ساعات يومه متفرغا لتحقيق كل هذه النواحى، ولكنه خارج مسئوليته عن عمله كان يجذبه التفرغ لناحية واحدة تتركز فى مسئوليته كأب..

كان وهو يعيش هذه المسئولية يحس بأن الحياة كلها تتركز فى ابنته سناء وابنه علاء.. وعقله لا يكف عن تخطيط مستقبل

كل منهـما.. وهو واثق أنهـما سـيسـتمران بنـجاحه من بـعده ويصـلان إلى مـسـتـوى أعلى مما وصل إلـيه.. لقـد كـانت كل عواطفه وكل أحلامـه متعلقة بابنته وابنه.. إنه يعتبـرها كأنهما الشاهد الأول على نجاحه.. لقد أنجبهما وهو لا يزال فى شبابه وقبل أن يحـقق كل هذا النجاح.. كان لا يزال فى العـشرين من عمره عـندما قرر أن يتزوج أمـهما.. وكان هذا الزواج مـجازفة دفعـته إليهـا ليس مجرد حب هذه الـفتاة التى تزوجـها، ولكن تقديره لنفسه ولقدرته ولإمكانيته هو ما دفعه إلى هذا الزواج.. كان تقديره لنفـسه يصل إلى حد تقدير مستـقبله.. وقد رفض الأهل كلهم الموافقة على هذا الزواج.. رفض أهله لأنه لم يكن قد حقق بـعد ما يكفـى ليكون زوجا مـسئولا عن عـائلة.. ورفض أهلها لأنهم لا يريدون أن يقـذفوا بابنتهم فى المجـهول.. ورغم ذلك فقد عـاند وعاندت حتى تزوجا رغم سخط الأهل عليـهما.. ولم يمض عـام حتى بدأ يحـقق نجاحه.. وفى هـذا العام الأول أنجب ابنتـه سناء.. واستـمـر نجاحـه لتحقـيق مسـتوى أعلى.. وأنجب بعد عامين ابنه علاء.. وكـان لا يزال مستمرا فى اتخاذ القرارات التى يطمئن إليها فى ضمان مستقبله.. وكان من بينها أن اتخذ قرارا بأن يكتفى بابنته سناء وابنه علاء ولا ينجب أكثر منهـما.. ووصل إلى أن أقنع زوجـته بإجـراء عمليـة جراحـية توقف قـدرتهـا على الإنجـاب.. بعـد أن أقنعـه الطبـيب بأنهـا تستطيع إجراء عـملية عكسية أخرى لـكى تعود إلى القدرة على الإنجـاب.. وهو يريد الآن أن يكتفى بالـولد والبنت لأنه مقـتنع

بأن الدخل المالى الذى يحققه حتى اليوم، وتقوم عليه ميزانية حياته كلها لا يحقق إلا القدرة على الوصول بالاثنين إلى أرقى مستويات الحياة.. وقد يعجز عن الوصول بهما إلى هذا المستوى لو أضاف إليهما مولوا ثالثا ورابعا وخامسا.. أى لو ترك نفسه لتحمل مسئوليات الإنجاب دون أن يقدر إمكانياته الاقتصادية التى توفر لأبنائه مستوى الحياة كما يريدها وكما يحلم بها.. وهو مطمئن.. فلو صدمه القدر بفقد ابنته أو ابنه.. فإنه يستطيع أن يجرى لزوجته العملية الجراحية التى تعيد إليها قدرتها على أن تلد له ابنة أخرى أو ابنا آخر.. إنه يفرض على زوجته أن تستسلم لقراراته.. هى التى تجرى هذه العملية الجراحية مهما كان تأثيرها على طبيعة متعتها كامرأة.. وهو لا يتكلف شيئا، ولا يفقد شيئا من متعته بها كامرأة يضاجعها.. لم يكلف نفسه مجرد التفكير فى المساس بمتعته كرجل بأن يتحمل مع زوجته مسئولية عدم الإنجاب.. وربما كانت هذه طبيعته التى حقق بها نجاحه.. طبيعة الاعتماد واستغلال الآخرين..

كيف كان يتصور المستقبل الذى يحققه لابنته سناء وتحققه له ؟

إنه فى النهاية يريدها زوجة وست بيت.. لا يريدها أن تتولى مسئولية أى عمل خارج البيت.. إنه مقتنع بأن أمها أى زوجته كان لها الفضل فى نجاحه الذى حقق نجاح كل العائلة بتفرغها الكامل له وللبيت.. ولكن قبل أن تتزوج ابنته يجب أن تصل إلى مستوى عال من العلم والثقافة.. حتى تكون قادرة على مواجهة كل نواحى الحياة.. وفى الوقت نفسه تتخصص

فى ناحيـة من هذه النواحى حـتى تكون قـادرة على الانفـراد بتخـصصـها فى تغطيـة مطالبهـا إذا ما واجـهتـها أى ظروف تفرض علـيها الانفـراد.. أى أن تكون طبيـبة.. أو مـهندسة.. أو محامية.. أو إدارية تستطـيع إدارة الأعمال الواسعة.. حتى وإن لم تعمل بعد الزواج فى الطب أو الهندسة أو المحاماة، أو تتولى إدارة أى عمل وظلت متفرغة بكل كيانها وكل عقليتها للبيت.. ثم إنه يجب أن يبـدأ فى تلقـينهـا تفاصـيل وأسـرار المشروعـات والأعمال التى حـققها هو لأنها ستكون وريثـته.. ولن تستطيع أن تكون أمينة وحريصة على اسـتمرار نجاح هذا الإرث إلا إذا استـوعبت التفاصـيل والأسرار دون أن تكتفى بالاعتـماد على أخيهـا علاء الذى سيحمل مـعها مسـئولية هذا الإرث.. أو الذى سيـحمل من مسئـولية ما يرثانه ضـعف ما تحمله.. وأخـيرا.. فكيف يتصور الرجل الذى تتزوجه.. إنها لا يمكن أن تتزوج إلا رجلا ناجـحا.. وحـتى يتأكد من نجـاحه فيـجب أن يكون أبوه أيضا ناجحا.. وكل النجاح الذى يتصوره هو النجاح فى الثراء.. والنجاح فى اسـتمرار هذا الثـراء.. إنه طوال حيـاته لم يعرض نفـسه للحكم عـلى الناس بمقاييس الأخـلاق والعـفة والأمـانة والشرف.. إنها مقاييس ليس لها واقع يحددها أو يؤكدها.. ليس لها أرقـام تعلن عنها كالأرقام التى تعلن الـثراء وتؤكد قيـمته.. والثـراء لا يتـعـارض دائمـا مع الأخـلاق والعـفـة والأمـانة والشرف..

هكذا كان يتصور المستقبل الذى يرسمه لابنته سناء.. فكيف

كان يتصور مستقبل ابنه علاء.. ؟

إن أول مـا كان يتـمناه أن يكون صــورة طبق الأصل منه.. يريده أن يكون بنفس شــخصيتــه وبنفس ذوقه ومزاجــه وقوة احتماله.. إن الثراء يتطلب قوة احتمــال أكثر مما يتطلبها الفقر.. وهو قد بدأ كل هذا النجــاح بلا شىء أما ابنه فسيـبدأ والنجاح بين يديه فعلا.. وهو يريده أن يكون قادرا على الاســتمرار بهذا النجاح.. على الأقل الاستمــرار بكل البناء الذى أقامه هو.. وكان يرفع عــينيه إلى الســماء داعيــا أن يستطيع ابنه أن يحــقق فى المســتقـبل أبنيــة ومشــروعات جـديدة تضــاف إلى البناء الذى ســيتــركــه له.. ويبتــسم مع أحــلامــه بمستــقـبل ابنه.. إنه هو شخصيا قد حقق لنفسه مكانة اجـتماعية مرموقة.. كل المجتمع ينظر إليــه فى إكــبـار واحتــرام لأنه رجل أعــمــال ناجح.. ولم يحــاول أبدا أن يجمع بين مكانتــه الاجتـمـاعـية ومكانــة أخرى رسمية.. أى أن يكون وزيرا أو زعـيما سياسيا له قــوة رسمية يفرضــها على الناس.. إنه هو شــخصــيا كان يبـعد نفسه عن تحمل أى مسئولــية رسمية لأنه كان متفرغــا للمشروعات التى تحقــق له مزيدا من الثــراء.. ولكن ابنه علاء ولد فى هذا الـثراء وربما يجد أنه يستطيــع أن يصل إلى القمة الرسميــة.. ويستغل الثراء فى الوصــول إلى هذه القمــة.. أن يكون وزيرا.. واتسعت ابتســامتــه وهو يتصور أن ابــنه قد يصل إلى أن يكون رئيــسا للجــمـهــورية.. إنه يفــرح حتى بعـد أن يمــوت من أن يكون أباً لرئيس الجمهورية..



ومرت السنوات به وبابنته سناء وابنه علاء..

إنه سعيد وبابنته سناء سعادة طاغية، ومقتنع بأنها تسعى لتحقيق أحلامه يوما بعد يوم حتى تصل إلى المستقبل الذى يريده لها.. إنها تلتهم العلم والثقافة وتتفوق فى دراستها وتنجح فى كل امتحان.. ومن صغرها قد أصبحت تجيد اللغتين الإنجليزية والفرنسية وطبعا اللغة العربية.. وقد اختارت بعد أن كبرت وأصبحت فى السابعة عشرة من عمرها أن تلتحق بالجامعة الأمريكية وتتخصص فى إدارة الأعمال.. وهى تهوى الإدار حتى أنها لا تكف عن التردد عليه فى مكتبه، والطواف بالمصانع ومكاتب الشركات وتحاول أن تفهم كل شىء.. وكثيرا ما تبدى ملاحظات وآراء فى الإدارة يقتنع بها وينفذها، وإن كان كثيرا ما يحس بأن شبابها يطير بها إلى السماء وتبدى مقترحات بعيدة عن الواقع.. ويبتسم فرحا بها وهى تعرض عليه هذه المقترحات ويحاول فى هدوء أن يشدها إلى الواقع الذى لا تصل إليه أحلامها.. وأكثر من ذلك لقد أثبتت أنها يمكن أن تكون ست بيت ممتازة.. وقد بدأت وهى لا تزال صبية تتدخل فى كل ما يخص العائلة.. وتساعد أمها فى كل قرار تتخذه.. وكثيراً ما تفرض قرارها هى على أمها.. وأصابعها تمتد إلى كل درج وكل مسمار فى البيت كأنها تحمل المسئولية كاملة.. وربما كان يأخذ عليها، أو يخاف عليها من أنها أحيانا تبدو جريئة أكثر من ذلك.. ولكن ماذا يهم.. إنه هو نفسه كان

يعتبر فى شبابه جريئا، وربما كانت جرأته هى سر نجاحه.. ثم إنه أحيانا يأخذ على سناء عدم مراعاتها للتقاليد الاجتماعية المفروضة على كل بنت.. إنها تعتبر نفسها حرة وتطلق حريتها إلى آخرها.. إنها خارج البيت دائما.. وأحيانا تغيب حتى ساعات متأخرة من الليل.. ولا يستطيع أن يحدد المجتمعات التى تختلط بها، ولا نوع الأصدقاء والصديقات الذين تصاحبهم.. وكان يلومها ويحذرها أحيانا، ولكنه لم يفقد ثقته فيها أبدا..

وكانت قد بلغت التاسعة عشرة من عمرها، ولا تزال طالبة فى السنة الثانية بالجامعة الأمريكية عندما جاءته يوما ووقفت أمامه بابتسامتها البريئة التى يستسلم لها دائما حبا فيها وفرحا بها.. وقالت وكلماتها منطلقة كأنها ضحكات :

– بابا.. ألم يخطر على بالك يوما أنى قد أتزوج..

قال ورنين الحب يزفه إلى ابنته :

– إنك منذ ولدت وأنا أنتظر زواجك.. بل أعيش وأنا أحدد ما أتطلبه فى زوج ابنتى..

قالت وهى تنظر إليه كأنها تحذره من أن يغضبها باختياره :

– وماذا تطلب فيمن أتزوجه..

قال فى فرحة :

– أطلب أولا أن يكون ناجحا ابن ناجح..

وقاطعته وهى تلوى شفتيها رافضة :

– لا يهم أن يكون ابن ناجح.. فأنت نفسك لم تكن ابن ناجح، وكان جدى فى مستوى عادى.. وليس الفتى من قال

كان أبى، إنما الفتى من قـال هـأنذا.. ولا يهم أن يكون هو نفسه قد أتم الوصـول إلى النجاح.. ولكنـه يسعى إلى النجـاح.. فأنا قطعا سأتزوج من لا يزال فى شبـابه.. والشباب يسعى إلى أن يصل..

قال الأب وهو يبحلق فيها كأنه يحاول أن يفهمها :

– المهم أن أقتنع بأنه يستحق ابنتى..

قالت وهى تعود إلى ابتسامتها الجريئة :

– ألم تختر لى بعد من أتزوجه..

قال كأنه يعترف :

– إن أنانية الأب تدفعه إلى الاحتـفاظ بابنته له وحده أطول سنوات عمرها.. لذلك لم أفكر حتى الآن فى اخـتيار، أو ترشيح زوج لك منتظرا أن تنتهى من دراستك الجامعية..

قالت وابتسامتها تتسع أكثر :

– آسفة يا بابا.. لقد قاومت أنانيتك واخترت لنفسى..

وارتفع صوته فى دهشة وكأنه يصرخ :

– اخترت من ؟!

قالت دون أن تهتز ابتسامتها :

– اخترت عبد الكريم بسيونى..

وسرح الأب لحظة وهو يردد اسم عبد الكريم.. عبد الكريم.. كأنه سبق له أن سمع هذا الاسم، ويحاول أن يتـذكر صاحبه.. وكأن ابنته سناء تريد أن تساعده على التذكر فعادت تقول :

– الأسطى عبد الكريم..

وقفز الأب واقفا كأنه ضُرِب بشلوت ألقى به فى هاوية وصاح :

– عبد الكريم السائق الذى كان يعمل عندنا.. مستحيل.. لا يمكن.. أنت مجنونة.. أو ربما خدعك حتى يستولى عليك..

وكان عبد الكريم بسيونى هو السائق الذى خصصه الأب لخدمة العائلة فى تنقلها بالسيارة المخصصة لها.. لم يكن سائقا يقود سيارته الخاصة به.. وقالت سناء وهى تحاول أن تسيطر على أعصابها لتحتفظ بهدوئها وإن كان صوتها يرتفع كأنها تتأهب لمعركة :

– إنى لست مجنونة.. وعبد الكريم لم يحاول أن يخدعنى.. بل ربما كنت أنا التى شددته إلىّ.. وهو ليس مجرد سائق سيارة.. إنه شخصية كاملة وقد كان حتى خمس سنوات مضت طالبا فى الجامعة إلى أن توفى أبوه فجأة ولم يترك لهم شيئا يعيشون عليه وبه، فاضطر أن يكون سائق سيارات محترما حتى حصل على ما يكفى إعالة عائلته.. وهو لا يزال يعد نفسه للتخرج فى الجامعة.. وأفكاره مزدحمة بالمشروعات التى يقيم عليها مستقبله بعد أن يعتزل احتراف أن يكون سائقا..

وصاح الأب بكل صوته :

– أنت مجنونة.. وكل هذا الكلام يقوله أى شاب يحاول أن يخدع فتاة.. والمشروع الوحيد الذى يبنى عليه مستقبله هو أن يستولى عليك أنت شخصيا حتى يستولى على أموالك وأموال أبيك.. كل مشروعاته قائمة على أن يستغلك ويستغلنى، وعلى

الأقل يعيش فى رخائنا وعلى مستوانا..

وصاحت سناء أعلى من صياح أبيها :

- إنه هو الذى ترك خـدمتنا منذ أسابيـع.. أتدرى لماذا خرج من خدمـتنا.. لقد خـرج بعد أن اتفقنا عـلى أن نتزوج.. وهو لا يريد أن يكون خـادما عنـد حمـاه.. والد زوجتـه.. ولا يريد أن يكون لأبى فضل عليـه.. بل إنه اشترط علىّ حـتى نتزوج أن لا أقبل أن آخـذ منك « ولا مليم ».. حتى نتحـمل وحدنا مسئـولية بناء حياتنـا.. وحتى أعيش ما نصل إليه لا مـا وصل إليه أبى.. أى ما وصلت إليه أنت..

وصاح الأب :

- هذا كلام يقـال قبل الزواج، ولكنى متأكـد أنه بعد الزواج سيكون تحت أقدامى لينهبنى بعد أن نهب ابنتى..

قالت وهى تنظر إليه ساخطة :

- إنى أثق به كـمـا أثق بك.. بل إنى أعـتبـره صـورة منك، ويريد أن يتحمل مسئولية بناء نفسه كما فعلت أنت..

قال الأب ساخرا :

- ولكنى لم أتزوج فتـاة غنية أو ابنة غنى حتى استـرزق.. لقد تزوجت من فى مستواى فدعيه يبحث عن زوجة فى مستواه..

قالت وهى تقاوم ثورتها :

- إننا على مسـتوى فكرى واحد.. ومـا يريده هو ما أريده.. وأنت تعتـبرنى دائما فتـاة ناجحة فـدعنى أجرب أن أنجح وأنا زوجة عبد الكريم..

قال ضاحكا :

– إن مجرد زواجك به يعتبر هزيمة نكراء..

وصرخت هى الأخرى :

– إنك تعتبرها هزيمة لك ولن تكون هزيمة لى.. حتى النجاح تريده أن يكون نجاحا لـك لا لى.. إنك تعتبرنى مجـرد مشروع من مشروعـاتك تريد أن تحقق به صفقة حتى لو كـانت مجرد صفقة اجتماعية باختيار من تبيعنى له كزوجة..

قال وهو يحاول أن يعود هادئا :

– إن مستقبلك هو مستقبلى سواء نجحت أو هزمت.. إنى لا أبيعك ولـكنى أبيع نفسى بك.. ولذلك من حـقى أن أختـار معك المشترى..

قالت وهى تحاول أن تسترد ابتسامتها :

– بابا.. إنى مـصـرة على الزواج مـن عـبـد الكريم وأتمنى موافقتك حتى يعيننى حبك على احـتمال ما قد أعانيه، وأنا أبنى مستقبلى..

قال كأنه يبصق فى وجهها :

– لن أوافق..

قالت وهى تحاول أن تعود إليها ابتسامتها :

– سأنتظر إلى أن يدفـعك حبك لابنتك إلى الموافـقة.. ولكنى لن أنتظر طويلا.. وأخـشى أن يغلبنى الإحســاس بأنك لا تحب ابنتك ولا يهمك أن تهرب منك..

واختفت من أمـامه.. وسقط رأسه على صــدره، كأنه يسقط

فى هوة عميقة مظلمة.. وبدا كـأنه يحاسب نفسه.. ربما كان هو الذى دفع ابنته إلى هذه المصيبة.. فقد دفعه الثراء الذى حققه إلى أن يحيط عـائلته بالمظاهر التى يعـتبر أنهـا علامات الطبـقة الراقية.. فخصص للعائلة سيـارة خاصة، ثم عهد بهذه السيارة إلى سائق شاب وجيه وسيم.. هو عـبد الكريم بسيونى.. وكان السائق ينفرد بـابنته سناء طوال اليوم، وهو يحملهـا بالسيارة إلى المدرسة ثم إلى أى مكان آخـر.. ولم يخطر على باله أبدا أن يحمى ابنته من وجاهة هذ ا السائق ووسامـته وخصوصا بعد أن شـبَّت وأصبـحت عرضـة للضـعف أمام وجـاهة ووسامـة الشـبان.. بـل إنه رآها مرة وهى تجـلس فى السيـارة بجـانب السـائق عبـد الكريم، وليس فـى المقعـد المخـصص لأصحـاب السيارة، ولم يهتم.. ربما كانت هذه هى تقاليد الجيل الجديد من المجتـمع الثـرى الراقى.. أن يرفعـوا الكلفة بينهم وبيـن الخدم، حـتى يجلسوا بجـانب السـائق الذى يعمل فى خـدمتـهم.. ولا يجلسوا خلفـه كأنهم يطؤونه تحت أقدامهم.. وربما لـو كان قد استطاع أن يـحتفظ بتـقاليـد المجتـمع القديم الذى ولد فـيه لما ارتكب كل هذه الأخطاء.. ولما سـمح لشاب وجـيه وسيم يـعمل فى خدمة العائلة كسائق أن ينفرد بابنته فـترات كافية ليخدعها وليستولى علـيها.. لقد ولد فى مجتمع أهم مـا يحرص عليه هو حمـاية البنات من الأولاد.. ولكنه تخلى عن تقاليد هذا المجـتمع متصـورا أنه يرتفع إلى أعلى.. إلى مجتـمع أرقى.. وترك سائق السيارة يستولى على ابنته..

وقد ترك السائق عبد الكريم خدمة العائلة.. تركها وليس هو الذى طرده..ولم يهمه أن يترك عبد الكريم خدمته بل لم يسأل عن السبب الذى دفعه إلى ترك الخدمة.. فإن تحت يده مئات من الموظفين يعتبرهم كلهم خدما.. ولا يهمه من يخرج منهم ومن يبقى.. إن مصر مزدحمة بالخدم من كل الأنواع.. ولكن من أصبح يقود سيارة العائلة بعد عبد الكريم.. إنه شاب آخر اسمه مصطفى.. وهو أيضا وجيه ووسيم.. فهذه هى المظاهر التى يفرضها مجتمع الأثرياء.. ومن يدرى.. ربما استطاع مصطفى أيضا أن يستولى على فتاة أخرى من العائلة.. وابتسم فى مرارة وهو يتصور أن السائق الآخر يمكن أن يستولى على زوجته..

وضغط على جرس بجانبه يستدعى سكرتيره الخاص، وأصدر إليه أمرا فوريا بالاستغناء عن خدمات السائق مصطفى مع دفع ما يستحقه.. ثم قال فى حدة :

– لم تعد هذه السيارة فى خدمة العائلة.. إنها فى خدمتى الخاصة.. ولا يستعملها أى فرد من العائلة إلا بإذن منى..

وبعد قليل بدأ يرفع رأسه من هوة السخط الذى دفن نفسه فيها.. وبدأ يفكر كأنه يلوم نفسه.. لماذا يتخذ كل هذه القرارات بعد أن هددته ابنته بالزواج من سائق السيارة.. وأحس بنفسه كأنه غبى وسخيف فلن يصل بهذه القرارات إلى شىء.. ويجب أن يعترف بأن ابنته أصبحت أقوى منه فى حرية اتخاذ القرارات التى تخص حياتها.. ثم لماذا لا يوافق ابنته على

زواجها من هذا السائق.. إنه هو نفسه تزوج قبل أن يحقق أى ثراء.. وقد رفضت عائلتها أن توافق على زواجها منه ورغم ذلك تزوجا.. كل منهما كان مصمما على الآخر.. إلى أن بدأت عائلتها تتشرف وتتباهى بهذا الزواج بعد أن بدأ يحقق نجاحه.. فلماذا يكرر نفس الموقف.. فقد ينجح السائق عبد الكريم أيضا بعد زواجه من ابنته.. وهو ليس مجرد شاب وجيه ووسيم إنه مهذب ويلمح فيه الذكاء والطبيعة الجادة.. ولكن.. لا.. إنه لم يتزوج فتاة غنية يتهم بأنه طامع فى استغلالها.. وابنته غنية يمكن أن يطمع فى استغلالها كل من يتقدم إليها إلا إذا كان غنيا مثلها.. أو على الأصح إذا كان أبوه ناجحا كما هو ناجح.. وهو يحس بأنه لو وافق على زواج ابنته من هذا السائق، فكأنه يهوى بها وبنفسه إلى البداية التى كان فيها.. أى إلى الفقر.. ويعرضها ويعرض نفسه إلى محاولة التجارب من جديد.. تجارب الوصول إلى أعلى.. وهو قد اجتاز ومعه ابنته هذه المرحلة.. مرحلة التجارب وانتظار النتائج.. ولا يريد أن يعود إليها من جديد.. ثم إنه قد وصل إلى مكانة اجتماعية لا يشرفه فيها أن يزوج ابنته من سائق سيارة.. ولن يوافق.. لا يمكن أن تتزوج ابنته هذا السائق.. مستحيل..



كانت هذه هى الحالة التى وصل إليها مع ابنته سناء.. أما ابنه علاء فقد نشأ صامتا منعزلا بنفسه لا يهتم بشىء ولا يسأل عن شىء.. ولا يهتم حتى بالدراسة منذ دخل فى مدارس

الأطفال.. إنه لا يحس بأى دافع للدراسة أو بأن يتعلم.. وكان يرسب فى كل الامتحانات ويقضى سنوات لينتقل إلى الفصل الأعلى من المدرسة رغم أنه كان يحيطه بعدد من المدرسين فى كل المواد.. ومستحيل أن يتطور.. إن من طبيعته عدم الاهتمام بالدراسة أو بالنجاح فى الامتحانات.. وربما كام كل اهتمامه منذ البداية هو فى الاستماع إلى الموسيقى.. وبين يديه طوال يومه جهاز راديو صغير يطلق له الانغام الموسيقية.. وقد استطاع وهو لا يزال فى صباه أن يقنع أمه بأن تشترى له آلة بيانو.. والبيانو الكبير الذى يتصدى الصالة مخصص له لا لأخته سناء.. كما جرت العادة فى العائلات الثرية بأن تجهز البنت مقدما ببيانو حتى لو لم تعزف عليه.. مجرد استكمال المظهر الراقى.. وأمه هى التى اشترت له البيانو وليس أبوه.. بل كذبت الأم على الأب وقالت له إنها اشترته لتوفر ما يحتاجه مظهر ابنتها فى البيت.. وعلاء أقرب إلى أمه منه إلى أبيه ويصارحها باحتياجاته ولا يصارح أباه بشىء.. وهو لا يجلس لعزف البيانو أبدا فى حضور أبيه وهو يتلقى دروس العزف من المدرس الذى جاءت به أمه إليه.. لعله لا يطيق أباه.. فهو أب لا يكف عن الحديث إليه عن المدرسة والمذاكرة والامتحانات.. ورغم ذلك فهو ابن مهذب مستسلم لأبيه لا يرفض أوامره، ولا يرفع صوته عليه أبدا.. وإن كان لا يستطيع أن يخفى محاولته الدائمة للهروب من أبيه والابتعاد عنه.. ويضطر الأب كلما أراده أن يبحث عنه ويرفع صوته عاليا يناديه.. علاء.. أين علاء.. إلى

أن ييأس علاء من الابتعاد عنه ويستسلم له..

وكان الأب يتعمد كل يوم بعد عودته إلى البيت أن يجلس مع ابنه ولو دقائق.. وكان يتعمد فى كل جلسة بعد أن ينتهى من محاسبته على دراسته أن يروى له قصة من قصص النجاح فى العمل وجمع الثروات.. وأحيانا يُضَمِّن قصته نكتة يعتقد أنها ستضحك ابنه حتى يجذبه إليه.. وابنه يستمع صامتا دون أن يسأل سؤالا أو يعلق بكلمة وقد يضحك لا لأنه استمع إلى النكتة بل لأنه رأى أبيه يضحك فضحك معه استسلاما له.. ومنذ شب علاء إلى العاشرة من عمره بدأ الأب يصحبه بين وقت وآخر إلى شركاته ومصانعه لعله يثير فيه الإحساس بما يملكه وبما سيرثه.. ولعله يتجاوب مع المجتمع العامل ويتعلق بأحدد من العاملين.. ولكن علاء كان يذهب ويجول وكل ما فيه صامت مرتخ لا يحاول أن يفهم شيئا، ولا يثيره شىء يتعلق به.. إن عينيه مفتوحتان ولكن كأنه لا يرى شيئا.. وأذناه مصغيتان ولكن كأنه لا يسمع شيئا..

والأب يعانى من أنه لا يستطيع أن يفهم ابنه وأن ابنه لا يصارحه بما يريده لنفسه.. وكان يعتمد على زوجته ليعرف ما يريده هذا الصبى.. وقد عرف أخيرا أنه طلب من أمه أن تشترى له آلة كمان بعد أن اشترت له البيانو.. وجاءت وجاءت له بمدرس آخر يعلمه العزف على الكمان.. والأب يحاول أن يقنع نفسه بأن هذه مجرد هواية لابنه.. وكونه يهوى اللعب بالآلات الموسيقية أفضل من أن يهوى اللعب بالكوتشينة مثلا التى قد

تحوله إلى لاعب قمار.. وقد يصل إلى المقامرة بكل ما يرثه عنه.. ورغم أن علاء كان يتعمد ألا يمسك بأى آلة موسيقية فى حضرة أبيه إلا أن الأب فاجأه مرة وهو معه قائلا :

- ألا تسمعنى شيئا مما تعلمت على البيانو أو الكمان..

وفرح علاء فرحة كبيرة، وقفز إلى البيانو يحرك أصابعه عليه.. وحاول الأب أن يحتفظ بابتسامة يشجع بها ابنه على الاستمرار فى العزف.. ولكنه معروف عنه أنه لا يطيق الاستماع إلى أى موسيقى.. بل لم يكن يستمع إلى أم كلثوم أو عبد الوهاب إلا مضطرا لمجاملة من يحتاج إليهم فى عمل إذا جمعته الظروف بهم فى جلسة ترتفع فيها هذه الموسيقى وهذه الأصوات.. ولذلك لم يستطع أن يحتفظ بابتسامته المشجعة طويلا وهو يستمع إلى ما يعزفه.. والتوت شفتاه تعبيرا عن سخطه وقرفه.. ولا يدرى ما حدث فقد توقف ابنه عن العزف على البيانو فجأة.. وقاوم الأب قرفه وافتعل ابتسامة، وقال له وهو يصفق له كأنه يريد أن يحتفظ بفرحة التجاوب بينه وبين ابنه حتى على ما يقرفه :

- استمر يا علاء.. لم أكن أدرى أنك أصبحت عازفا..

قال علاء فى صوته المهذب :

- كفى يا بابا.. أرجو أن تسمح لى بالدخول إلى غرفتى لأذاكر دروسى..

وسكت الأب وهو يتابع بعينيه ابنه مبتعدا عنه.. لعله اكتشف أن أباه قرفان منه، ولا يتحمل الاستماع إلى مثل هذه الموسيقى..

وأصبح علاء فى السادسة عشرة من عمره وهو لا يزال فى الفصل الأول من المدرسة الثانوية.. وقد رسب فى هذا الفصل عامين، وأقبل على امتحان العام الثالث.. والأب يحاول أن يخفف من مصيبته فى ابنه.. إنه هو نفسه سبق فى شبابه أن قرر ألا يستمر فى دراسته.. لم يدخل الجامعة وحتى لم يتم دراسته الثانوية، ولو أنه لم يرسب فى أى امتحان.. إن هناك عقولا لا تحتمل استيعاب الدروس التى تفرض عليها لترددها فى الامتحانات كالببغاوات.. إنها عقول لا تستوعب العلم إلا بالممارسة.. أى بأن تعمل فيما تريد أن تدرسه.. ولعل ابنه علاء من أصحاب هذه العقول.. فلا يهم أن يستكمل دراسته المدرسية ويتمها بالالتحاق بالجامعة.. إن الحل الوحيد هو أن يأخذ ابنه ويضعه فى مجال ممارسة العمل.. أى أن يأخذه معه، ويعهد إليه بالعمل فى شركاته حتى يستوعب مسئولياته..

ولكن.. كانت قد جدت حالات على علاء.. فقد أصبح كثير الغياب عن البيت، وقد يغيب أحيانا حتى ساعات متأخرة من الليل.. ولم يعد يهمه التأنيب الذى يصبه عليه أبوه.. بل لم يعد يهتم بدموع أمه.. لعله يعتقد أن أمه لا تبكى خوفا عليه من غيبته عن البيت بل تبكى خوفا عليه من أبيه.. وهو لا يدرى أين يغيب ابنه.. إنه لا يعود سكرانا ولا يبدو عليه أى انحلال.. لعله يختفى مع شلة يلعب معها هذه الموسيقى التى يهواها.. وهو إذا أخذه معه للعمل فقد يستمر فى اختفاءاته ويهرب من العمل كما يهرب من البيت.. ويجب أن يبدأ من انتشاله من هذه الشلة التى

يغيب معها.. وبعد طول تفكير وجد أن الحل الوحيد هو أن يبعد ابنه عن مصر كلها عاما أو عامين أو ثلاثة يعود بعدها متحررا من هذه الشلة وهذه الهواية.. مقبلا على التفرغ للعمل وعلى حفظ ميراثه.. وسأل الأب كل من يعرفهم من آباء فى مثل نجاحه وفى مثل ثرائه وأيضا فى مثل مصيبته بابنه.. واستقر على أن يرسل ابنه إلى مدرسة فى فرنسا ليتم تعليمه هناك.. ويعود وقد أصبح رجلا كاملا متفرغا للاستمرار فى نجاح أبيه..

وفرح علاء بأن أباه يرسله إلى فرنسا على أساس إتمام تعليمه هناك..وسافر حتى قبل أن يدخل امتحانه الثالث فى الفصل الأول من المدرسة الثانوية وكان يمكن أن يرسب فيه أيضا..

ولم تكن الجامعة التى اختارها الأب فى فرنسا ليلتحق بها ابنه فى باريس نفسها، ولكنها فى إحدى ضواحى باريس.. وهى ليست جامعة، ولكنها أقرب إلى معهد متخصص فى اكتشاف مواهب الشبان وتعليمهم بما يتفق مع مواهبهم.. وقد خرجت كثيرين من رجال الأعمال الموهوبين.. هذا ما سمعه الأب عنها.. وقد مضت شهور وعلاء يرسل خطابات ولكنه يرسلها إلى أمه، ويكتفى بسطر أو سطرين يحيى بهما أباه.. ولكن الأب كان يتصل تليفونيا بالمشرفين على هذا المعهد ليطمئن على ابنه.. وهو لا يستطيع أن يتكلم الفرنسية ولا الإنجليزية فكان يعهد إلى ابنته سناء بأن تتولى هذه المكالمات

التليفونية إلى أن قالت له يوما بعد إحدى هذه المكالمات :

- لقد أرسل المعهد علاء إلى معـهد آخر فى باريس ليتم فيه تعليمه..

وصاح الأب فى دهشة :

- أرسلوه إلى أى معهد وماذا يتعلم فيه..

قالت سناء :

- لم يخبرونى.. يكفى أنه يتم تعليمه..

لعل سناء تخـفى عن أبيهـا مـا قالوه لهـا.. ولكنه استـسلم صاغرا.. لم يعد أمامه إلا الاستسلام للقدر والاتكال على الله..

وعـلاء لا يزال يرسل الخطابات إلى أمـه.. إنه دائمـا يطالب بمزيد من المبـالغ التى يرسلونها.. وأمـه وأخته يجـيبـان عليه.. والأب يحس كأنه يحتفظ بكرامـته كأب، فمادام ابنه لا يكتب له فلن يكتب له هو الآخـر.. ولكن ثقل شـوقـه إلى ابنه دفعـه لأن يقـرر السفـر إليـه هو وزوجتـه.. وأرسلت سناء تبلغـه بأنهم سيأتون إليـه فأجابها بأنه لن يبقى فى باريس، وسيـسافر مع طلبة المعهد فى رحلة حـول دول أوربا.. لعله يرفض مجرد لقاء أبيه..

وبعد عامين فوجئت العائلة بعودة علاء إليها..

وتحامل الأب على نفسه حـتى لا يلوم ابنه على عدم اتصاله به خلال غيبته وسأله مبتسما :

- ماذا تعلمت حتى الآن..

قال عـلاء وقد تغيرت لهـجته، وأصـبحت قوية جريئـة كأن

الغربة قد جعلت منه شخصا آخر :

- تعلمت الموسيقى..

وصاح الأب كأن حجرا ألقى على رأسه :

- وماذا ستفعل بهذه الموسيقى..

وصاح علاء فى هدوء :

- سأكوّن فرقة موسيقية وأعمل بها ومعها..

وصرخ الأب ويده تشوح فى الفراغ كأنه يهم أن يصفع ابنه :

- أى أنك ستعمل فى أحد الكباريهات أو أحد ملاهى شارع الهرم.. وتتزوج راقصة..

قال علاء وهو يضغط على عينيه حتى يحتفظ بهدوئه :

- يا بابا.. إن المعهد الذى أرسلتنى إليه اكتشف أنه ليس لى هواية ولا أصلح لأى شىء إلا الموسيقى وأن أكون موسيقارا.. وهذا المعهد هو الذى أرسلنى إلى المعهد الآخر الذى استكملت فيه هوايتى بدراسة أوسع.. وقد وصلت إلى أن وضعت ألحانا كانت تقدم وتعزف داخل باريس..

وصرخ الأب :

- إنى لا أقبل أن يكون ابنى من نجوم شارع الهرم.. هذه فضيحة لى..

قال علاء وهو يبتسم، وعيناه حالمتان كأنه يحادث نفسه :

- إن موسيقاى لا تصلح لشارع الهرم.. وموسيقى عبد الوهاب ليست محصورة فى شارع الهرم.. ومن يدرى.. ربما وصلت إلى نجاح عبد الوهاب.. وسألحن أغانى وأصاحب بفرقتى

الموسيقية من يغنى.. ولكنها ليست من النوع الذى يغنى فى شارع الهرم.. ثم إن عمرو سليم وعمار الشريعى يعتبران من أقدم وأرقى العائلات، ورغم ذلك احترفوا الموسيقى، وأصبحا يشرفان عائلتيهما.. ثم لماذا نرفض شارع الهرم.. إنه مجال حى من مجالات الفن المنطلق.. إنه مجال الموسيقى الأقرب إلى الأغنية الشعبية.. قد تكون الموسيقى فيه كأنها الفول المدمس أو العدس الذى يشبع الأغنية الشعبية.. وأنت يا أبى رغم نجاحك لا تزال تفضل الفول المدمس والعدس اللذين تعودت عليهما.. تفضلهما على كل ما يستطيع ثراؤك أن يضعه أمامك.. وأنت إلى الآن لا تزال تسمع الموسيقى التى تنطلق من صالات شارع الهرم، حتى لو أخفيت وأنكرت الاستماع لها.. وأنا لا يهمنى أين أقدم الموسيقى ولا نوع ما أقدمه، ولكنها موسيقاى أنا وسأبقى دائما موسيقارا..

وقفز الأب من على مقعده وصاح، وهو يشير إلى الباب كأنه يطرد ابنه :

– إذا صممت فأنت لست ابنى.. ولن أتركك تستغلنى وتبعثر أموالى على إقامة فرقة موسيقية لترقيص الناس.. وسأتبرأ منك ولن أطيق أن تقيم معى فى بيت واحد.. إما أن تعيش نجاحى أو لا تعيش فى بيتى..

قال علاء فى برود :

– أمرك يا بابا.. سأعيش وحدى بعيدا عنك.. ربما كان هذا يحفزنى أكثر على النجاح..

وخرج علاء إلى غرفتـه يعد لنفسه حقيبة يجـمع فيها بعض ملابسه.. إنه سيعيش فى القـاهرة، كما كان يعيش فى باريس.. بلا عائلة.. ولكن أمـه فقعت بالصـوت.. لا يمكن أن يطرد ابنها من بيـتهـا.. لا يمكن أن يعيش بعـيدا عنهـا ما دام فى القـاهرة وحده.. إنه ابنها..

واضطر الأب أن يسـتـسلم لما تـريده الأم.. وهو فى دخـيلة نفسـه لا يطيق أن يتخلى عن ابنه ولو بمـجرد وجوده مـعه فى بيت واحد.. وعدل عـلاء عن أن يهجر البيت كـأنه يجفف دموع أمه.. إنه يبقى لها لا لأبيه..



هكذا أصبح حاله بين ابنته سناء، وابنه علاء ..

وقد تزوجت ابنته من السائق عبد الكريم بسيونى رغما عنه، ودون أن ينتظرا موافقته.. وهى تعيش بعيدة عنه.. لا يراها ولا يعرف عـنها إلا النادر الذى تعـرفه أمهـا.. وأقام عـلاء فرقـته الموسيقـية دون أن يحاول أن يأخذ من أمواله شيـئا.. ولعله قد أصبح له كيان... فقـد بدأ يقرأ عنه فى الصـحف، ويرى صورته فى بعض المجـلات الفنية... ولكنه لا يراه رغم أنه لا يزال يـقيم فى البيت.. لقـد تغير كل شىء فى البيت.. وأصـبح كأنه خرابة تجمع بين قـطع من الأثاث الفاخر.. حـتى ساعة تـناوله الغداء أصبح يجلس على المائدة وحيدا مع زوجـته وليس معه ابنته أو ابنه.. وهو يسأل نفسـه عن مصير كل ما أقامـه من مشروعات بعد أن يموت.. لعل ابنتـه وابنه سيبيعـان كل ما يرثانه عنه من

أملاك.. أو يهملان إرثهما حتى يشاهد وهو فى قبره إعلان إفلاسه.. وضياع كل شىء تركه فى الحياة حتى اسمه.. لن يعود أحد يذكر اسمه، ولن يظل هذا الاسم معلقا على شركاته.. ووصل فكره إلى أن يتصور أنه يستطيع أن ينجب ابنا ثالثا يحافظ على إرثه ويظل رافعا اسمه.. وهو الآن فى السابعة والخمسين من عمره ولكنه متأكد أنه لا يزال قادرا على الإنجاب.. إن الرجل قد ينجب حتى بعد الستين.. وكل ما يحتاج إليه هو أن يحمل زوجته إلى الطبيب ليجرى لها عملية جراحية تعيد إليها قدرتها على الإنجاب.. لقد سبق أن أكد له الطبيب أن هذا ممكن... وقد حمل زوجته إلى الطبيب فعلا، وكانت قد استسلمت له رغم أنها أكدت له أن هذا مستحيل.. إلى أن أكد له الطبيب أيضا هذا المستحيل.... لقد انقطعت عنها القدرة على الإنجاب بحكم السن.. والتهبت أفكاره حتى كاد يجن.. لعل الحل الوحيد هو أن يتزوج من جديد.. يتزوج امرأة شابة يمكن أن تنجب له ابنا.. ولكن مستحيل.. إنه لا يستطيع.. ليس من طبيعته أن يبحث عن امرأة أخرى غير التى أحبها وتزوجها.. ثم... إذا كان يخشى بيع ابنته وابنه هذه الشركات الضخمة التى سيرثونها عنه.. فليبعها هو مقدما حتى لا يتركها تقع فى يد غريب.. ليبعها ويعيش وهو يبعثر الملايين على إمتاع نفسه بالطواف حول العالم.. ويشترى طائرة.. ومركب ياخت ضخما يعبر بها المحيطات كما يفعل أصحاب الملايين فى أمريكا وفى أوربا بل وفى البلاد العربية أيضا.. لا.. إن النجاح الذى

يحقق الملايين يعتبر بالنسبة له هواية لا يستطيع أن يعيش دون أن يغرق فيها كل عمره.. إنه يعمل لا ليجمع الملايين بل لأنه لا يستطيع أن يعيش بلا عمل، وبلا فرحة النجاح فى كل عمل..

واستمر يعمل، وقد ازداد جرأة فى مغامراته واندفاعاته.. لم يعد حريصا على ضمان استمرار نجاحه من بعده.. إنه يعمل لمجرد إشباع هوايته، كأنه يلعب الطاولة أو الكوتشينة ويكسب كل من يلاعبه..

ثم أخذت الحياة العائلية تهدأ من حوله.. لقد أصبحت ابنته سناء تأتى إليه، وتلقى بنفسها بين أحضانه وزوجته تحيطها بابتسامتها العاقلة المريحة التي تفيض بالحب.. ووصلت ابنته إلى إنها أصبحت تصحب زوجها السائق عبد الكريم بسيونى فى زيارته.. ويجد نفسه مضطرا إلى الاجتماع به والجلوس معه.. إنه لم يعد مجرد سائق يبدو عليه أنه وصل إلى مستوى أعلى. ويبدو كأن وجهه تغير.. وصوته تغير.. وشخصيته تغيرت.. إنه يجلس معه كأنه لم يكن واحدا من خدمه.. بل كأنه ارتفع إلى دنياه.. دنيا النجاح وتحقيق الثراء.. بل إنه أصبح يحادثه فى مواضيع كأنها مواضيع مشتركة بينهما.. ورغم ذلك فهو لا يحاول أن يستعين بزوج ابنته فى أى عمل، أو أنه يشركه فى أى مشروع.. كأنه لا يستطيع استكمال اطمئنانه إليه.. أو كأنه يفضل أن يتركه وحده فى دنياه حتى يستكمل بناء نفسه دون أن تقوم شخصيته على مجرد إنه زوج ابنته..

زوج ابنة المليونير الناجح..

وابنه علاء لا يزال يقيم معه.. إنه يقيم مع أمه لا معه.. ويتعمد ألا يراه أو يلتقى به ولو لقاء صدفة.. ولكن ابنه أرسل إليه فى يوم مجموعة من الكاسيت مسجلا عليها ألحانه وموسيقاه.. وغصب على نفسه أن يستمع إليها.. وأحس كأنه خرج من بلده، وأخذ يطوف فى دنيا جديدة عليه.. دنيا الموسيقى.. إنه لا يفهم فى هذه الدنيا شيئا ولكنه كأنه يتفرج ومجرد الفرجة تسعده.. وأرسل يستدعى ابنه، وقال له وهو يبتسم.. كأنها ابتسامة رجل يعترف أخيرا بهزيمته :

– اجلس.. لقد أوحشتنى..

وفرح علاء باستعادة رضاء أبيه.. وأخذ يحدثه عن الموسيقى والفرقة التى أقامها، والألحان التى أذيعت له... والأب لا يحاول أن يفهم ما يسمعه منه... يكفى أن يسمع صوت ابنه.. وقد عود ابنه بعد ذلك على ألا يراه إلا إذا استدعاه.. لم يحاول أن يقيم معه مشروعا موسيقيا ضخما يمده فيه بملايينه... بل تركه كما هو.. لا يستعين إلا بأمه ولا يلجأ إلا إليها..

إنه استعاد إحساسه بأنه رب العائلة..

ولكنه لم يعد يعمل ليستمر عمله من بعده فى ورثته.. ورغم ذلك فهو يزداد نجاحا وتزداد ملايينه..



أيـــام المظـــاهـــرات..

□ لا أحد منا يستطيع أن ينسى ذكرى المرحوم اللواء شكرى عبد الله.. لقد تعارفنا فى أيام زمان.. فى الثلاثينات..أيام الإنجليز والملك فاروق... وجمعتنا المدرسة الثانوية.. ورغم أننا لم نكن شلة إلا أن كلا منا كان دائما مع الآخر كلما جدت أحداث.. وكل منا يعرف ويتتبع أخبار الآخر بعد أن انتهينا من الدراسة الثانوية وعاش كل منا طريقه..

وكان الخبر الذى فوجىء به الجميع إلى حد أن وقعنا كلنا فى ذهول هو أن شكرى عبد الله التحق بمدرسة البوليس قبل أن تحمل اسم كلية الشرطة.. أى أنه انضم إلى البوليس وسيكون أحدد رجاله رغم أنه طول حياته معنا فى الثانوية كان معروفا أنه ألد أعداء البوليس وأشدنا اندفاعا فى تحدى ومقاومة البوليس فى كل مناسبة تقوم فيها المعارك بين البوليس

والطلبة.. وحـتى بلا مناسبة وبلا مـعارك كان شكرى عـبد الله متفرغا لمحاربة رجال البوليس.. يكفى أنهم من رجال البوليس..



ومن هم رجال البوليس..!!

إنهم فى نظره، كـرجـال عـصـابة من عصـابات فـتـوة من الفتوات الذين كـانوا يحكمون أحياء القـاهرة أيام زمان... إنهم رجال الحـاكم.. والحاكم أيامهـا كان الإنجليـز أو الملك حتى لو كـان البـوليس يـتـبع وزارة الداخليـة.. فـالوزير يلـبى مطالب الإنجليز أو الملك ويصـدر أمره إلى رجال البـوليس.. لذلك كان يعتبر العـداء للبوليس كقضية وطنيـة.. أى أنك تعادى البوليس لأنك تعادى الإنجليز وتعادى الملك..

وأيامها كـان قيام الطلبة بالمـظاهرات السياسيـة أساسا من أسس البـرنامج المدرسـى.. كانـت المدرسـة تقـوم بالمظاهرات كواجب مفـروض عليها تستكمل بها صـفتها كمـدرسة.. وكان الطالب يشترك فى المظاهرات حتى يستكمل صفته كطالب.. وإن لم يشـترك فـهو ليس طالبـا من طلبـة المدرسة ويتـهم بالجبن والميوعة والخوف من الحكومة حتى لو كانت طبيعته لاتتجاوب مع المظاهرات.. كنـا كلنا نشـتـرك فى المظاهرات حـتى دون أن يفهم بعضنا أسبـاب هذه المظاهرات وأهدافها.. يكفى أننا نعيش قضية وطنية.. ولم يكن زميلنا شكرى عبـد الله يعتبر زعيما من زعماء المدرسة ويتولى قيادة المظاهرات.. ولكننا كنا دائما نلتف

حوله نـستمـد اندفاعنا من حـماسـه العنيف ومن الخطط التى يضعـها تلقائيـا لمواجهة البـوليس أو الهرب منه.. وكان أحـيانا يعتبر نفسه المسئول عن المظاهرة فعلا، ويقف ليشرح لنا خطته دون أن يعرضـها فى صـيغة أوامـر يفرضـها علينا بل أحـيانا يشرح خطتـه وهو يضحك كأنه يروى نكتة.. أو يلعب لـعبة مع البوليس.. كـان يقف بيننا وهو يقول إن على بـعضنا أن يدخل من هذه الحـارة ويبدأ فى قـذف البـوليس بالطوب والحجـارة وسـيتـجه إليـه البوليس فـورا ويطارده بالعـصى.. وفى نفس اللحظة يـكون البـعض الآخـر منا قـد تجـمع فى هذه الحـارة الأخـرى ويجـرى وراء البـوليس ويبـدأ فـى الضـرب بالطوب والحجارة.. وبذلك نكون قـد حاصرنا البوليس من ناحـيتين... من الأمام والخلف.. ونعدمه العافية..

وكانت كل تخطيطات شكرى عبد الله تنتهى كالعادة بهزيمتنا أمـام البوليس والقـبض على من تصل يـد البوليس إليـه.. وإن كانت هذه الخطط تحقق أحيانا مدة أطول فى المعركة..

إلى أن خرجت المدرسة ذات يوم فى مظاهرة كنا نهتف فيها « يسقط هور ابـن الثور ».. وربما كان كل الطلبـة المتظاهرين لا يعرفـون من هو « هور » الذى ينادون بسقـوطه ولماذا هو ابن الثور.. فقد كانت نصوص الهتاف تصل إلينا عن طريق الجامعة أو عن طريق الأحزاب السـياسية ونرددها على أنهـا طبق اليوم من أطباق المطالب الوطنيـة.. إلى أن بدأنا نعرف أن « هور » هو الوزير الإنجليزى الذى صرح فى لندن بأن بريطانيا لاتنوى أن

تهتم بأى حل للـقضيـة المصرية.. ولم نحاول أن نقـدر جدوى الهتـاف فى شوارع القاهرة بسقـوط وزير إنجليزى فى لندن، وانطلقنا بكل حـماسنا نهـتف « يسقط هور ابن الثـور » ونحن نؤمن فعلا بأننا نستطيع إسقاط هذا الوزير الإنجليزى.. إلى أن فـوجئنـا بالبوليس يـواجهنا ويحـاصـرنا تحت قـيادة رجـال البولـيس الإنـجليز.. لقـد كان الكونسـتبل الإنجليزى هـو دائما الذى يقـود البوليس فى مـواجهـة المظاهرات الوطنيـة.. وهمس شكرى عبـد الله لزميله الذى يعلن الهتـافات بأن يهتف « يحـيا الثبـات على المبـدأ » كأنه يدعو الـطلبة إلى مـواجهة البـوليس وعدم محـاولة الهرب من أمامه.. ولكن كل الطلـبة بدأوا الهرب والاختفاء من أمام البـوليس إلى أن وجد الطالب شكرى عبد الله نفسه واقفا وحده أمام البوليس كله وقرر أن يهرب هو الآخر.. ولكنه ما كاد يدخل من باب أحد البيوت ليختبىء فيه حتى وجد نفسه بين يدى كونستبل إنجليزى لحق به يحمل فى إحدى يديه كرباجـا وفى اليد الأخـرى مسدسـا.. وكانت كرابـيج الإنـجليز مصنـوعة من ذيول البـقر وتمزق كل ما تـهبط عليـه من لحوم البشر.. وانهال الكونستبل بذيل البقر على شكرى عبد الله حتى مزق وجهه، وشكرى يهـرب من الكرباج دون أن يحاول الهرب من الرجل الإنجليـزى خوفـا من أن يلاحـقه بإطلاق المسـدس عليه.. إلى أن اكـتفى الإنجليـزى من ضرب شكرى ليـبحث عن طالب مصرى آخر يضربه.. فنادى عسكرى بوليس كان يجرى وراء الطلبة وقال له بلغة عـربية مفككة يأمره بأن يقف مع هذا

الطالب ويستمر فى ضربه إلى أن يعود إليه..

ولم يكن العسكرى المصرى يحمل كرباج ذيل البقرة بل كان يحمل عصــا عادية كما لم يكن فى يده مــسدس وشكرى يفكر من خــلال الدمــاء التى تنــزف على وجــهــه أن يهــرب من هذا العــسكرى حــتى لو اضطــر أن يصــارعه ولــكن العــسكرى لم يضربه إلا ضربة واحــدة ثم تتبع بعينيه العــسكرى الإنجليزى حتى ابتعد عنه.. وقال لشكرى صائحا به :

– قم واهرب.. اهرب منى..

وقــام شكرى يجــرى هربا دون أن يحــاول رجل البــوليس اللحاق به..

واستمــر شكرى يجرى حتى بعد أن ابتعد كــثيرا عن الموقع الذى ضُرب فيه... ولكنه لا يزال يجرى.. إنه يجرى وعقله ليس معه.. لا يفكر فى شىء ولا يحس بالخــوف من أن يلاحقه أحد ســواء الكونستــبل الإنجليــزى أم العسكرى المصــرى ودون أن يحس بمن يناديه من المشفــقين عليه.. إنه فــقط يجرى.. إلى أن وصل البــيت وكأنه أفــاق على صراخ أمــه وأخته وهمــا يريان وجــهه غــارقــا فى الدم.. لقــد كان كــرباج ذيل البــقــرة عنيفــا والكونســتبل الإنجليــزى ينهال به عليــه.... حتى أنه مــزق جلد وجهه وترك فيه شقا مــرسوما على خده بقى على وجهه طول عــمره وكــان يتبــاهى به ويسمــيه وســامــا بريطانيا منحــه له الاحتلال البريطانى..

ومنذ هذا اليوم بدأت آراء شكرى عبد الله تتجه اتجاها جديدا

أن رجال البوليس المصريين مظلومون وهم لا يريدون الاعتداء على الطلبة المصريين بهذا العنف ولكنهم مضطرون إلى سماع أوامر الإنجليز.. إن الكونستبل الإنجليزى هو الذى يأمر العسكرى المصرى.. وهذا الإنجليزى يتلقى الأوامر من الحكمدار الإنجليزى.. والحكمدار يتلقى أوامره من الجهاز الاستعمارى البريطانى حتى لو صدرت هذه الأوامر عن طريق رئيس الوزراء المصرى.. وكان الحكمدار أيامها اسمه « رسل باشا » وكان اسمه يوازى اسم ملك مصر.. على الأقل ملك الشارع المصرى.. لاشك أن كل من عاش معنا من أبناء جيلنا القديم يعرف اسم « رسل باشا ».. لقد كان ألمع أسماء الدولة مع اسم الملك ورئيس الوزراء..

وقد تطور شكرى عبد الله تطورا غريبا.. لقد أصبح صامتا نادرا ما يتكلم.. كان دائما يبدو كأنه سرحان وراء البحث عن حل لمشكلة عنيفة وكان فى المرات النادرة التى يتحدث فيها عن القضية كان يقول دائما.. لا أمل.. يجب أن يخرج الإنجليز أولا.. حتى أنه لم يعد يخطط ويدبر للمظاهرات، إنما يسير فيها كمجرد استكمال للمظهر دون أن يهتف أو يضرب ويختفى عند أول مناسبة هرب.. لم يعد يؤمن بأن المظاهرات يمكن أن تؤدى إلى أى شىء.. وأصبحنا نقول عنه إن العلقة الإنجليزى بذيل البقرة سيطرت عليه وأسرته بالخوف.. ولكن الواقع وهو ما اكتشفناه بعد سنوات طويلة أنه كان يقوم بعمليات خطيرة يحتفظ بها كلها كعمليات سرية.. فهو لا يستطيع أن ينسى أبدا

العلقة التى صبـها عليه الكونستبل الإنجليـزى.. وقرر أن ينتقم منه.. ولكنه لا يعـرف شكله ولا اسمه ولا شىء عنه. لقـد كان يخفى عينيه وهو يضربه حتى لا يعميه ذيل البقرة فلم ير شكل الكونستـبل الذى يعتدى عليه، لذلك قـرر بدلا من أن ينتقم منه ويرد عليـه اعــتـداءه أن ينتـقم ويرد علـى كل الإنجليـز وأى إنجليزى ويقوم بعمليات سرية فى الخفاء حتى لا يقبضوا عليه بسرعة.. وحتى يحـتفظ بسريته أبعد هذه العمـليات عن مجمع الطلبة واعتمد فيـها على أهالى بلدته.. وهو من أهالى البدرشين ومن عـائلة كبـيرة هناك لهـا مكانة ممتـازة ونفوذ كـبيـر لدى الجهات الرسمية بل ولدى الإنجليز.. فكان من وقت لآخر يجمع عددا مـن شبان بـلده وينزل بهم إلى القاهرة وهم فى مـلابس بلدية ويستطيـعون أن يتقربوا لأى رجل إنجليـزى يقابلونه فى الطريق سواء كان يرتدى ملابس عسكرية أو مدنية أو حتى من السـواح ولا يهمـهم أن يعـرفوا وظيـفتـه أو مكانتـه.. ولكنهم يتمايلون على أى واحد يقابلونه حتى يكسـبوا صداقته ويثيروا أحـلامه فى أن يقـضـوا معـه ليلة رائعـة.. ثم يصـحبـونه فى شوارع محمد على أو شارع فؤاد أو يدخلون به أى فندق حتى يمـلأوا بطنه بالخمـر ثم يخـتفـون به فى أى مكان يختـارونه ويقضون عليه.. يقتلونه.. انتقاما للاعتداء على شكرى عبد الله..

وقـد تكررت هذه الحـوادث وعـرفت وبـدأت الحكومـة بكل أجهزتهـا تبحث عن مرتكبيهـا.. وقبضوا على الكثـيرين ونفذوا فـيهم حكم الإعـدام فعـلا أو ألقوهـم فى السجـون ولكنهم لم

يقبضوا على شكرى عبد الله ولا على أحد من شبان البدرشين.. إن شكرى عبد الله أصبح معروفا فى مظهره بهدوئه وعدم اشتراكه فى السياسة ولو باسم الوطنية.. ونحن لم نعرف عن هذه العمليات السرية التى كان يقوم بها فى هذه الفترة إلا بعد أن انتهت القضية ولم يعد شكرى يمكن أن يصيبه أى اتهام..

وكانت المفاجأة الكبرى لنا كلنا أننا عرفنا بالتحاقه بمدرسة البوليس بعد أن تخرج فى المدرسة الثانوية ونال شهادة البكالوريا.. الشهادة التى أصبحت تسمى فيما بعد التوجيهية ثم الثانوية العامة..

ولم تكن مدرسة البوليس تغرى أى طالب بالالتحاق بها.. ومعروف عنها أنها لا تجذب أى طالب من عائلة محترمة أو عائلة تسعى إلى العلم وإن كان قد ظهر فيها شخصيات قوية محترمة تخرجوا وأصبحوا قادة البوليس المصرى كالمرحوم الضابط الكبير اللواء سليم زكى.. كان المعروف عن مدرسة البوليس أنها تفتح أبوابها للطلبة الجهلة الأغبياء الراسبين ولذلك كانت مفاجأة لنا كلنا أن يلتحق بها شكرى عبد الله.. فهو من عائلة محترمة.. قريبة من أصحاب النفوذ.. وهو دائما متفوق فى دراسته وترتيبه بين الطلبة من الأوائل.. فلماذا اختار أن ينضم إلى مدرسة البوليس.. إن بعض الناس يعترونها كمكتب خدم يقدم كل أنواع الخدم للرؤساء الإنجليز والمصريين.. وهو ليس مضطرا لأن يكون خادماً بل إن تاريخ حياته يؤكد أنه يتمتع بشخصية السيد.. ولم يكن شكرى يفسر

اختيـاره لمدرسة البوليس ولا يدافع عن نفـسه ولكنى سمـعته مـرة يقول فى صـوت خـفيض هادئ.. إنى سـأعلم البـوليس المصرى كـيف يتحـرر من الضباط والكونسـتبـلات والرؤساء الإنـجليـز.. يجب أن يكون رجال البـوليس ضد الإنجليـز لا فى خدمة الإنجليز..

إذن.. كـان هذا هو هدف شكرى عبـد الله.. تحرير البـوليس المصرى من سـيطرة الإنجليز.. بأن يكون ضـابطا فى البوليس يستطيع أن يصدر أوامره..

ولكن تاريخ مـصر كله قـد تغـير.. كل شىء تغـير بعـد أن تخرج شكرى عبد الله فى مدرسة البـوليس.. لقد عقدت معاهدة ٣٦ بين مصر وإنجلترا ولم يعد للـقوات البريطانية حق الوجود فى مصر إلافى حـدود منطقة القنال.. وقد احتـقر شكرى هذه المعاهدة فهى تعترف بالاحتـلال الإنجليزى وإن كانت قد أبعدته إلى خارج القـاهرة.. احتقـرها رغم أن حزب الوفـد وهو حزب الأغلبية كان يسميها مـعاهدة الشرف والاستقلال وإن كان هو نفسه قـد بدأ يحس بأنه أصبح أكثر احتراما كضابط بوليس.. وقد أصـبحت مدرسة البـوليس كلية جامـعية كمـا أصبح أبناء الأغنياء والمحترمين يسعون للالتحاق بها..

وكان شكرى عـبد الله منذ أن أصبح ضابط بوليس يسـتغل نفوذ عائلته فى اختيار المراكز التى يعين فيها وكان دائما يختار المراكز القـائمة فى الأحـياء التى تجـمع أكثـر عدد من المدارس حتـى يشرف بنفـسه على مـراقبـة الطلبة، وقـد وضـع أسلوبا

جديدا كان مقصورا عليه وحده واعتبره باقى ضباط البوليس لعب عيال.. فقد كان يبدأ مواجهة أى مظاهرة للطلبة بأن يتقدم من أفراد القيادة الطلابية، ويقول لهم.. إن البوليس لا يمكن أن يبدأ بالاعتداء عليك.. فإن إبداءكم الرأى فى مظاهرة هو حق لكم.. ولكن البوليس مضطر للدفاع عن نفسه،.. أى إذا هاجمتم أو بدأتم فى القذف بالطوب اضطر رجال البوليس أن يشهروا عصيهم ويهجموا عليكم حتى تنفضوا أو حتى يقبض على البعض منكم.. ولذلك فمن حقكم أن تسيروا فى المظاهرة.. وأن تهتفوا بما ترون الهتاف به ولكن لا تشغلوا الهتاف بأسماء شخصية حتى لا يعتبر ذلك اعتداء شخصيا على أحد.. الاستقلال التام أو الموت الزؤام.. إلى آخر هذه الهتافات العامة.. كما لا تبدأوا بتحطيم أى شىء من أملاك الدولة كفوانيس النور أو أى شىء آخر.. إنها أشياء ليست ملكا للإنجليز.. إن مصر دفعت ثمنها فهى من أملاك مصر.. وسأسير أنا ورجال البوليس نحميكم من أى تدخل غريب عنكم حتى تصل المظاهرة إلى آخر الحى وأترككم للضابط المسئول عن الحى الآخر..

وكثيرا ما استجاب الطلبة لمطالب الضابط شكرى وساروا فى مظاهرات سلمية لا يعتدى فيها الطلبة على البوليس ولا البوليس على الطلبة.. وكان رؤساء شكرى يوجهون له اللوم لأنه سمح للمظاهرة بأن تكمل طريقها فى سلام ولكن شكرى لم يكن يهتم ولا يحترم رؤساءه.. إلى أن بدأت تصفية البوليس الإنجليزى بعد معاهدة ٣٦.. أصبحوا يعملون داخل المكاتب

وليس لهم حق الظهور فى شوارع القاهرة.. وقد اعتقد شكرى عبد الله أنه لم يعد هناك أسباب تدفع الطلبة إلى المظاهرات بعد معاهدت الشرف والاستقلال.. ولكن المظاهرات بدأت تكثر وتشتد..

وبدأ يتجه اتجاها جديدا فى اكتشاف دوافع المظاهرات.. إن المظاهرات ليست مجرد مظهر العداء بين المصريين والإنجليز.. إنها معركة بين كل الأحزاب السياسية.. الإنجليز حزب.. والملك حزب.. والوفديون حزب.. والحزب الوطنى.. والحزب الدستورى.. والحزب السعدى.. و..و..عشرات الأحزاب بينها أحزاب لا تعلن عن نفسها وتعمل من تحت الأقدام.. وكل هذه الأحزاب تعتمد على فرض نفسها وآرائها بالمظاهرات حتى تصل إلى الحكم.. بل إن الحزب الحاكم يقوم بمظاهرات عنيفة ضد الأحزاب المعارضة.. أى أنه ليس هناك أهداف وطنية وراء هذه المظاهرات كلها أهداف حزبية.. وكل حزب له تنظيمات وخبراء لتجنيد الطلبة والشبان للقيام بالمظاهرات ضد الحزب الحاكم أو الحزب المعارض.. ولها تنظيمات خاصة لتحديد ما تحطمه من أملاك الدولة خلال المظاهرات..

وظل ضابط البوليس شكرى عبد الله يتبع نفس الأسلوب فى مواجهة المظاهرات.. يتقدم إلى قادة المظاهرات، ويقنعهم بالسلام دون محاولة الاعتداء على البوليس حتى لا يضطر البوليس إلى ضربهم والهجوم عليهم دفاعا عن النفس.. وغالبا ما كان ينجح هذا الأسلوب وتتم المظاهرة دون معركة بين

الشـعب والبوليس.. وكـثـيـرا ما يـفشل هذا الأسلوب وتنتـهى المظاهرة إلى معركة عنيفة يضـيع فيها من رجال البوليس بقدر مـا يضيع من أفـراد المتظاهرين، وغـالبا مـا يتم القبض عـقب المظاهرة على عشرات من أفراد الأحزاب التى تولت القيادة..

وقد اشـتـهر اسـم شكرى عبد الله كـضابط بوليس مـصرى عـاقل وشـريف ولا يحـمل عداء دائـما لكـل المتظاهرين إلى أن قامت يوما مظاهرة صغيرة أى قليلة العدد.. وتقدم شكرى على رأس قواته وبدأ يناقش قادة هذه المظاهرة فى القيود التى يجب أن يتـعـهدوا بالتـقـيـد بها.. لا اعـتـداءات.. ولا هتـافات ضـد أشـخـاص.. ولا تعـدى على أمـوال الدولة.. و..و.. وبينمـا هو واقف بينهم كانوا ملتفين حوله بحيث يتركون مساحة مفتوحة بينه وبين الشـارع.. وفجأة.. اختـرقت طوبة كبيرة هذه المساحة المفتـوحة وأصابت شكـرى عبد الله إصـابة كبيـرة فى جبهـته وأخذت تنزف الدم..

ولم ينتظر أو يتـردد شكرى عبـد الله لحظة واحدة وسـحب قـواته من ورائـه وأصـدر أوامـره وانهـال ضـربا بـالعـصى والكرابيج على الملتفين حوله وعلى كل المشتركين فى المظاهرة.. وكـان عنيـفا هو نفـسـه فى الضـرب وأفراد البـوليس كـأنهم ينافسونه فى الوصول إلى ضرب أعنف..

وانتهت المظاهرة بإصابة أغلبية الذين ساهموا فيها بضربات شقت رءوسهم وأجـسادهم أو بالقبض عليهم وفـرار الباقين.. وانتهت، وشكرى عبد الله يحمل ورما ينزف دما على جبينه من

أثر الطوبة التى ضرب بها.. وأصبح يقـول إنه يحمل وسامين.. وساما إنجليزيا على خده.. ووسامـا مصريا على جبينه.. ومن يومـها اتخـذ قرارا نهـائيا بألا يـسمح بظهـور أى مظاهرة فى الحى الذى يشرف عليـه.. إلا إذا كانت مظاهرة وطنية جمـاعية تضم كل اتجـاهات الشـعـب، وتطالب بمطلب واحـد كـخـروج الإنجليز من مصر كلها عقب مـعاهدة ٣٦.. واستمر على إيمانه بأن الإنجليـز لا يعتدون على المـصريين حتى خـلال المظاهرات ولكن المصـريين هم الذين يعـتدون بعـضـهم على بعض.. وإن الأحزاب السـياسـية هى التى تدبر المظـاهرات لتحقـيق أهداف خاصـة بكل حزب تتخـفى فى هتافات ضـد الإنجليز.. وهو لن يسمح للأحزاب بأن تخل بالأمن حتى ولو كان حزب الحكومة..

وفعـلا.. استطاع شكرى عبـد الله.. وهو فى رتبة يوزباشى بوليس.. أن يقضى على كل المظاهرات فى أى حى يتولى أمره.. واشتهر اسمه ولكنه أصبح مشتهرا كعدو للطلبة وللطائفة التى تحـتـرف المظـاهرات كـمـا كـان اسم رسل باشـا الحكمـدار الإنجليزى مشتهرا..

وكـان أى حزب يصل إلى الحـكم يعتـرف لشكرى بفـضله وعبقريته فى حفظ الأمن السـياسـى.. وهو نفسه لم يكن ينتمى إلى أى حزب.. صحيح أن أفراد عائلـته فى البدرشين موزعون بين كل الأحزاب إلا أنـه هو شخصـيا لا ينتـمى إلى أى حزب.. ورغم ذلك فـقد بـدأت الأحزاب كلهـا تضـيق به.. إن المظاهرات تعتبر أداة سياسية أسـاسية لا يستطيع أن يستغنى عنها حتى

الحزب الحاكم.. أى حتى بعد أن يصل الحزب إلى الحكم حتى يتمكن من الرد على باقى الأحزاب..

وأصبح هناك شبه إجماع بين كل قيادات الأحزاب على التخلص من شكرى عبد الله.. وقد بدأ الحزب الحاكم بأن أصدر وزير الداخلية قرارا بترقية البكباشى شكرى عبد الله إلى رتبة أميرالاى بصفة استثنائية على أن يتولى منصبا هاما داخل الوزارة.. ولكن شكرى عبد الله رفض أن يترك الشارع ويعين داخل الوزارة واضطر الوزير إلى ترقيته دون أن يقدم على نقله إلى داخل الوزارة.. إنه ليس بسيطا إلى حد اللعب به.. ووراءه عائلة وشخصيات لها قوة..

ولم يمض عام حتى تغيرت الوزارة.. وجاءت وزارة الوفد.. وكان حزب الوفد لا يكاد يجلس على كرسى الوزارة حتى يعلن أنه القوة الوحيدة فى مصر بل وفى العالم كله.. وكان هو الآخر مقتنعا بضرورة التخلص من شكرى عبد الله الذى أصبح أميرالاى بوليس.. ولم يهمه ما يحيط به من أى قوى سياسية.. ولكنه أصدر قرارا استثنائيا آخر بترقية الأميرالاى شكرى إلى لواء.. مع إحالته إلى الاستيداع..

غريبة.. لقد استسلم شكرى عبد الله للأمر فى هدوء.. ولم يبذل أى مجهود ولا سلط أى أحد من كبار رجال عائلته ليبقى فى منصبه، ربما كان قد فرح بأن حمل لقب لواء وهو لا يزال فى الأربعين.. أو ربما كان قد يئس من الاعتماد على الوسائل الحكومية فى حفظ الأمن.. ولكن.. هل عاش فعلا حياة

الاستيـداع.. الله أعلم.. إن ما عرف عنه أنه تفرغ لزراعـة حقول من أشجار الموز فى البدرشين.. ولكن قيل أيضا أنه كون جيشا سريا من أهل بلده يقاوم به أى محاولة لأى حزب من الأحزاب السياسية أو أى شخصية من الشخصيات السياسية تحاول أن تنظم مظاهرة سيـاسية ضـد الحكومة، أو ضد أى من كـان ما دامت ليـــست مظاهرة وطـنيــة تجـمع كـل الأحـــزاب وكل الشخصيات فى هدف وطنى وليس مجرد إسقاط الحكومة.. بل حـدث أن كانت تقع بعض حـوادث الاغتـيال عـقب أى مظاهرة فيتهم بها شكرى عبد الله..

ولكنه كان دائما اتهاما من بعيد ولم توجه إليه أى تهمة..

يبدو عليـه أنه تفرغ لزراعة وبيع المـوز... ولكنه كان فى كل يوم خمـيس يدعو فـريقا من أصـدقائه القدامى إلــى الغداء فى أرضه فى البـدرشين.. وقد دعـيت أنا إلى الغداء مـعه ثلاث أو أربع مرات.. وكنت بمجرد أن أجلس معه أحس أنه لم يتغير فيه شىء.. إنه لا يزال ضابط البوليس الذى يثيـر الرهبة والاحترام فيـمن حوله.. بل إنه لا يزال الطالب معى فى المدرســة الثانوية الذى لا يكف عـن التـخطيط للأعـــمال الوطنيـــة.. وإن كـانت التخطيطات التى يقدمها الآن لا تصل إلى حـد أن يتعهد بالقيام بتنفيذها أو المساهمة فيها.

وهو كما كان دائما ساخطا.. لا يوافق على شىء.. ولا يتعلق بأمل.. وهو لا يزال يؤمن بأن الطريق الوحيـد هو الحرص على الأمن واحـترام القـانون.. على أساس عـدم القيـام بالمظاهرات

السياسية إلا إذا كانت مظاهرة وطنية جماعية.. وفى آخر يوم رأيته فيه أيام زمان قال لنا ساخرا.. إنهم سيقومون بمظاهرة يوم السبت.. هذا أبعد من أحلامهم... لن يتحرك طالب ولا عامل ولا شحات فى هذه المظاهرة..

كان يتكلم كأنه لا يزال المسئول فى البوليس.. لا مظاهرات.. وفعلا لم تحدث أى مظاهرة يوم السبت.. واستنتجنا أنا ومن يعرف شكرى عبد الله أنه هو.. الجيش السرى الذى أقامه هو الذى استطاع أن يحقق فشل هذه المظاهرة قبل أن تبدأ..

وقد توفى اللواء شكرى عبد الله قبل أن يصل إلى الخمسين من عمره.. توفى وفاة طبيعية بحكم القدر وإن كانت قد انتشرت الاشاعات حول موته على أنه اغتيل أو مات مسموما..

وإنى أحمد الله أنه مات قبل ثورة ٢٣ يوليو.. فلا أحد يستطيع أن يقدر ماذا كان يمكن أن يحدث له وينتهى إليه لو كان على قيد الحياة مع ثورة ٢٣ يوليو.. فهو لم يكن يستسلم لأى مظاهرة.. وثورة ٢٣ يوليو لم تكن سوى مظاهرة..

مجرد مظاهرة مسلحة..

■ ■

دقيقة بعد دقيقة..

□ إن حياته كلها مجموعة من الدقائق.. لا من الأيام ولا من الساعات.. بل بلغ من حرصه على السيطرة على حياته وتنظيمها أن جعل منها مجموعة من الدقائق.. وقد وضع حياته كلها بين عقارب الساعة.. وقد عاشها كلها وهو يحمل على معصمه ساعة زمنية حتى منذ أن كان صبيا.. وكل ما يتحرك فى حياته مرتبط بتحرك عقارب هذه الساعة..

وهو لا يدرى هل ورث هذه الدقة فى تحديد دقائق حياته عن أبيه أو عن جده ولكنه وجد نفسه هكذا دون تعمد.. وحتى دون محاولة الاقتناع بأن هذا هو التنظيم الأمثل للحياة.. لقد وجد نفسه هكذا.. وكان وهو صبى يستيقظ من نومه فى الساعة السادسة صباحا.. وأول ما يفتح عليه عينه هى الساعة التى يحتفظ بها بجانبه فإذا كانت تشير إلى السادسة بالضبط

قفز من فراشه.. وإذا كانت لم تصل إلى الساسة عاد وأغمض عينيه.. حتى ولو لم يكن فى حاجة إلى النوم.. وإذا كانت بالصدفة النادرة قد جاوزت السادسة بدقائق فإنه يجد نفسه مضطرا إلى اختصار عدد من الدقائق التى يستغرقها فى إعداد نفسه بدخول الحمام وتناول الإفطار حتى يعوض الدقائق التى فاتته.. ثم يخرج من البيت فى الساعة السابعة والربع ليصل إلى المدرسة فى الثامنة الربع تماما.. ويقضى يومه فى المدرسة حتى الساعة الثالثة ويعود إلى البيت فى الثالثة والنصف.. وينتهى من تناول غدائه فى الرابعة ثم يخصص دقائق محددة للراحة ويعطى نفسه حق اللعب فى البيت أو خارج البيت.. وحده أو مع أولاد الجيران.. حتى الساعة السادسة بالضبط فيتفرغ لمذاكرة دروسه حتى الساعة التاسعة.. وفى التاسعة والربع تماما يجلس على مائدة العشاء وينتهى منه فى التاسعة والنصف ثم يعتبر نفسه ملكا لفراشه سواء نام أو لم ينم إلى أن يصل إلى الساعة السادسة صباح اليوم التالى..

وقد انتقل بهذا التنظيم لدقائق يومه إلى أيام أن أصبح طالبا فى المدرسة الثانوية.. ثم طالبا فى الجامعة،.. ثم بعد أن أصبح موظفا كأستاذ جامعى.. وقد وصل إلى هذا المركز لأنه كان دائما متوقعا النجاح فى كل ما يدرسه.. وطبعا كان يعدل ويغير من تخصيص دقائق عمره وفقا لما يتحمله من المسئوليات..

وليس معنى ذلك أن الأستاذ إبراهيم رجب كان إنسانا جافا متزمتا يحرم نفسه من متع الحياة تمسكا بمبادىء الفضيلة

العليا.. أبدا.. ولكنه كان يضع متع الحياة داخل التنظيم الكامل لدقائق يومه.. وقد مرت عليه فترة وهو فى شبابه انجذب فيها إلى لعب كرة القدم.. وكان يلعبها فعلا فى المدرسة أو بين أصدقاء الحى.. ولكنه كان لا يلعبها إلا فى فترة يحددها ويخصص لها مجموعة من دقائق يومه ولا يمكن لأى إغراء أن يحرضه إلى أى فريق لأنها كلها فرق لا يمكن للتنظيم الذى يضعه لدقائق عمره.. لا يمكن أن يفرض على فرقة أن لا تلعب إلا يوم الجمعة.. ومن الساعة كذا إلى الساعة كذا..

وهو فى الوقت نفسه شخصية تجتذب الأصدقاء.. فهو متحدث مسل وصاحب آراء جديدة ومثيرة دائما.. وصاحب مواقف رجولية باهرة تدعو إلى احترامه.. ثم إنه لا يرفض سهرات اللهو والانطلاق الشبابى.. ولكنه كان يفرض عليهم التنظيم الذى وضعه لكل دقيقة من دقائق عمره.. فهو لا يجتمع بهم إلا فى سهرة مساء الخميس.. والسهرة تبدأ دائما فى الساعة الثامنة ولا تتجاوز الساعة الثانية عشرة.. ولم يحاول أحد منهم أن يخرجه على هذا التنظيم.. فإذا أقام أحدهم حفلا ساهرا فى غير مساء الخميس لا يحاول دعوة إبراهيم إليها.. ومهما راق الحفل وكملت متعته لا يحاول أحد أن يبقى إبراهيم بينهم بعد الساعة الثانية عشرة.. فهو من نفسه يقوم وينصرف دون أن يمسك أحد به.. فكلهم يعلمون أن هذه هى طبيعته.. وليس لأحد منهم القدرة على المساس بطبيعته..

وكان من المعتاد أن تقدم فى سهرات الخميس كؤوس

الخمر.. وأحيانا تقدم أيضا أنفاس الحشيش.. ولم يكن إبراهيم يعترض أو يسخط أو يتأفف أو يطلق نصيحة.. كان يترك كل صديق حرا فى تناول ما يشاء من كؤوس وشد ما يشتهى من أنفاس.. وهو نفسه كان يضع كأسا يلتقط منها رشفة أو رشفتين دون أن يحتاج إلى كأس أخرى.. وقد تنتهى السهرة دون أن يفرغ كأسه فى جوفه.. كما كان أحيانا يشد نفسا من الحشيش دون أن يشد نفسا آخرا.. دون أن يبدو عليه الرفض ودون أن تبدو عليه مظاهر الاختلاف عن أصدقائه.. وكل ما هناك أنه بعقليته التنظيمية قدر تأثير الكأس وأنفاس الحشيش على قوة التنظيم الذى وضعه لدقائق أيامه واقتنع بأنهما يؤثران على راحته في تحقيق ما وضعه من تخطيط لدقائق اليوم التالى.. وقد تعود أفراد شلة الأصدقاء أن يشتركوا جميعا فى تزويد سهرة الخميس باحتياجاتهم.. فكان أحدهم يدخل وهو يحمل زجاجة ويسكى.. وفى جيب الآخر فص حشيش.. وقد يدخل أحدهم وهو يحمل لفافة تجمع كمية من الكباب والكفتة.. أو حلة واسعة تفيض بالكشرى.. ولكن إبراهيم كان منذ البداية قد أعلن اختصاصه بتزويد السهرة بأنواع الفاكهة.. قد يحمل لهم بطيخة أو قطعا من الجاتوه أو « تورته » كبيرة سخية تكفى لمتعة الجميع بتذوقها.. وهو لم يكن يتعمد أن يبتعد عن شراء المحرمات ولكنه فقط يقدر أنه يثق فى قدرته على اختيار الفاكهة والحلوى وشرائها أكثر من قدرته على شراء الخمر والحشيش.. وحدث فى حياته ما هو أكثر من ذلك.. ففى

إحدى سـهرات الأصـدقاء التقى بالراقـصة زوزو.. وقـد وجد نفسه منجذبا إلى هذه الراقصة.. ولكنه لم يبدأ أى محاولة معها فإنها لا تـدخل فى أى تنظيم يستغرق دقـائق من أيامه... ولكن زوزو نفسـها كانت قد انجـذبت إليه أكثر.. واستطاعت أن تشده إلى تحديد موعـد للقائها فى بيتها.. ولكن كـيف يجد فى دقائق أيامه ما يتـسع للقائها.. واعتمد علـى قدرته على تخطيط دقائق أيامه وقرر أن يلتقى بها فى الساعة السابعة من مساء الخميس ويبـقى معـها حـتى السـاعة التـاسـعة، ثم يعـود إلى سـهـرة الأصدقاء.. بل إنه يستطيع أن يصـحبهـا معه إليهم فقد سبق أن شاركتهم فى سـهرات الخميس.. وأصبحت دقـائق عمره تتسع للقاء زوزو كل يوم خمـيس فى الساعة السابعـة مساء.. ولكنه أحس بحاجـته إلى دقائق أكـثر يقضـيها مع زوزو.. فـعدل من التخطيط وأصبـح يلتقى بها أيضا كل مسـاء ليوم الاثنين.. من الساعة السابعة إلى الساعة الحادية عشرة. ثم أقدم على تعديل أكبـر فأصـبح يدعو شلة الأصـدقاء إلى قـضاء سـهرة مـساء الخميس فى بيت زوزو.. حتى يـظل متمتعا بصحـبتها.. ولكنه ظل حتى والسهـرة فى بيت زوزو ينصرف فى الساعـة الثانية عـشرة تمامـا حـتى لو ترك زوزو وحدها بـين أصدقـائه.. إنه تنظيم لم يستطع أو لم يفكر فى الخروج عنه من هذه الناحية..

ولم تستـمر دقائق عمـره تتسع لزوزو سوى عام وبضـعة شـهور ثم بدأ يحس إنه قد أصبحت له مطالب أوسع تحتاج إلى هذه الدقائق.. وخـصوصا أنـه كان قد تخـرج وعين معـيدا فى

الجامعة.. وهى نفسها كانت قد بدأت تحس بالملل من هذا الروتين الذى يفرضه عليها إبراهيم.. وتضيق أن تحسب علاقتها به بالدقائق.. إنها يائسة من أن تنتظر أى مفاجأة أو تتعلق بأى أمل.. ثم إن حبها لإبراهيم وتعلقها بمتعتها به يكاد يجمد حياتها دون أن تحقق شيئا يتطلع إليه شبابها.. وفى هدوء ورقة اتفقا على أن ينفرد كل منهما بدقائق عمره.. ولم يعد بينهما لقاء محدد بمواعيد ودقائق.. وإن كان كل منهما يتصل بالآخر فى فترات متباعدة كأنه لا يهون عليه أن ينساه.. وإن كانت هذه الفترات قد انتهت أيضا واستسلما للذكريات كلما ضعف النسيان..

إلى أن قرر الأستاذ إبراهيم رجب أن يقيم بناء جديدا فى حياته..

قرر أن يتزوج

ولم يتخذ هذا القرار كمجرد مظهر يستكمل به حياته.. ولكنه اتخذه بعد قياس دقيق لكل احتياجاته.. وبعد أن وضع مشروعا تخطيطيا كاملا لكل دقيقة من عمره بعد أن يتزوج.. وقد اتبع التقاليد المعروفة فى البحث عن زوجة عن طريق أفراد العائلة والأصدقاء.. ولكنه كان يقضى أياما طويلة فى جمع وقياس المعلومات.. وكان يؤمن بتأثير النظرة الأولى التى تجمعه بمن يراها من المعروضات عليه.. إلى أن قرر أن يتزوج سميحة.. لقد أحس بالدقيقة الأولى التى جمعتهما فى أول لقاء كأنها يمكن أن تمتد إلى دقائق العمر كله..

ومنذ اليوم الأول لزواجه وهو يفرض على زوجته وعلى البيت كله النظام الدقيق الذى يطبق على كل دقيقة من يومه.. فهو يستيقظ ويترك الفراش فى الساعة السادسة تماما.. ثم يدخل الحمام ويخرج ليتولى بنفسه ارتداء ثيابه دون أى معاونة من الزوجة.. ثم يتناول طعام الإفطار فى الساعة السابعة تماما ويخرج من البيت فى الساعة السابعة والنصف.. حتى الكلمات التى يتبادلها مع زوجته خلال هذه الفترة لا تخرج عن إطار محدد لها.. وتشمل الاتفاق على متطلبات اليوم وتنتهى بقبلة سريعة على الخد.. ثم يعود إلى البيت فى الساعة الثانية تماما ويتناول طعام الغداء فى الساعة الثانية والنصف.. وهو يتناول الغداء قبل أن يبدل ثيابه ويرتدى ثياب البيت.. ثم فى الساعة الثالثة إلا الربع يدخل غرفة النوم ويبدل ثيابه ويرقد على فراشه لمدة ساعة ليقرأ الصحيفة اليومية أو يغفو نائما.. وفى الساعة الخامسة تماما يكون جالسا إلى مكتبه يراجع ويعد أعماله.. و..و.. حتى العلاقة الخاصة التى تجمعه بزوجته منظمة تنظيما دقيقا فهما يرقدان على الفراش فى الساعة التاسعة والنصف بعد مشاهدة نشرة الأخبار على شاشة التليفزيون فهو لا يشاهد أكثر إلافى مساء الخميس.. وعلى الفراش يستعرض مع زوجته كل مطالب وأحداث اليوم.. ثم يتبادلان قبلة سريعة على الخد ويدير كل منهما ظهره للآخر.. ما عدا ليالى يومى الاثنين والخميس.. فهى مخصصة للقاء كامل بين جسديهما.. يعد كل منهما نفسه له كأنه يعد

نفسه للمتعة الكبرى.. وهما فعلا يحسان بمتعة كبرى لم تخفت ولم تضعف على مر الأيام..

وكانت الأيام تفرض عليهما أوضاعا جديدة تضطره أن يدخل تعديلات على برنامج تنظيم كل دقيقة من يومه.. ولكنه كان دائما منظما.. فبعد أن أنجب أولاده.. أصبح يخصص دقائق فى كل صباح من الساعة السابعة حتى الساعة السابعة والنصف للاهتمام بهم وتحمل مسئوليتهم.. ثم يخصص دقائق أخرى من الساعة الخامسة مساء حتى السادسة والنصف يراجع معهم دروسهم ويستمع إلى حاجتهم.. وخارج هذه الدقائق فلا يمكن أن يغتصب منه أولاده أى دقيقة.. وهم أنفسهم تعودوا على هذا النظام وشبوا مستسلمين له.. وأحيانا كانت تصادف العائلة أحداثا طارئة وبسرعة يستطيع إبراهيم رب العائلة أن يواجه هذا الحدث ثم يعود إلى نفس التنظيم الذى وضعه لكل دقيقة من أيامه..

المهم أن زوجته سميحة كانت مستسلمة استسلاما كاملا لهذا التنظيم الذى يضعه زوجها لكل دقيقة فى عمريهما.. بل كانت تؤمن أن زوجها هو أفضل وأقدر الرجال على ضمان سلامة وهناء العمر بإصراره على جمع كل دقيقة من اليوم فى جدول واحد روتينى مستمر دون أن تشعر مع أى دقيقة بالملل أو الزهق.. والواقع أن إبراهيم منذ تزوج وهو يربط كل دقيقة من عمره بزوجته سميحة.. لم يعد فى حياته دقيقة واحدة لا يحسب حسابها حتى وهو فى عمله بعيدا عن البيت وهو

مطمئن إلى أن نتيجة عمله تجمع بينه وبين زوجته ثم إن نتيجة عملها وهى بعيدة عنـه تجمع بينها وبينه.. وقد أقلع عن التنظيم الذى كان يضعه لأيام قبل الزواج.. لم يعد يسهر كل مساء خميس مع شلة الأصدقاء.. بل إنه أصبح لا يرتبط بصديق إلا إذا كان متزوجا مثله، حتى تجمعه به دنيا واحدة ووضع واحد.. وكان يقبل دعوات هؤلاء الأصدقاء بصحبة زوجته.. ويدعوهم إلى سهرة من سهرات الخميس كل شهر أو كل شهرين.. وهم كلهم أزواج وزوجات.. ويشترط تآلف الأزواج ببعضهم وتآلف الزوجات.. فإذا لم تتآلف زوجته مع زوجة صديق أخرجه من حياته مهما كان تآلفه معه هو شخصيا.. إن التنظيم يجب أن يكون جامعا كاملا حتى يطمئن إليه ويهنأ به..

وأصبح المجتمع كله يشهد بسعادة واستقرار عائلة الأستاذ إبراهيم رجب.. وإن كان البعض يتهمها ببرودة الروتين ويشبهها كأنها مصلحة من المصالح الحكومية الباردة التى تفتقد روح الانطلاق فى مواجهة مجالات الحياة..

وقد كبر الأستاذ إبراهيم رجب وتعدى الستين من عمره وأحيل إلى المعاش وإن كان لا يزال يلقى الدروس فى الجامعة كأستاذ زائر ويتحمل المسئولية كمستشار لبعض الشركات.. وقد اضطر أن يدخل بعض التعديلات على تنظيم دقائق أيامه.. ولكنها كانت تعديلات طفيفة لم تغير كثيرا من روتين حياة زوجته سميحة رغم أنها أصغر سنا منه ولم تصل إلى سن المعاش بعد..

وقد وجد نفسه يتجه إلى احـتياج جديد فى مطالب حياته لم يكن يخطر على باله.. وهو الاتجـاه إلى مزاولة ريـاضة السـير على قدمـيه كل صباح.. وأحـس كأنه اكتشف سـرا من أسرار الحياة.. اكتشف أنه قضى مـعظم عمره حتى اليوم وهو جالس على مـقعد.. ولا يتـحرك إلا بالانتـقال من مـقعـد إلى مقـعد.. والحياة لا يمكن أن تستكمل حيويتـها وقدرتها على الاستمرار وهى ملقاة على مـقعد.. يجب أن نمد كل عـضلة وكل خلية، من خلايا الجـسم بالحركـة التى تنفث فيهـا الحيـاة.. بل إن الحالة النفسيـة التى يستكمل بها الإنسـان مواجهة أيام الحـياة تقوى بتزويد الجسم بالحـركة الرياضية.. والحركـة الرياضية تؤهل الإنسان جسديا كما تؤهله نفسيا..

وقد بدأ بأن خصص دقـائق من الصباح للسير على قـدميه خـارج البـيت من السـاعـة السـادسـة والنصف إلى السـاعـة السابعـة.. يسير فى الشوارع إلى أن يخـرج إلى منطقة المزارع القـريبة ثـم يعود ليطبـق باقى روتين دقائـق اليوم.. وقـد بدأ يحس فعلا بمزيد من الحيويـة تسرى فى كل كيانه.. ورفع مدة الرياضـة إلى ساعـة كـاملة.. ثم مع الأيام رفـعهـا إلى ساعـة ونصف.. ثم إلى ساعتين كاملتين.. ثم يعود وهو يحس بنشوة كأنه استعاد كل شبابه..

وكان يـتعـمد الحـرص على تزويد نفسـه بكل ما يوفـر له النتـيجـة المثلى لهـذه الرياضـة.. ويوالى الاطلاع على كل مـا يسجـله الخبراء الـرياضيون.. وكـان قد بدأ يتـعمـد أن يخطو

وأعصــاب ساقيــه كلها مــشدودة معــتقدا أن هذه هــى الوسيلة الرياضية المثلى.. ولـكنه اكتشف بعدما راجـعه من دراسات أن الرياضة المثلــى تقوم على أن تنقل خطواتك وســاقيك وهى فى حالة طبيــعية.. أى لا تحاول شدها ولا تحــاول إرخاءها.. حتى تنعكس على باقى أعصاب وخلايا الجسد انعكاسا طبيعيا.. كما أنه اكـتـشف أن العنصــر الأســاسى فى رياضــة الســيـر على القدمين هو ألا تشغل نفسك أو تفكر فى أى موضوع آخر وأنت توالى خطواتك.. بـل تسـيـر وكل مـا فى عـقلك منحـصــر فى ملاحــقة خــطواتك.. حتى لو وجـدت نفسك تتـسلى بتعـدادها خطوة بعــد خطوة.. مــائة خطوة.. ألف خطوة.. مليــون خطوة.. كما أنه اكتشف أن الرياضــة المثلى تفرض عليه ألا يلتفت حوله وهو ينقل خطواته.. لا يتوقف أبدا مــهما أغرته المــعروضات أو الأحداث التى يمر بهــا.. حتى أنه لا يرى شيئا من مــعروضات الحوانيت التى يمر بها.. بل وقع فى طريقــه مرة حادث سيارة شنيع مثير فلم يتوقف ليـرى ما حدث.. إنما استمر فى خطواته كأنه لم يحدث أمامه شىء.. وكثـيرا ما كان يصادف فى طريقه صديقا من الأصدقاء فيتجاهل رؤياه أو يكتفى بهز رأسه محييا دون أن تتوقف له خطوة..

وهو دائما يزاول رياضــته اليومـية وحيدا.. حــتى لا يشغله أحد عن التفرغ لها ويحاول أن يبتعد بكيانه عن الإحساس بها.. وقد كانت سهير هانم جارة عــزيزة تفيض عليه دائما بالاهتمام به حتى كــان أحيــانا وهو فى هذا العمر يحس بــأنه يقاوم هذا

الاهتمام حتى لا يستغله.. إنها أرملة جميلة مثيرة منطلقة بحياة تنبض كل دقائقها بالحيوية.. كأن كل دقيقة دعوة مغرية.. ولعلها عرفت أن إبراهيم يبدأ فى الساعة السادسة والنصف من كل صباح مزاولة رياضة السير على قدميه.. وقد فوجىء بها ذات صباح وهى تنتظره على الباب وتقول له إنها قررت هى الأخرى أن تبدأ فى رياضة السير على قدميها وستسير بصحبته.. ورضخ بسرعة.. إنها متعة رائعة أن يتحرك بصحبة سهير هانم.. ولكن سهير لا تكف عن الكلام.. ولا يهمها أن يتكلم هو الآخر أو لا يتكلم.. إنها تتكلم كأن الرياضة التى تمارسها هى رياضة لتقوية وإنعاش لسانها وحده.. وقد بدأ يحس أنه لا يستطيع أن يعيش الدقائق التى يخطو خلالها بقدميه.. يحس أنه لا يخرج من رياضته اليومية بشىء.. والتفت إليها بسرعة قائلا :

– آسف.. سأكمل المشوار وحدى..

وسبقها فى خطواته ليتم البرنامج اليومى الرياضى.. ولم تحاول سهير مرة ثانية أن تصحبه فى مشوار الصباح..

وزوجته سميحة.. لقد بدأت منذ شهور تعانى متاعب صحية ولم يستطع الأطباء أن يصلوا إلى مراكز الضعف فيها ويعالجوها.. إلى أن قررت هى نفسها أن تصاحب زوجها فى رياضة كل صباح.. ومن يدرى ربما تشفى..

وقد قبل أن تصحبه وهو يحس أنه يقوم بواجب ثقيل تفرضه عليه مسئوليته عنها.. ولكن سميحة لا تقدر ولا تحترم

رياضة السير على الأقدام.. إنها تتوقف أمام معروضات الحوانيت التى تمر بها.. وتتوقف كلما التقت بصديقة أو بجار من الجيران وتدخل معه فى نقاش طويل.. ولم يعد يحتمل.. وأطل فى ساعته.. لقد مضت نصف ساعة وهو لم يخرج بعد إلى المناطق الخلوية.. والتفت اليها وقال فى رقة كأنه يعتذر لها بأن من الأفضل أن تزاول رياضة السير على قدميها بصحبة ابنها عادل.. ثم عاد بها إلى البيت واضطر أن يعدل فى تنظيم دقائق يومه بأن يعود وحده ليمشى مشوار كل صباح..

ومرت سنوات وبرنامجه اليومى ينقله من دقيقة إلى دقيقة دون أن يتغير منه شىء.. إلى أن كان يوما..

واستيقظ الأستاذ إبراهيم رجب فى الساعة السادسة تماما كما يفرض برنامج دقائق يومه.. ودخل الحمام ثم بدأ يعد نفسه لمشوار كل صباح.. ولكن زوجته سميحة لم تستيقظ.. إن التنظيم اليومى يفرض عليها أن تستيقظ هى الأخرى فى هذه الساعة.. واقترب منها كأنه يهم بلومها.. ويهزها فلا تستيقظ ويتحسسها وكل شىء فيها صامت جامد..

لقد ماتت..

ووجد نفسه ينهار ويحتضنها كأنه يحتضن نفسه.. لقد عاش بها أكثر مما عاش بلاها.. إنه يحس كأن الموت فى داخله.. ولكنه فجأة وجد نفسه يقفز بعيدا عنها وينظر فى ساعته.. إنها السادسة والنصف تماما.. وصاح ينادى ابنه عادل.. وقال له :

– كن مع أمك.. وأبلغ الأهل وابدأ فى اتخاذ الإجراءات.. إلى

أن أعود إليك..

وخرج من البيت ليسير ساعتين على قدميه.. كما تفرض دقائق يومه.. ووجد نفسه عاجزا عن تركيز كل فكره فى تعداد خطواته.. وأحس بدموع تسقط من عينيه وتنساب على خديه.. ومسح الدموع فى عنف، إن الدموع تفسد قدرة خلايا وعضلات الجسد عن استجماع حيوتها برياضة السير.. وحاول فى إصرار أن يعيش كل هذه الدقائق فى ممارسة الرياضة كما تعود..

وعاد إلى البيت وهو يعلم أنه مضطر إلى أن يغير من تنظيم دقائق يومه.. فهو على الأقل سينشغل بإعداد جنازة زوجته وترحيلها إلى مثواها الأخير..

إن كل دقائق ما بقى من عمره أصبحت جديدة عليه بعد أن تركته زوجته وحده..

تاريخ حياة أحد اللصوص ..

الدنيـا كلها تشـيد وتقدر وتحـترم شـخصـية رجل الأعـمال الـكبيـر السـيد مـدبولى عـويس.. وتعتـبره أحد دعامـات الاقتصاد المصـرى.. وأحد زعمـاء بناء مسـتقـبل مصـر.. ويكفى أن يوضع اسمه على مشروع جديد من المشروعـات الضخمة حتى يطمئن كل الناس إلى أنه مـشـروع كتب لـه أن يتحـقق وأن ينجح مـا دامت تتولاه أصابع السيد مدبولى عويس..

ولا تتـردد بين الناس كلهم أى كلمـة تمس احـتـرام السيـد مدبولى.. بل أنه بلغ من حـرصه على ألا يسير بأعـماله إلا فى طريق نظيف.. ولا يعـتمد ولا يطالب إلا بالحـق.. إلى حد أنه لم يعد له أعـداء يمكن أن يعرضـوه لأى اتهام أو يشوهـوا مكانته الرائعـة.. كأنه نبى من الأنبـيـاء خصـه الله بمسئـولية الهـداية الاقتصادية لمصر ولا يجرؤ أحـد على مساسه ولو بكلمة تجرح نبوته..

حتى أولاده.. إنهم لا يرون فى أبيهم إلا هذه الصورة الرائعة لنبى يخدم مصر.. ويتباهون ويتفاخرون به وهم مقيدون باحترام كبير له إلى حد خشيته من أن يغضب يوما على واحد منهم.. بل إنه مرت الحياة بينهم وكل منهم يحاول أن يقلد والده حتى مع الفارق الكبير بينهم وبينه.. كل منهم يحاول منذ صغره أن يتكلم بنفس اللهجة التى يتكلم بها أبوه.. وكل منهم يدعى إلمامه بالمواضيع والبحوث والإجراءات التى تخصص فيها أبوه.. وكل منهم يسعى لأن يرتدى نفس الزى الذى يرتديه والده دون أن ينجرفوا إلى الأزياء الجديدة ويرتدى البلوجينز أو القمصان الأسبور.. بل يصر كل منهم على اختيار نفس الطعام الذى يفضله أبوه فكلهم يأكلون القلقاس لأن أباهم يفضل القلقاس.. وكلهم لا يأكلون أى صنف من أصناف المكرونة لأن أباهم لا يأكل إلا الأرز..

ولم يحاول أحد من الناس ولا من الأولاد أن يعرف كيف بدأ السيد مدبولى عويس حياته حتى وصل إلى هذه القمة وإلى كل هذا النجاح.. إن حاضره بلغ من القوة فى فرض نفسه إلى حد أن أغنى الناس عن البحث عن ماضيه.. وحتى ما ينشر أحيانا عن هذا الماضى لم يتجاوز أبدا رواية تاريخ جهاد طويل شريف نظيف..

إن تاريخ السيد مدبولى أصبح سرا يحتفظ به هو وحده..

وهو وحده الذى يعرف أنه بدأ حياته واستمر بها طويلا

كلص.. حرامى.. وبلغ من انطلاق مواهبه فى اللصوصية أنه لم يكتشف أبدا كلص.. بل يخيل إليه أنه كان يسرق لبن أمه وهى ترضعه.. فقد كانت أمه تعمل مرضعة لابن أحد الأغنياء، وكان يحس بطبيعته أنه يسرق لبن ابن هذا الغنى حتى لو كان يدفع ثمنه لأمه.. وكان عندما تراوده هذه الصورة يضحك من نفسه ساخرا..لماذا يتهم نفسه حتى بسرقه لبن أمه من ثديها.. من أدراه.. إنه مجرد خيال يدفعه إليه غروره واعتزازه بأنه كان لصا لم يضبط أبدا فى أى حادث سرقة.. ولكنه يذكر أنه منذ شب وتفتح وعيه أنه أقام كل حياته على السرقة.. كان يسرق وهو صغير كل ما يمكن أن ترفعه يده إلى فمه ليأكله فى أى بيت أو مكان يوجد فيه.. ثم أصبح يسرق كل ما تمتد له يداه حتى ولو لم يكن فى حاجة إليه.. كان يحس منذ البداية أنه أحق من أى إنسان فى أى شىء.. فلماذا يكون لابن أحد الجيران لعبة ولا تكون له.. بل إنه كان يسرق حتى أباه.. لماذا يتباهى أبوه بساعة يملكها رغم أنها ساعة قديمة وهو لا يتباهى بمثلها.. وتطور منذ دخل المدرسة الأولية فاعتمد على سرقة الكتب والكراريس والأقلام.. أنه من عائلة فقيرة لا تستطيع أن توفر له كل ما يحتاجه ليثبت شخصيته كتلميذ فى مدرسة.. وهو لم يتم دراسته الابتدائية.. لم تعد عائلته قادرة على الإنفاق عليه وألقت به بين عمال أحد مقاولى البناء.. وقد عرف بتفانيه فيما يعهد إليه من عمل.. ولكنه كان أيضا يسرق كل ما يمكن أن تصل إليه يداه.. ثم أصبح رئيسا للعمال فأصبح

يسرق العمال أنفسهم.. ورغم ذلك ارتقى إلى أن أصبح مقاول أنفار.. وأصبحت السرقة أسهل.. يكفى أن تتفق مع مقال البناء على خمسين قرشا لأجر العامل ولا تعطى العامل إلا أربعين قرشا.. وقد مكنته هذه السرقات من ادخار رأسمال صغير استطاع به أن يكون مقاولا لعمليات بناء كاملة ومشروعات ضخمة تقوم على حساب الدولة.. وهو يسرق.. ولم يحدث أبدا أن تعرض لأى حساب على ما يسرقه..

وهو منذ البداية كان قد توصل إلى وضع القاعدة التى يقوم عليها أى تخطيط للسرقة.. وهو تخطيط يقوم على مبدأ ألا تبدأ بسرقة الشيء بل يجب أن تبدأ بسرقة مالك هذا الشيء أو المسيطر عليه أو حارسه.. بمعنى أن تكسب هذا الحارس إلى جانبك.. وتربطه بنفسك إلى حد أن تضعه فى جيبك.. وبعد هذا يسهل عليك سرقة أى شيء.. وهو يذكر عندما كان فى طفولته أن كان يمر بالحارة عم مرسى وهو يجر عربة كبيرة تحمل عشرات من أنواع الحلوى التى يبيعها لأطفال الحى.. وقد تعمد كلما ظهر عم مرسى أن يقبل على عربته ويبدأ فى تنظيفها بقطعة قماش مبلولة كان قد سرقها من دكان عم شحاته البقال.. ويصل من حرصه على تنظيف العربة أن ينام تحتها وينظف باطنها.. ثم كان يضع نفسه فى خدمة عم مرسى ويلبى كل أوامره.. وقد أحبه عم مرسى، أصبح يعتمد عليه حتى أنه يسأل عنه إذا دخل الحارة دون أن يراه.. وكان أحيانا يعطيه فصا واحدا من الحلوى هدية له.. ولكن مدبولى لم يكن

يكتفى بهذه الهدية.. كان يريد دائما أن يأخذ من عربة عم مرسى أضعاف ما يأخذه أى طفل من أطفال الحى خصوصا الذين يستطيعون دفع الثمن الأكبر.. لذلك كان يسرق.. وسرقات كثيرة لم يكتشفها عم مرسى، ولكنه كان عندما يكتشف أى سرقة يتهم كل أولاد الحى ويجرى وراء كل واحد منهم.. ما عدا مدبولى، ومدبولى مطمئن فهو قبل أن يسرق الحلوى سرق عم مرسى نفسه واكتسب ثقته.. كأنه وضعه فى جيبه..

كما أنه منذ البداية عرف أنه لا يكفى الاعتماد على المسئول الكبير سواء كان وزيرا أو رئيس الدولة نفسه فى الوصول إلى مكاسب أو سرقة.. فإن المسئول الكبير محاصر دائما بكثير من العيون المدققة التى تسعى إلى فضحه والتخلص منه.. والاعتماد عليه وحده مستحيل فقد يخاف أو يتردد أو يدعى النزاهة والترفع فى حماية مصالح الدولة.. لذلك يجب أن يكون اعتمادك الأساسى على مجموعة الموظفين التى تمر عليهم أوراق المشروع حتى أصغر موظف.. وهو يعلم أن شركات كبيرة ومحترمة منزهة حاولت أن تعتمد على مسئولين كبار فى الوصول إلى أن تقع عليها مناقصة مشروع من المشروعات الضخمة فلم تقع عليها المناقصة.. وضاع منها المشروع فى حين أنه وقع فى براثن شركة أخرى سيئة السمعة لمجرد أن هذه الشركة لم تكتف بالاعتماد على كبار المسئولين بل كانت تعتمد أكثر على كل الموظفين الذين تمر أمامهم الأوراق حتى

أصغر موظف.. لذلك كان مدبولى حريصا قبل أن يقدم على تحمل مسئولية أى مشروع أن يطمئن على علاقته بصغار الموظفين وتوطيد هذه العلاقة مهما كلفته ميزانية هذا التوطيد.. إن الموظف لا يمكن أن يسمع الكلام ويتحرك لتحقيق مشروع يستفيد منه شخص آخر إلا بعد أن يقبض الثمن.. إن الموظف يعلم أن هذا المشروع سيحقق لهذا الشخص الآخر مكسبا يصل إلى الملايين.. فكيف يخرج منه هو بلا مليم واحد.. ولكن مدبولى كان أنصح من أن يدفع الرشاوى مباشرة.. واتبع فى سبيل ذلك كثير من التحايلات وخصوصا بعد أن اتسعت أعماله وفاض به الثراء.. فافتتح عدة دكاكين تبيع الأقمشة والثياب والأثاث والأطعمة دون أن تحمل اسمه، أو حتى يعرف أنه المسيطر عليها.. وكان كل موظف يساهم فى وصول أى مشروع إلى دنيا مدبولى يتمتع مباشرة بتخفيضات فى كل ما يشتريه من هذه الدكاكين كأنه يأخذ منها مجانا لوجه الله.. ومن يأخذ كمن يعطى يحتفظ بسر الآخر احتفاظا بسره.. وكان مدبولى أحيانا يدفع الرشوة عن طريق آخر، وهو أن يعين أبناء هؤلاء الموظفين فى مكاتبه أو يعهد إليهم بمسئوليات فى مشروعاته.. يدفع مرتبات ثابتة لهم وهو واثق أن مرتب أى ابن يصل إلى أبيه الذى سبق وساهم فى تمرير أوارق مشروع من مشروعاته.. وأحيانا كان يلجأ إلى طريق آخر من طريق الرشوة، وهو أن يعين الموظف نفسه مستشارا له أو لأحد مكاتبه على ألا يستقيل من عمله إنما فقط يعتبر مستشارا فى

أوقات فراغه.. لأن حاجة مدبولى إليه وهو فى وظيفته تستمر أكبر من حاجته إليه كمستشار.. بل إن مدبولى يعلم أن أعماله فى غنى عن كل هذه التعيينات سواء تعيين الأبناء أو الآباء.. ولكنه يدفعها كرشاوى.. وقد كانت رشاوى واسعة شملت مئات من الموظفين بل وعشرات من الصحفيين.. لأن الصحافة لها أيضا دور كبير فى تمرير الأوارق والتأثير فى المزايدات والوصول إلى تحقيق المشروعات.. وكل هذا أحاط مدبولى عويس بتعلق وحب مجموعة كبيرة حتى أصبح كأنه أحد زعماء الشعب.. والمسئولون الكبار كرؤساء الدولة المتعاقبين أو الوزراء يحتفظون له بهذه الزعامة ويؤيدونها لأنهم هم أيضا مرتشون.. ولكن رشوة المسئول الكبير تختلف عن رشوة المسئول الصغير.. فالمسئول الكبير يصر أن يكون نصيبه من النقد الأجنبى ويتسلمه فى أحد البنوك الخارجية.. حتى لا يعرض نفسه لاكتشاف الرشوة وإثارة الفضيحة.. واستطاع مدبولى أن يوزع مثل هذه الرشاوى ببساطة.. لقد كان يتفق مع الشركة الخارجية التى يستورد منها مطالب المشروع على أن ترفع قيمة المبالغ المتفق عليها لتغطية قيمة الرشوة التى يدفعها للمسئول الكبير.. على أن توضع هذه الزيادة باسم المسئول فى أحد البنوك الأجنبية وبرقم سرى.. والشركات الأجنبية تتطوع لأداء المهمة فى بساطة ما دامت تضمن تحقيق أرباحها.. ومدبولى نفسه لا يحس بأنه يدفع شيئا من جيبه ما دامت كل هذه الرشاوى تسجل فى الميزانية الرسمية التى

يقدمــها للحكومة وتقــبلها وتقوم بتــغطية قيــمتهــا.. إن حكومة مصـر تسرق نفسـها..

ومدبــولى مســتمر فــى اكتســاب أى مشــروع يطمع فــيه.. وتحــقــيق مكاسب ضــخمــة.. حــتى أصــبح بين يديه مــلايين الملايين.. وهو يسرق ومواهبه كسارق تعطيه القدرة على حماية نفســه من أى سارق.. لن يستطيع أى واحد تعــامل مع مدبولى أن يسرق قرشــا واحدا من ميزانية أى مــشروع.. وإن كان هو نفســه يترك بعض الرشاوى تبــدو لو اكتشــفت كأنها ســرقات حتى يحمى نفسه من تهمة توزيع الرشاوى..

إلى أن بدأت تمر بمدبولى مرحلة يحس فيــها كأنه أصبح فى حــالة شبــع.. حالة انتــفــاخ وتضــخم بما جمــعــه من ثروات.. واشتدت به هذه الحالة إلى أن أصبح لا يحاول أن يستولى على أى مشروع يعــرض عليه من المشروعات التى تعود الاســتيلاء والســيطرة عليهــا.. ويترك هذه المشــروعات لغــيره من رجــال الأعمال وهو يحس كأنه يجود عليهم بها لأنه أقوى منهم، وكان يستطيع أن يخص بها نفسه.. أنه كريم.. شفوق.. رؤوف.. وقد بدأ يحس بمتــعة إحــســاســه بالكرم والشفــقة والرأفــة.. متــعة إحساس القوى بأنه يرحم الضعــفاء من فرض قوته عليهم.. ثم بدأ يتطور إلى أكثــر من ذلك فلم يعد يتعــمد السرقــة والتلاعب بالميزانيات الخاصــة بالمشروعات التى يتحمل مســئولياتها.. أنه يدقق فى تفاصيل إقامة أى بناء بحيث لا ينقصه كيلو واحد من الأســمنت أو طوبة واحدة من الــزلط أو مســمار واحــد فى أى

ماكينة.. وقـد كلفه ذلك متاعب أكثر فى الإشـراف على أعماله.. ولكنه بدأ يحس بالزهو كـقائد مصـرى تغلبه وطنيـته على كل مطمع شـخـصى.. أنه زعيم شـريف.. وفى الوقت نـفسـه بدأ يضـغط يديه فى توزيـع الرشـاوى.. أنه أغلق الدكـاكـين التى أقامها لرشوة الموظفين أو جعلها تبيع بنفس الثمن لكل الناس.. سواء من كـان منهم قد سـاهم فى تمرير أوراق مشـروعاته أو من كان بعيدا عن هذه المشـروعات.. بل إنه بدأ يدقق فى تعيين أى إنسـان فى إحـدى شركـاته كـرشوة له أو لأبـيه.. أصـبح يشتـرط أن تكون أعمال الشـركة فى حاجـة إلى هذا الإنسـان.. وأن يكون هذا الإنسـان يحمل شـهادات تثبت قـدرته على أداء العمل.. أنه زعـيم نظيف لا يدين إلا بمبادىء الحق.. ولكن.. لأنه يعيش واقع رجال الأعمال فـقد كان حتى بعد أن تطور إلى هذه الحالة يؤمن بمبدأ العمـولة.. أى دفع أتعاب لكل من يساهم بأى المجهود فى أى عمل.. حتى لو قـام بهذا المجهود سرا وبأسلوب غيـر مباشر.. أى بمجـرد الواسطة، ولكننا فى مصر لا نعـترف بعمل الوسـيط الذى يقوم بالواسطة.. ولا بعـمل السمـسار فى مجال المشـروعات الرسمية.. وهذا خطأ عالمى تفـرضه ادعاءات بعض النظم الاشـتراكـية.. ومـدبولى لا يحاول اسـتغـلال هذا الخطأ وظل مـقتنعا كـرجل أعمـال يدفع « العمولـة » لمن يخدم مشـروعاته حـتى لو اعتـبرت هذه « العمـولة » رسمـيا كـأنها رشوة..

ولا شك أن هذه المرحلة بدأت تـؤثر فى شـعبـيـة مـدبولى

عـويس.. وبدأ بعض من فـقـدوا كـرمـه فى توزيع الرشـاوى يتهمونه بأنه فقد سيطرته عـلى الحكومات.. أو يتهمونه بضياع مشـروعاتـه.. أو يتهـمونه بأنه قـد ركبـتـه نوبة من البـخل أو الجشع فى الاحـتـفـاظ لنفسـه بكل أرباحه.. ولم يهـتـم مدبولى نفسـه بكل ما يقـال أو بابتعـاد بعض من كان له فضل عـليهم وانضمامه إلى من يعتبـرون منافسين له منافسة تصل إلى حد إعـلان العـداء.. لم يهـتم مـدبولى لأنه هو نفسـه يعلم مـدى احتـفـاظه بكل قوته وبمدى ضخـامة ما يحـتفظ به من ثروات.. ولكنه بدأ يفكر ويخطط لـمشروع جديد كـان قد تجـاهله طوال عمـره.. وهو مشروع يفرض عليـه أن يتزوج.. إنه إلى الآن لم يتزوج رغم أنه وصـل إلى الخامسـة والأربعين من عـمره.. لم يكن يخطر على باله أبدا أن يتـزوج.. بل أنه لم يكن فى حـياته أى امرأة.. ولا حتى امـرأة عابرة مما تعود الرجال أن يبـصقوا فى داخلهن ما يـثير فـيهم طبيـعتهم كـذكور من التـفريج عن بصـقاتهم فى وعـاء نسوى.. لقـد كانت كل عناصـر البشـرية متـجـمـعة داخل زوايا عقله الذى يعـد به بناء مسـتقـبله كرجل أعمال.. لذلك لم يشـعر أبدا بحاجتـه إلى امرأة، ولا حتى ثارت فى جسـده أى رغبـة فى التفريج عن ذكـورته.. وهو الآن يريد امرأة لا ليفـرج بها عن نقص بدأ يحس به فى إمتـاع رجولته.. ولكنه يريدها زوجة لتلد له أولادا يحملون اسمه.. لمن تذهب كل الملايين مـن الأمـوال إن لم يكن لـه أولاد يرثونهـا عنه.. وأين يذهب اسمه وتسـتمر مشروعـاته وهى تحمل هذا الاسم إن لم

يكن له أولاد يستمرون باسمه بعده..

وبذكائه الذى حقق له النجاح فى كل خطواته نجح أيضا فى اختيار الزوجة التى تشاركه هى هذا النجاح وكل هذا الثراء.. وإن كان منذ اليوم الأول لم يعتبر أنها تشاركه فى أى شىء.. إنها مجرد مشروع جديد لإنجاب أولاد يحملون اسمه، ويستمرون بالحياة لمجده من بعده..

وقد أحس عندما كان أول ما أنجبته زوجته بنتا وليس ولدا كأن المشروع بدأ بإقامة الأعمدة الجانبية قبل أن يبدأ بإقامة الأعمدة الرئيسية.. وكأن المالك بدأ بإقامة « الجراج » الذى يضع فيه سيارته قبل أن يبدأ بإقامة دور السكن التى يعيش فيها.. والبنات « جراجات » يملكها الأب ولكنه لا يقيم فيها ولا تحمل اسمه إلى الأبد فمصيرهن حمل أسماء أزواجهن والانتساب إلى هؤلاء الغرباء.. ورغم ذلك فهو يحمد الله وبدأت تنتابه نوبة التوسل إليه بالتمادى فى أداء الصلاة كأنه يرسل إليه مقدما « العمولة » على استجابته له وتحقيق مشروع إنجاب أبناء من الأولاد.. وكأن الله يستجيب لدعواته فعلا رغم كل ماضيه الملوث بالسرقات، فقد أنجبت له زوجته بعد البنت ولدا فرح به فرحة كبيرة.. كأنه كسب مناقصة فى مشروع كبير عاش يتمناه ويسعى إليه.. وأسماه محمدا.. على اسم النبى ﷺ.. أقام فى الدنيا مشروع إنجاب محمد مدبولى عويس ليستمر من بعده فى أداء رسالة خدمة عباد الله بتوفير ما تطلبه الحياة من مشروعات.. ثم أنجبت له زوجته ابنا آخر.. عبد الله

مدبولي عويس.. وأسماه عبد الله لأنه أصبح مؤمنا بأنه هو نفسه عبداً لله.. فالله هو الذى أعطاه كل هذا النجاح والثراء الذى حققه.. لم يعد مغرورا إلى حد أن ينسب كل هذا النجاح والثراء إلى ذكائه وشطارته ولكنه ينسبه إلى فضل الله عليه.. حتى ذكاءه وشطارته.. لم يكونا إلا من فضل الله..

وبدأ يعيش كل أيام عمره وهو يخطط لمستقبل ولديه محمد وعبد الله.. ويحاول أن يكتشف مدى ذكاءه كل منهما وطبيعة شخصيته حتى يقسم بينهما مسئولية حمل وتحقيق استمرار نجاح ما سيتركه لهما.. وكان خلال استعراض ما يملكه يرى صورا للسرقات التى كان يرتكبها.. والاختلاسات.. والرشاوى.. والتزييفات.. وينقبض صدره كأنه يخشى على ولديه من أن يصيبهما رزاز من هذه الآثام.. وقد يضطر أحدهما إلى أن يرتكب مثل هذه الجرائم حتى يحقق نجاحه.. ولكن لا.. مستحيل.. فهو كان يضطر إلى السرقة لأنه بدأ فقيرا.. كان فقره يدفعه إلى التحايل فى خداع المتعاملين معه حتى يغتنى.. ولكن ولديه محمدا وعبد الله ولدا أغنياء.. وليسا فى حاجة إلى الخداع أو السرقة حتى يأخذا.. فهما يملكان ما يكفى ثمنا لأخذ أى شىء.. أنهما سيكونان صورة مشرفة لطهارة أبناء مصر.. صورة تؤكد أن القوة يمكن أن تكون قوة نظيفة.. وأن المجد يمكن أن يكون مجدا طاهرا..

وبدأ فى مراقبة ولديه فصدمه.. أنهما فى عراك مستمر كل منهما يحاول أن يأخذ من الآخر.. حتى قيل إليه أن الأخ الأكبر

يحاول سرقة نصيب أخيه الأصغر وهو يرضع من لبن أمه... كما كان هو يتعمد سرقة لبن أمه عندما تأخذه معها لإرضاع ابن الرجل الغنى.. وكان يصرخ ويبكى ويقيم ضجيجا مقلقا كلما استحال عليه الوصول إلى ثدى أمه... هكذا كانت تقول له أمه بعد أن شب فى عمره.. إن كلا من ولديه مثله لا يطيق أى منهما أن يأخذ أحد شيئا أكثر منه..

ثم بدأت تصدمه حوادث غريبة بعد أن شب الولدان وأصبحا فى سن الصبا.. من بينها أنه كان يحتفظ بساعة مذهبة أنيقة ثمينة يعلقها فى جيب سترته عندما يخرج ويضعها على مكتبه قبل أن ينام.. وفجأة اختفت هذه الساعة.. وأجرى تحقيقا مع كل العاملين فى البيت، ولكنه لم يستطع أن يصل إلى شىء.. بل أنه شك فى أمانة أحدهم واكتفى بأن طرده من العمل دون أن يبلغ البوليس، فقد كان يرى أن ليس من الاحترام أن يعرض سمعة بيته إلى مثل هذه الأحداث وإلى حد تدخل البوليس.. إلى أن دخل يوما إلى غرفة ولديه فوجد الابن الأكبر محمد جالسا وبين يديه الساعة الأنيقة الثمينة.. وصرخ بأعلى صوته :

– أنت الذى سرقت الساعة..

ولم يهتز ابنه محمد وقال وهو يفتعل ابتسامة الابن المدلل :

– إنى لم أسرقها.. إنها ساعة أبى.. وقد كانت هذه الساعة فى البيت ولا تزال فى البيت..

وأعجب مدبولى بإجابة ابنه محمد التى يصد بها اتهامه.. إنه مثله يمتاز بعبقرية النائى بنفسه عن أى اتهام.. ورغم النقاش

الحـادث الذى استـمر بينه وبيـن ابنه إلا أنه لم يفرض عليـه أى عقاب وإنما اكتفى بأن صب عليه مـجموعة من النصائح ثم أخذ الساعـة الثمـينة منه.. وبعد أيام نـاداه وأعادها إليه قـائلا وهو يضمه إليه بابتسامته :

- خذها ما دمت تريدها.. وكما قلت.. إنها فى البيت..

ورفض الابن أن يأخذ الساعـة كأنه لا يحس بقيمـتها إلا إذا سرقها..

وحادث آخر.. فـقد كان مدبولى يحتفظ بعـدد من الجنيهات قد تصل إلى الألف فى درج مكتبه كمـصروف عاجل قد يحتاج إليه.. وفى يوم اكـتشف اختـفاء ثلاثمائة جنـيه من المبلغ الذى يحتفظ به.. ولم يستمـر شكه فى العاملين بالبيت طويلا واتجه إلى غـرفة ولديه، وأخـذ يفتش فى الأدراج وفى جـيوب البـدل المعلقة إلى أن وجد المبلغ كاملا فى جيب من جيوب بنطلون ابنه عبد الله.. وصرخ فيه :

- لقد عودتك أنت وأخاك أن ألبى لكمـا كل ما تطلبانه.. وقد كنت تستطيع أن تطلب فأعطيك.. وقـال عبد الله فى تمايل الابن المدلل :

- لم أكن أريد أن أزعجك بأن أطلب..

وصرخ الأب :

- فأزعجتنى بالسرقة..

قال عبد الله كأنه يلوم أباه :

- أنا لم أسرق.. لقد أخذت حقا عودتنى على أخذه..

وأعجب مدبولى بدفاع ابنه عن نفسه.. إنه هو الآخر ورث عنه عبقرية النائى بنفسه أى اتهام.. ولكنه لايريد الاعتراف بهذا الإعجاب فرفع الجنيهات فى يده وقذف بها فى وجه ابنه عبد الله وهو يصيح :

- إن الحق يجب أن يعترف به أولا من يعطيه..

وكما فعل أخوه جمع عبد الله الجنيهات وأعادها إلى أبيه.. لقد فقدت هذه الجنيهات طعم السرقة وهو لا يريدها إلا مسروقة..

وكان مدبولى قد قرر بينه وبين نفسه ألا يشترى سيارة لكل من ولديه إلا بعد أن يدخل كل منهما للدراسة فى الجامعة.. أما وهما لا يزالان فى المدرسة الثانوية فيكفيهما الاعتماد على سيارات العائلة.. ولكنه فوجىء بابنه محمد وقد امتلك سيارة لم يشترها له وهو لا يزال طالبا فى المدرسة الثانوية.. وإن كانت السيارة قديمة ليست من قيمة ابن مدبولى عويس.. وسأل ابنه :

- من أين حصلت على هذه السيارة..

قال الابن فى منتهى السعادة كأنه يتباهى بنفسه :

- اشتريتها من زميل لى فى المدرسة اسمه شريف.. وقد كان فى حالة صعبة لأنه كان يلعب القمار وخرج مدينا بمائة جنيه.. ولم يكن يملك شيئا، وخاف من أن يضرب علقة من الذين كسبوه.. فأعطيته المائة جنيه على أن أشترى منه سيارته نظير خمسمائة جنيه أدفعها له بالتقسيط..

قال الأب فى حسرة :

- لقد استغللت ضعفه.. وكان يجب أن تعطيه المائة جنيه باسم الصداقة إلى أن يردها لك..

- قال الابن مزهوا :

- لقد سبقت غيرى فى استغلاله.. وما هى الحياة.. إنها استغلال كل قادر لكل ضعيف من غير القادرين.. إنها كمباريات كرة القدم.. القادر يحصل على الجول من غير القادر.. وقد كسبت الجول بهذه السيارة..

- قال الأب فى حسرة على ابنه :

- ومن أين حصلت على المائة جنيه ؟

قال الابن فى بساطة :

- منك.. لقد أعطيتنى مائة جنيه لأشترى كتب المدرسة.. فاشتريت بها السيارة وأريد الآن مائة أخرى للكتب..

وفى استسلام أعطاه مايريد..

ولم يكن الولدان من هواة الدراسة.. لم يقتنعا أبدا بأنهما يدرسان شيئا هما فى حاجة إليه.. ورغم ذلك حصلا على الشهادة الثانوية بمشقة وبعد سنوات طويلة تكرر فيها رسوبهما فى الامتحان.. وكانت كل أمنية أبيهما أن يلتحقا بكلية الهندسة حتى يتزودا بالعلم الذى يعينهما على إدارة شركاته.. وقد اضطر إلى السعى لدى المسئولين حتى يعفوهما من شرط مجموع الدرجات.. فكلاهما لم يصل إلى توفير المجموع الذى يؤهلهما للالتحاق بكلية الهندسة.. ولم يكن مدبولى يحس بأنه

يرتكب إثما بالسعى لولديه... ولا أنه يستغل نفوذه فى الاعتداء على الحق.. ولكنه غير مؤمن بهذا الشرط الذى تفرضه الحكومات للالتحاق بالكليات الجامعية.. إن الطالب قد لا يحصل على المجموع المطلوب، ولكنه يعتبر عبقريا فى المادة التى تتخصص كل كلية فى دراستها... وهو نفسه لم يلتحق بكلية الهندسة ولا حتى بدأ الدراسة الثانوية ولكن لا شك أن عبقريته قد أثبتت أنه أقدر وأوسع علما فى إدارة وتحقيق كل هذه المشروعات... وقد استطاع فعلا إلحاق ولديه بكلية الهندسة ولكنهما لم يبديا تعلقا بالدراسة فى هذه الكلية.. إنهما يريدان أن يضعهما أبوهما ليمارسا العمل معه.. كأنهما يريدان أن ينطلق العلم من قدرتهما على استنباط فن الحياة نفسها.. إن الخلفاء الراشدين لم يدخلا مدارس إنما استطاعوا استيعاب العلم من ممارسة الحياة.. وقد بدأ أبوهما « مدبولى » فى تشغيلهما فعلا داخل شركاته.. وبدأ يقتنع بأنهما مثله يصلان إلى عبقرية العلم عن طريق الممارسة لا عن طريق الدراسة وخصوصا الدراسات السطحية التى تعم كليات الجامعة الحكومية.. وبعد فترة اكتشف أنهما أخذا مشروعات لحسابهما خارج الشركة.. وإن كان مشروعا لا يتجاوز مد طريق قصير لا يتجاوز طوله وعرضه عدة أمتار.. وسألهما عن قيمة ما حققاه من أرباح فى هذا المشروع فقال عبد الله إنهما خرجا بربح صاف قيمته ثلاثمائة جنيه.. فقال ساخرا :

– لو كان المشروع قد تم عن طريق الشركة لوصلت أرباحه

إلى ثلاثة آلاف..

قال ابنه محمد فى ثقة تنبض بذكائه :

– إننا فى البداية وأردنا أن نطمئن الزبون حتى نكتسب مزيدا من الزبائن.. وفهم مدبولى أنهما تعمدا ألا يسرقا أو يتلاعبا فى المشروع.. إنه هو نفسه لم يحاول أن يسرق عندما كان فى البداية.. بل كان يتعمد الحد من مطامعه فى تحقيق أرباح خاصة حتى يتمكن من جذب الزبائن من رجال الأعمال الذين سبقوه.. وتمنى لولديه أن يظلا محتفظين بالمبادىء الشريفة التى تفرضها البداية حتى يصلا إلى نهاية القمة..

وقد استطاع ولداه محمد وعبد الله أن يكتسبا فعلا ثقة وتهافت المسئولين عن تحقيق المشروعات.. خصوصا المشروعات الحكومية.. ولكنهما عدلا عن أن يستقلا بنفسيهما.. أصبحت أعمالهما قائمة على اسم شركات أبيهما.. إنه اسم لا يزال قويا... اسم مدبولى عويس.. وقد ترك لهما كل حرية التصرف فى إدارة الشركات، ولكنه كان يراجع أحيانا أرقام الميزانية التى يضعونها لكل مشروع.. وقد يذهب بنفسه إلى موقع العمل ليتأكد بنفسه من استكمال كل المتطلبات.. واكتشف أن ولديه أصبحا من كبار اللصوص... كل الأرقام وكل المواد مغشوشة وكلها تفتح مجالات الغش الذى يحقق السرقات.. وقد حاول أن يدخل مع ولديه فى مناقشات ليهديهما إلى الأمانة فى القيام بالعمل.. إن أموال الحكومة التى يسرقانها هى أموال الشعب... إنهما يسرقان دافعى الضرائب التى تجمعها

الحكومة.. يسرقان الفقراء.. ولكن هذه المناقشات لم تكن تنتهى إلى شىء.. كانا يتقبلانها كأنها تخريف رجل عجوز فقد القدرة على مواجهة واقع تحقيق المشروعات الحكومية..

واستسلم مدبولى إلى الاعتراف بأنه أنجب لصين رغم أنه أحاطهما بثراء يغنيهما عن السرقة.. إن اللص لا يسرق دائما بدافع الحاجة إلى السرقة.. اللصوصية ليست مقصورة على سرقة الجائع لرغيف العيش.. ولكنه قد يسرق لأن من طبيعته السرقة حتى لو لم يكن فى حاجة إلى ما يسرقه.. ربما ورث ولداه الطبيعة عنه.. فهو قد كان أيضا لصا.. ولكن لا.. إن طبيعة السرقة لا تتكون بالإرث ولكن تنطلق من طبيعة المجتمع نفسه.. هناك مجتمعات تقوم على التعامل بالسرقة بين أفرادها.. كل من أفراد هذا المجتمع لص.. مع الفارق الطبيعى بين اللصوص.. هناك من يتعود على سرقة القروش، وهناك من لا يسرق إلا الجنيهات.. والمجتمع المصرى هو واحد من هذه المجتمعات.. مجتمع يقوم تكوينه وتفكيره على الاعتراف بالسرقة.. وكثير من قادة هذا المجتمع بدأوا كلصوص، ولا يزالون لصوصا رغم أن ما سبق أن سرقوه كان يكفى لإعلان توبتهم..

وترك مدبولى حرية السرقة لولديه.. كما بدأها هو فى شبابه ووصل بها إلى قمة الثراء.. وبدأت تخطر على باله تخطيطات جديدة يمكن أن يصل بها إلى رضاء الله ويستغفره بها عما ارتكبه من آثام.. وولداه ليس فى حاجة إلى رؤوس

الأموال الضخمة التى جمعها وتركها تحت إدارتهما.. إنهما يستطيعان تعويض أى مبلغ يضيع منهما.. ولذلك قرر تخصيص مبلغ كبير من رأسمال شركاتة لإقامة جامع.. واعترض ولداه بحدة، ولكنه صمم فهو لا يزال صاحب الحق فى التصرف برأس المال.. واشترى قطعة أرض غالية جدا.. وبدأ يقيم بها جامعا رائعا جدا وضخما جدا، وألحق به مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم وأضاف إليه صيدلية تبيع الأدوية للأهالى بسعر مخفض أقل من التكاليف.. وكان هو بنفسه الذى تولى تحقيق هذا المشروع.. وكان يتحامل على نفسه ويمد سلطاته إلى كل التفاصيل.. أنه لا يريد أن يترك قرشا واحدا يصرف فى الحرام.. ولا يريد ذرة واحدة مغشوشة.. إنه مشروع يحاول أن يصل به إلى الله.. والله لا يقبل منه الحرام..

واكتمل بناء الجامع الرائع.. ومدبولى يكاد يقضى فى جنباته طوال يومه يصلى مستغفرا ربه.. ورغم أن المشروع عرف واشتهر وترددت كلمات الإشادة بفضل مدبولى عويس.. إلا أن المصلين لم يصلوا إلى حد الزحام الذى تشهده مجموعة البوتيكات ومجمعات البقالة التى افتتحها ولداه برأس مال الشركة.. إن الناس تمر على الجامع كأنه شاهد على العز والثراء الذى يملكه مدبولى.. وينبهرون بروعته، ولكنهم فى الوقت نفسه يطقون بالغيظ والحقد على مدبولى الذى يملك كل هذا الثراء.. ولكنهم يمرون بالبوتيكات والمجمعات، فيدخلون ويشترون حتى يتباهوا بأنهم يستطيعون الشراء مهما ارتفع الثمن..

ضياع وحيرة مدبولى فى محاولات التقرب إلى الله دفعته إلى أداء فريضة الحج.. إنه يحاول أن يدفع كل ما نص عليه الله من ثمن حتى يرحمه ويعفيه من الإلقاء به فى نار جهنم الآخرة.. وكان يفيض بتبرعاته وهو يؤدى الفريضة.. ثم عاد الحاج مدبولى إلى مصر وفى رأسه مشروع جديد يتقرب به أكثر إلى الله.. مشروع إقامة مستشفى ضخم فى القاهرة يستقبل المرضى مجانا.. ويزوده بأرقى وأحدث المعدات.. ويعالج فيه المرضى مجانا إلى أن يتم لهم الشفاء.. إنه مشروع يتطلب الملايين من الجنيهات.. وربما استنزف كل ما فى شركات الحاج مدبولى من عملات أجنبية.. ولكن ماذا يهم.. من الأجدى عليه أن يترك هذه الملايين فى خدمة الله.. وولداه قادران على جمع ما يطمعان فيه..

وكان الحاج مدبولى قد قرر أن يتولى إقامة مشروع المستشفى بنفسه.. كما سبق أن أقام المسجد.. ولكن محمد وعبد الله تظاهرا بفرحتهما واقتناعهما بهذا المشروع وطلبا من أبيهما أن يعتمد عليهما ويتركهما مسئولين عن التنفيذ.. وأن الشركة هى التى تتولى التنفيذ وهما الآن اللذان يتوليان إدارة الشركة.. ومن حقهما إدارة حتى المشروعات الخيرية.. ووافق الحاج مدبولى حبا فى ولديه، وكأنه يحاول تأكيد الثقة بهما.. ولكنه اشترط أن يراجع أوراق المشروع وقوائم الميزانيات.. وعندما بدأ يراجع ابتسم بينه وبين نفسه فى حسرة.. إنهما يسرقان.. وهما يسرقان حتى نفسيهما.. فلم يقدرا أن رأس مال المشروع هو

رأس مال الشركة التى يرثانها عنه.. فيسرقان منه أيضا..

ومات الحاج مدبولى قبل أن يتم إقامة مشروع المستشفى الشعبى الخيرى..

وبسرعة انقلب ما كان قد تم بناؤه للمستشفى إلى عمارة سكنية هائلة رائعة.. والعمارات لا يمكن أن تقام كمشروعات خيرية..

وعندما سئل محمد مدبولى عويس عن سبب عدوله عن إتمام مشروع المستشفى الذى كان أبوه ينوى إقامته..

أجاب فى لهجة ساخرة :

- إن الناس فى حاجة إلى عمارات سكنية أكثر من حاجتهم إلى مستشفى.. ولكن أبى كان قد أصبح عجوزا وكل فكره محصور فى أوهام لا علاقة لها بالواقع الذى يعيشه الناس..

ابنتـــى لا زوجـــتـــى..

لقد بدأ ممدوح رجب وهو لا يستجيب إلا لما يمليه عليه عقله.. وعقله محصور فى بناء شخصيته وتحقيق المستقبل الذى يحلم به.. وهو رجل يعتبر وسيما جذابا لأى امرأة.. ويختص بقدرة هائلة على اختيار الموضوع الذى يتكلم فيه بحيث يقنع كل من يستمع إليه.. ربما كان يستطيع أن يقنع أى امرأة بأى شىء يريده منها.. ولكنه لم يكن يعيش وسامته أو يحس بها ويحاول أن يستغلها.. ولم يحاول أن يبذل مجهودا ليقنع أى امرأة بأى شىء.. لم يكن من طبيعته أن يسعى إلى امرأة.. كان عقله يرسم له ويحدد مسعاه إلى شىء واحد وهو بناء الشخصيه التى يريدها.. وهو يريد شخصية ناجحة قوية ثرية لها قيمة ولها نفوذ فى أى مجال تعيش فيه..

وكان قد أقام أسس هذه الشخصية عندما بدأ يفكر فى

الزواج.. وهو يتزوج لأنه أحس بحاجته إلى الزواج ليستكمل بناء هذه الشخصية.. وقد بدأ البحث عن زوجة بالوسيلة العادية التى تحكم العقل وحده.. لم تكن له قصة حب تدفعه إلى الزواج.. ولم تبهره امرأة إلى حد أن يتمنى زواجها.. إنما بدأ يختبر من يرشحها له الأقارب والأصدقاء... وهو لا يريدها من عائلة أكبر ولا أقوى من عائلته ولا يريدها أن يحيط بها ثراء يفوق ثراءه.. إنه يريدها فى نفس مستواه.. حتى يسهل التفاهم بينه وبينها فى الاستمرار بالحياة.. هكذا يقنعه عقله.. وقد اقتنع أخيرا بالزواج من أمينة..

وقد عاش حياة زوجية وكل ما فيها سليم.. وليس فيها ما يمكن أن يغتصب منه أيامه.. أو يأخذ فكره بعيدا عن استكمال بناء شخصيته.. وقد أصبحت شخصيته فى منتهى القوة ومنتهى الثراء.. شخصية الرئيس والمتحكم فى أى مسئولية يتولاها.. وأيامه مع زوجته كلها أيام هادئة تكاد تكون صامتة.. كل يوم له برنامج لا يتغير.. يجلس معها على مائدة الإفطار فى الساعة السابعة صباحا.. وعلى الغداء فى الساعة الثالثة بعد الظهر.. وعلى العشاء فى الساعة العاشرة.. وحتى الفراش أصبح يجمعهما فى روتين منظم.. كل مساء يوم الاثنين والخميس يحتضنها ويقضيا ساعة وكل منهما يشبع متعته مع الآخر.. يشبعان فى احترام لنفسه.. شبع مهذب..

وقد أنجبت بنتين.. سلوى ونيفين.. وكان عقله قد أوصاه بألا ينجب أكثر من اثنين.. ولكنه بعد خمس سنوات لم يستطع

أن يقاوم أمله فى أن ينجب ولدا.. ولم يحاول إقناع زوجته أمينة فهى مقتنعة منذ البداية وكانت تريد أن تستمر فى الإنجاب حتى يرزقها الله بولد.. وحملت.. ولكنها أنجبت بنتا ثالثة.. كريمة.. وقد استقبلها فى مرارة خيبة الأمل.. إنه ليس فى حاجة إلى بنت ثالثة.. وقد تعود ألا يعيش إلا ما يختاره وما هو فى حاجة إليه.. ولكن لم تمر شهور إلا ووجد نفسه متعلقا بكريمة ربما أكثر من تعلقه بسلوى ونيفين.. إنها الأقرب شبها إليه.. عيناها عيناه.. وشفتاها شفتاه.. وأنفها أنفه.. وربما بدأ ذكاؤها يبرق وهى لا تزال ترضع.. فقد أخذت عنه أيضا ذكاءه.. وقد أخذ تعلقه بابنته الصغرى يطغى على كل حياته العائلية حتى أصبحت أختاها تغاران من تعلقه بها..

وكانت قد مرت خمسة عشر عاما على زواجه عندما بدأ يحس بالزهق من كل ما فى هذه الحياة التى رسم وفرض كل ساعة فيها.. إن حياته تسير كدقات الساعة.. إنها ساعة مضبوطة بدقة، ودقاتها أصبحت تتوالى فى روتين ممل.. حتى تعلقه بابنته الصغرى كريمة أصبح كدقات الساعة المضبوطة..تدق بقبلاتها فى ساعة معينة.. وتدق بمحاورتها وملاعبتها فى ساعة معينة.. وحتى نجاحه فى عمله.. أصبح واقعا مستمرا على أسلوب محدد كدقات الساعة.. من يستطيع أن يعيش عمره كله كدقات الساعة.. ووجد نفسه يحاول أن يدخل فى حياته لحظات يستريح خلالها من دقات الساعة..

وبدأ يحاول أن يعود نفسه على الجلوس فى المقاهى

والنوادى.. إنه طوال عمره لم يكن يحاول أن يقضى ولو دقيقة فى مقهى أو فى ناد لمجرد قضاء الوقت بين مجموعة من الناس يعزفون الأحاديث المتبادلة كموسيقى تافهة تشغل خواطرهم.. بل إنه كان يحتقر كل النوادى ويحتقر المترددين عليها.. إنهم كلهم مخلوقات فارغة.. ولكنه قاوم نفسه وبدأ يتردد على مقاهى نادى السيارات.. ونادى محمد على.. ثم انتقل إلى نادى الجزيرة.. ولكنه لم يستطع أن يستمر.. إن جلسته فارغة تثير فيه الإحساس أكثر بالفراغ وبالزهق.. بل إنه لم يجد بين زبائن هذه المقاهى والنوادى إلا عواجيز أحيلوا، أو أحالوا أنفسهم على المعاش.. أو أبناء ورثوا آباءهم وأصبحوا يعيشون على الإرث دون أن يعملوا لأى بناء جديد.. إن كل هذه المقاهى والنوادى هى بؤر الفراغ.. وهو لا يستطيع أن يعيش ولو دقائق فى فراغ..

وحاول أن يجرب أن يشغل نفسه بإحدى الألعاب الرياضية.. إنه لم يحاول أبدا أن يلعب أى لعبة.. إنه لا يمكن أن يضيع دقيقة من عمره فى اللعب.. وحتى الألعاب السهلة كالسيرعلى القدمين ربما كان لا يحتاج إليها إلا العواجيز وهو ليس عجوزا.. إنه لا يزال فى زهوة رجولته وقوته..

وحاول أن يشغل نفسه بهواية لعب الطاولة.. أو الكوتشينة.. إن كثيرا ممن يعرفهم يلعبون مثل هذه الألعاب.. ومن السهل عليه أن يكتشف أسرار كل لعبة.. بل ويصل إلى أن يجيد اللعب فيها.. ولكنه لم يحتمل ضجيج الطاولة.. ولم يحتمل الصبر

الطويل الذى يفرضه الشطرنج.. وقد احتمل الكوتشينة أياما ووصل إلى حد أن بدأ يجازف بلعب القمار.. ولكن الكوتشينة مهما تطلبت من ذكاء فهى تعتمد أساسا على الحظ.. وهو قد عاش مؤمنا بذكائه ولا يفكر فى الحظ.. لذلك لم يحتمل أيضا لعب الكوتشينة..

وكان وهو يحاول التخلص من زهقه حريصا كل الحرص على ألا يمس أى دقيقة من الدقائق التى تشمل النظام الروتينى الذى وضعه لحياته فى عمله وحياته العائلية.. إنه كالعادة يتناول إفطاره مع زوجته وبناته فى السابعة صباحا. ويخرج إلى مكتبه ليتفرغ إلى عمله، ويعود إلى تناول الغداء فى الساعة الثالثة.. وكان يعود إلى مكتبه فى الخامسة مساء ليعود إلى زوجته فى التاسعة، إما لتناول العشاء معها فى العاشرة أو ليصحبها إلى دعوة أو إلى قضاء سهرة فى الخارج.. كل ما حدث له من تغيير هو أنه أصبح بعد أن يكون فى مكتبه سواء فى الصباح أو المساء ألا يبقى فيه طويلا ويخرج منه ساعات محاولا استعمال إحدى تجاربه فى التغلب على الزهق.. ويتوقف عن المحاولة فى نفس الساعة التى يحددها النظام للعودة إلى البيت.. وقد فشلت كل محاولات التخفيف من زهقه وبدأ يعود نفسه على الاستسلام لهذا الزهق..

إلى أن كان مدعوا ذات مساء هو وزوجته لتناول العشاء عند عبد الرحمن مرزوق.. وهو رجل أعمال ناجح، ولا يزال فى

نضرة رجولته.. وزوجته سميرة شابة لم تكن فى منتهى الجمال، ولكنها استطاعت أن تجذب المجتمع كله بنشاطها وذكائها وخفتها فى اجتذاب كل من يهمها اجتذابه.. ولم يكن عبد الرحمن مرزوق صديقا حميما له.. إنهما لم يتعارفا إلا فى مجال العمل.. وهذه هى أول مرة يدعوه فيها إلى إحدى السهرات التى يقيمها فى بيته.. ومن عادة ممدوح كلما كان مدعوا أن يفترض مسبقا من سيكون مدعوا معه.. ويختار مقدما من يهتم بقضاء السهرة معه.. بل ويعد الموضوعات التى سيثيرها ويتكلم فيها خلال الدعوة.. وقد وصل إلى الدعوة وهو يكاد يعرف مقدما تفاصيل الساعات التى سيقضيها فيها.. وقد استقبله عبد الرحمن مرزوق بترحاب.. ولكن زوجته سميرة استقبلته بترحاب أكبر.. كأنها تطير فرحا به.. ولعل الترحاب الذى استقبلته به أسخى وأكثر انطلاقا من الترحاب الذى استقبلت به زوجته أمينة.. وقد وجدها بعد دخوله جالسة بجانبه بينما جلست زوجته فى ناحية أخرى بين بعض المدعوين كما تقضى التقاليد الاجتماعية.. وفى لحظة وجد نفسه فى حديث طويل معها.. حديث لا ينتهى.. ونسى ما كان قد أعده لاختيار من يتحدث إليه.. وتفرغ كله لها.. إن حديثهما يطوف فى كل المجالات كأنهما يرسمان به قطعا من السحاب تطوف بالسماء.. ولم يكن فيه أى كلمة فى مجال العمل.. إنه حديث يجمع اثنين كأنهما وحدهما فى الدنيا كلها.. وتمر بهما ضحكات.. وتمر بهما لحظات جادة.. ويمر بهما الأمل.. ويمر

بهما اليأس.. وكانت تتنبه فترة إلى مسئولياتها كصاحبة الحفل فتقـوم من جانبه كأنـها تنتشل نفسـها من براثنه وتطوف بين بقـية المدعـوين ولكنهـا لا تلبث أن تعـود إليـه وتلقى نفـسهـا بجانبه.. ويعود الحديث المنطلق.. ولم يتوقف بينهما الكلام حتى عندما اجتمعا حول المائدة لتناول طعام العشاء.. إنها كانت أيضا تجلس بجانبه وكأن لا شيء يمكن أن يشبـعهما إلا ما يزود به كل منهما الآخر من كلام.. وعندما بدأت نهاية السـهرة قال لها :

– لا أريد أن ينتهى حديثنا..

قالت فى بساطة :

– سأحدثك فى التليفون لعلنا نجد له نهاية..

وبســرعة نطق برقم تليـفونه الخـاص.. وهو الرقم الذى لم يكن يجود به إلا وهو فى قمـة صفقة من صفقـاته.. وكرر ذكر الرقم حتى تأكـد من أنها حفظتـه.. وربما كانت قد سـجلته فى ذاكرتها منذ نطق به.. وزاد بأن أوصـاها أن تحادثه فى السـاعة الحادية عـشرة.. كأنه يعـد لعملية كـبيرة كل حركـة فيهـا لها موعد..

وعاد إلى بيـته وابتـسامـته لا تفارق شـفتـيه.. إنه يبـتسم لسميرة.. حتى وهو راقد بجانب زوجته على الفراش، لم تفارق الابتسامة شفتيه..

وحادثته فــى التليفون.. ثم أصبح فى انتظار رنين التـليفون كل صبـاح وكل مســاء.. وصلا إلى أن التليـفون لم يعـد يكفى واتفقا على لقاء.. أين يلتقــى بها.. وفكر طويلا وتردد كثيرا إلى

أن انتهى بأن أستأجر شقـة مفروشة فى حى مزدحم لا يشغل اهتمام الناس بمن يدخل ومن يخرج منهـا.. وتعدد لقاؤهما فى الشقة.. وكان دائما لقاء فى الساعـة الحادية عشرة صباحا، أو فى الســادسة مـســاء، فلا يتـسبـب فى أى خلل بالنظام الذى وضعه لأيامه مع عائلته..

والمهم أنه تغلب على الزهق الذى كـان يحس به.. الزهق من كل حياته حتى لو كانت ناجحــة.. وقد اكتشف السر الذى مكنه من التخلص من هذا الـزهق.. وهو سر لم يكن يحسب حـسابه أبدا من قبل.. إن السر هو أنه رجل وسيم ومحدث لبق يستطيع أن يشـد بحديثـه كل من يريد أن يسـتولى عليـه.. ثم أنه رجل ناجح نجاحا مغريا لأن يسـتسلم له كل إنسان.. أى كل امرأة.. ولكن.. مع الأيام.. لم تعد سمـيرة قادرة على أن تحرره من كل زهقه.. إنها لا تلقـاه فى الشقة المفروشة إلا كل أسبـوعين مرة، وأحيانا يمضى شهر دون أن تلقاه معتذرة بواجباتها الزوجية.. وهو لا يجد فيها ما يشبع زهقه إلا هذا اللقاء.. بل لا يربطه بها إلا لقاء الشقـة المفروشة.. ولكن.. إنه يحبها.. وابتـسم ساخرا.. إنه حب يعيش لحظـات لا يستمـر أكثر منهـا ولا يجدده إلا إذا عاد يعيش هذه اللحظات.. ووجد نفسه يبحث عن نساء أخريات يملأن له الفراغ الذى تتـركه فيه سميرة.. وهو قـد انطلقت فيه موهبـة جديدة لم يكن هو يحس بهـا أو يحتاج إلـيها.. مـوهبة اجـتذاب من يريـد إلى الشقـة المفـروشة.. اجـتـذاب كل أنواع النساء.. المتزوجات والمطلقات والعـذارى.. وإن كان يطمئن أكثر

إلى تبادل اللحظات مع المتزوجات.. إنهن لا يشغلنه بحديث المستقبل الذى ينتهى بالزواج.. فلا يضطر إلى الكذب عليهن أو التخلص منهن.. فهو مع كل هذا لا يخطر على باله أبدا أن يتزوج من أى امرأة أخرى غير التى تزوجها..

وكان دائما حريصا على ألا يمس النظام الذى وضعه لحياته العائلية وعلاقته بزوجته.. إنه يأخذ من الساعات المخصصة لعمله ووجوده فى المكتب.. ولا يأخذ شيئا من الساعات المخصصة لعائلته وزوجته.. ولعل هناك تقاليد عائلية قد تغيرت.. فلم يعد مثلا يأخذ زوجته بين ذراعيه كل يوم اثنين وكل يوم خميس.. أصبح لا يأخذها إلا كل يوم خميس.. ثم بدأ بلا تعمد لا يأخذها إلا كل شهر مرة أو ربما أكثر دون أن يحس بأنه أهمل شيئا.. إنه تطور بحكم العادة نتيجة مرور العمر.. إن التطور خصوصا فى العلاقات الجنسية يضعف الشهوة.. إنه لم يعد يحس بجسد زوجته كأنه جسد غريب عنه يثير شهوته.. إنه يحس به كأنه تكملة لجسده هو.. كأنهما قد أصبحا جسدا واحدا.. وقد أصبح يبذل جهدا متعمدا يضغط به على أعصابه حتى تتفتح أحاسيسه الجنسية ويقبل على مضاجعتها..

وقد بدأ المجتمع يتحدث عن مغامراته النسائية.. ويروى عنه قصصا قد تكون مبالغا فيها.. بل ربما عرف البعض عنوان الشقة المفروشة التى تشهد مغامراته.. ولكنه لم يكن يسمع شيئا مما أصبح يقال عنه.. كأنه يعيش بشخصيتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى.. شخصية رجل الأعمال الجاد.. وشخصية

رجل المغامرات النسائية.. وهو لا يقدم للمجتمع إلا الشخصية الأولى، ولا يحس اجتماعيا بشخصيته الثانية.. بل إنه كان يرفض مسايرة أى صديق يمكن أن يتجرأ ويفاتحه الحديث عن دنيا المغامرات النسائية حتى ولو ضاحكا.. وكان يرفض بعنف محتفظا بشخصية رجل الأعمال الجاد، ولا يقبل حتى مجرد التضاحك عن هذه الدنيا الأخرى.. ولم يراوده أبدا أى تساؤل عما إذا كانت زوجته أمينة قد بلغها شيء مما يقال عنه.. بل لم يخطر على باله أبدا أن يتساءل عن احتمال أن تنطلق زوجته، كما انطلق وتعيش هى الأخرى مثل المغامرات التى أصبح يعيشها.. ربما أعطت نفسها لرجل آخر، كما أعطى نفسه لنساء أخريات.. ربما كانت هى الأخرى تعانى الزهق، كما كان يعانى ودفعه إلى مغامراته النسائية ولكن هذا التساؤل لم يخطر على باله أبدا.. إن زوجته لم يتغير فيها أى شيء ولا حتى فى رنة كلامها معه.. وإن كان لم يتنبه إلى أنه بعد أن بدأ مغامراته النسائية أصبح يحاسب زوجته أكثر.. ويدقق فى مراجعة تحركاتها خارج البيت أكثر.. كأنه اكتشف الدنيا الأخرى التى لم يكن يعرفها ويخاف أن تقع فيها زوجته كما وقع هو فيها..

إلى أن واجه المفاجأة..

كان جالسا فى البيت وبجانبه زوجته ومن حولهما بناتهما الثلاث كعادته صباح كل يوم جمعة.. وانطلقت ابنته الكبرى سلوى قائلة :

– بابا.. إن ماما تتعذب وأنت الذى تعذبها.. فهى تعرف

وكلنا يعرف أنك أصبحت على علاقات مع كثير من النساء.. ونحن نعانى من أننا أصبحنا نسمع الكثير الذى يمس تباهينا بأبينا المحترم.. ولكن ماما تتعذب أكثر.. وحرام عليك يا بابا.. أنت مسئول عنها كما أنك مسئول عنا..

وبوغت ممدوح بهذا الكلام.. إن ابنته تتهمه اتهاما صريحا وتجلس أمامه محتفظة بكل قوتها كأنها وكيل نيابة يقدمه للمحاكمة.. ونظر إلى زوجته شذرا كأنه يتهمها بأنها هى التى سلطت عليه بناته لتقديمه إلى هذه المحاكمة.. بماذا يرد على ابنته دفاعا عن نفسه.. هل يكذبها ويثور عليها ويطردها من الجلوس معه.. ولكن لا.. إن بناته قد كبرن وأصبحن مكتملات العقل.. وقد تزوجت سلوى ونيفين.. زواج محترم كان له الفضل فى تحقيقه وهو الذى اختار لكل منهما زوجها.. وهما الاثنتان لن تكلفا نفسيهما احتمال كذبه إذا أنكر ما تتهمانه به.. لقد تنطلقان فى مجادلته إلى حد يفقده احترامه.. ومن الأفضل أن يكون على بعض الصدق والصراحة فى الرد على اتهامهما له.. أما ابنته الصغرى.. كريمة فهى الآن فى الخامسة عشرة من عمرها.. ولم تتزوج بعد.. وقد ورثت عنه كل ذكائه.. وستكتشف فورا كذبه إذا أنكر الاتهام..وستكون أول من يقتنع بكل ما يقوله ما دام صادقا.. بل إنه واثق أنها ستعذره.. إن كريمة أقرب بناته وأحبهن إليه..

قال بعد أن سكت لحظة يعد فيها كل كلمة يقولها :

- إنى لا أسمح لأى واحدة منكن بأن تحاسبنى على حياتى خارج البيت.. ولكن كل واحدة منكن من حقها أن تطالبنى بما ينقصها.. فهل ينقصكن شىء.. ماذا ينقص أمكنّ أو أى واحدة منكنّ.. إنى منذ بدأت فى إقامة هذه العائلة وهذا البيت، وأنا حريص على ألا ينقصكن شىء.. بل ولا تنقصكنّ حتى دقيقة واحدة من عمرى..

قالت ابنته الصغرى كريمة فورا :

- فعلا يا بابا.. لا ينقصنا شىء.. أبقاك الله لنا..

ونظر إليها فى حب يقبلها بعينيه..

قالت الابنة الوسطى نيفين وهى تتكلم كأنها لم تتعود الجرأة عليه :

- ينقصنا أن نعيش دون أن تنطلق حول أبينا حكايات تجرحنا..

قال فى حدة :

- إن الناس كلهم يعرفون أن أباكنّ رجل ناجح.. وليس هناك من يستمر نجاحه دون أن تنطلق من حوله إشاعات.. أو حكايات وقد يرونه يصافح امرأة بمجرد دافع اجتماعى فيطلقون إشاعة أن بينه وبين هذه المرأة علاقة.. ولن يسكت عنه الناس إلا إذا فقد نجاحه وأفلس وأصبح فاشلا.. هل تفضلن أن أكون فاشلا عن أن تسمعن عنى حكايات..

وصاحت الصغرى :

- لا يا بابا.. نريدك ناجحا مهما سمعنا عنك من حكايات..

وعاد ينظر إليها كأنه يقبلها بعينيه..

وعادت ابنته الكبرى سلوى أكثرهن جرأة عليه تقول :

– قد لا يكون هناك ما ينقصنا حتى من حبك لنا.. ولكن ماما قد تكون قد أصبح ينقصها الكثير..

وصاح الأب ممدوح :

– لا يمكن ألا ينقصكن شيء، وأمكن ينقصها شيء.. إن إحساسي بكن ومسئوليتي عنكن بل وحبي لكنّ.. كل هذا نابع من إحساسي بماما ومسئوليتي عنها وحبي لها.. إنها لم تفقد دقيقة واحدة من عمري خصصتها لها منذ أن أصبحت زوجتي.. حتى جلستنا هذه.. جلسة صباح الجمعة.. لم تنقطع أبدا.. وماذا تساوي جلستي معكن إن لم تكن ماما بجانبي.. إنها هي الأصل.. هي العائلة.. هي البيت.. ولو كان ينقصها شيء لصارحتني به.. فهي متأكدة من قوة حرصي على إسعادها.. وهي لم تصارحني بأن شيء عكر سعادتها بي..

وسكتت ابنته سلوى وهي تنظر إلى أمها تستغيث بها، وتسألها عن المزيد الذي يمكن أن تقوله لأبيها..

وكانت زوجته أمينة لا تشارك في هذه المناقشة.. جالسة في صمت ورأسها مدلى على صدرها كأنها في انتظار ما يمكن أن تنتهي إليه هذه المناقشات.. وقد رفعت رأسها وقالت في صوت ضعيف كأنها تأكدت أن المناقشات لن تنتهي إلى شيء.. وقالت :

– خلاص يا بنات.. ما هذا الكلام الذي أسمعه منكن.. إن أباكن هو زينة الرجال وخير الآباء.. وحياتنا كلها لا ينقصها

شىء.. بفضله..

قال ممدوح وهو يبتسم ابتسامة مفتعلة :

– بفضلك أنت يا أمينة..

وسكتت البنات وقفزت ابنته الصغرى كريمة وألقت بنفسها بين ذراعيه تقبله وتدلله كأنها تمسح عنه ما أثار أعصابه من كلام أختيها.. إلى أن التقت العائلة حول المائدة لتناول طعام الغداء كالعادة كل يوم جمعة..

وأعصاب الأب ممدوح تهرب وتتلوى فى داخله.. إنه متأكد من أن زوجته أمينة هى التى سلطت ابنتيها الكبرى والوسطى لإثارة مناقشته.. إنهما أقرب إليهما من ابنته الصغرى التى تعتبر أقرب إليه من قربها لأمها.. وهو يعلم أن عقلية زوجته تدفعها كثيرا إلى التخطيط دون أن تتحمل مسئولية ما تخطط له.. وكأنها أرادت أن تلومه عن طريق بناتها دون أن تتحمل مسئولية لومه..

وقد وجد أن يدخل بعض التعديلات فى حياته الخاصة.. فاختصر من مجموعة النساء اللاتى يفرجن عن زهقه، وأصبح يتعمد أن يتصل بزوجته بالتليفون وهو فى عمله حتى يطمئنها إلى أنه فى مكتبه ولم يذهب إلى ما يمكن أن يثير شكوكها.. أى لم يذهب إلى الشقة المفروشة.. ولم يكن يحس أنه يحاول بذلك أن يطمئنها هى.. أى زوجته.. بل كان يحس بأنه يطمئن بناته ويخفف عنهن ما يسمعنه عنه..

وكان يعود إلى بيته وأقوى ما يتجه إليه من متعة هو لقاؤه

بابنته كريمة.. ويحتضنها ويقبلها ويداعبها كأنها لا تزال طفلة صغيرة دون أن يحس بها وقد كبرت وأصبحت شابة.. وقد عاد إلى البيت فى الساعة التاسعة مساء، وفوجىء بأن ابنته كريمة ليست فيه، وصرخ مذعورا فى وجه زوجته أمينة :

– أين كريمة ؟

قالت زوجته وهى تدارى وجهها عنه :

– لم تعد بعد..

وصاح :

– أين هى ؟

وتنهدت أمينة كأنها تلتقط أنفاسها قبل أن تطير منها :

– لا أدرى.. إنها لم تتعود أن تصارحنى بخطواتها خارج البيت.. ولا أعرف عنها إلا ما أسمعه منها صدفة..

وسقط على مقعد منهارا.. أين يمكن أن تكون ابنته حتى الساعة التاسعة مساء.. وجحظت عيناه كأنهما تكادان تسقطان من مقلتيهما.. ربما كانت فى شقة مفروشة كالشقة التى خصصها لنفسه ولمغامراته.. لقد مر به فى شقته فتيات عذارى، وربما أصبحت ابنته العذراء تتردد على شقة مفروشة أخرى.. إنها صورة طبق الأصل منه حتى فى حياتها الخاصة.. ولكن لا يمكن أن تصل إلى هذا الحد فى أن تعيش كل حياته..

وظل جالسا ودماؤه تغلى فى عروقه.. وزوجته جالسة أمامه فى صمت ورأسها منكس على صدرها كأنها تهم بالبكاء.. وكانت الساعة قد وصلت إلى التاسعة والنصف عندما

دخلت عليهما ابنته كريمة.. وقفز منطورا من جلسته وصرخ في وجهها :

- أين كنت ؟

ولم تهتز كريمة لصرخته واقتربت منه تهم أن تقبله كما هي عادتها وقالت ضاحكة :

- لا تنس أنك قلت لنا أن ليس من حق أحد أن يحاسبك، ولكن من حقنا أن نطالبك بما نريد.. وأنا مثلك.. لا تحاسبني ولكن قل لي ما تريد..

وارتعشت عيناه ورفع يده وصفعها صفعة قوية على خدها وهو يقول :

- إني قلت هذا وأنا مسئول عن نفسي، أما أنت فلست مسئولة عن نفسك.. أنا المسئول عنك.. ومن حقي أن أحاسبك على كل دقيقة وكل خطوة من عمرك..

وتحسست الصفعة بكفها دون أن تبكي، وقالت وهي تحاول أن تحتفظ بهدوئها :

- لك حق.. ومسئوليتك عني كانت تفرض عليّ أن أعود إلى البيت قبل الساعة التاسعة.. أي قبل أن تكتشف أني لم أعد بعد.. وحتى أطمئنك أكثر على مسئوليتك سأقول لك أين كنت؟.. لقد كنت في حفل أقامته صديقتي درية وتأخرت نصف ساعة عن موعد عودتي..

وصاح وهو يطوي يده حتى لا يصفعها مرة ثانية :

- ليس من حقك أن تذهبي إلى أي حفل بلا استئذان..

قالت ساخرة :

- ما الفرق بين أن استأذن ما دمت أستطيع أن أكذب..

وأحس كأنها تتكلم بلسانه الذى يعبر عن عقليته هو.. إنه هو الآخر لا يستأذن زوجته ولا العائلة عندما يذهب إلى الشقة المفروشة.. لأنه إذا استأذن فسيضطر إلى أن يكذب..

وظل مبحلقا فيها وهى تجرى من أمامه وتدخل غرفتها وتغلق الباب وراءها.. كأنها تختفى لتبكى وحدها من أثر الصفعة التى لا تزال على خدها..

ومن ساعتها وهو يعانى الشك من تصرفات ابنته.. وصورتها لا تبتعد عن خياله طول اليوم.. أين تذهب ؟.. وماذا فعلت ؟.. ومن تعرف ؟.. وما علاقتها بمن تعرفهم من الشبان ؟.. وقد أخذ يطيل فى محاسبتها كلما جلس إليها.. ويحاول أن يضع محاسبته فى قالب تساؤلات عادية بريئة.. بدأ يثير الحديث عنها كلما جلس مع من يعرفونها من أقارب وأصدقاء العائلة كأنه يريد أن يكتشف ما لا يعرفه.. وقد كان من أثر اهتمامه بها أن فكر فى التخفيف من زهقه بلقاء النساء فى الشقة المفروشة.. وحدث أن كان على موعد فى الشقة مع فتاة شابة فى عمر ابنته.. وهى فتاة لعوب تفضل اللعب مع الرجال الكبار فى مثل سنه.. وبوغت وهو يحتضنها ويلصق جسدها بجسده أنه يرى فيها صورة ابنته كريمة.. كأنها هى كريمة.. وأبعدها عن ذراعيه بسرعة.. إنه لا يستطيع أن يلعب هذه اللعبة مع ابنته..

ابنتى لا زوجتى..

وفى يوم فاجأه صديقه مصطفى محرز بأن قال له :

- إن ابنى رؤوف معجب بابنتك كريمـة إعجابا صارخا.. إنه طالب معها فى الجامـعة، ولا يكف عن الحديث عنها مع أمه ولا معى..

قال الأب ممدوح فى عـصبية كـأنه يهم أن يدخل فى خناقة بسبب ابنته :

- أى نوع من الإعجاب..

قال صديقه مصطفى ضاحكا :

- هل الإعجـاب أنواع.. إنه إعجـاب فتى بفتـاة.. ولست من العلماء حتى أفسر لك هذا الإعجاب.. يكفى أنه إعجاب.. وابنى لا يزال فى السن الذى يكفيه مجرد الإعجاب..

وضغط ممدوح عـلى أعصابه وافـتعل ابتـسامة بـاهتة ولم يستمر فى الحديث.. ولكنه عندمـا عاد إلى البيت جلس مع ابنته كريمة وقال لها :

- إنهم يتحدثون عنك كثيرا فى الجامعة..

قالت كريمة فى بساطة :

- طبعا.. فإنى فـتاة ناجحة فى الجامعة.. واعـتبر من أجمل وأشـيك وأشطر بنات الجـامعـة.. ونجاحى يـفرض عليـهم أن يتحدثوا عنى كثيرا.. هل كنت تفضل أن تكون ابنتك فتاة قبيحة غبية فاشلة لا يهتم أحـد بالكلام عنها.. إنى سعيدة لأن كل من فى الجامـعة يتحـدث عنى.. وسعيـدة حتى بالإشـاعات الكاذبة التى تثار حولى ولا أهتم بها..

وتاهت عينا ممدوح من الدهشة.. إن ابنته تقول نفس الكلام الذى سبق أن قاله لها ولأختيها.. لقد سبق أن قال لهن إنه تكثر حوله الإشاعات لأنه ناجح.. ولن تسكت عنه الإشاعات إلا إذا فقد نجاحه وأصبح فاشلا.. ولكنه كان يقول لهن هذا الكلام وهو يعلم أن كثيرا مما يقال عنه لا يعتبر مجرد إشاعات إنه فعلا كلام صادق يكشف واقعه.. فهل تقول ابنته هذا الكلام وهى أيضا تعيش واقعا وليس مجرد إشاعات..

ووجد نفسه يحس بإحساس جديد نحو ابنته، وتردد لحظة ثم قال لها فى صوت هادىء من خلال ابتسامة حب :

إنك صورة طبق الأصل من أبيك.. وأنت تقولين الآن نفس الكلام الذى سبق أن قلته أنا لك دفاعا عن نفسى ضد الإشاعات.. وحاولى الآن أن تفهمى ما سأقوله لك.. لأننا نحن الاثنين نجمع بين شخصية واحدة وعقلية واحدة فتعالى نتصارح بكل ما فى حياة كل منا.. لا أسرار أخفيها عنك، ولا أسرار تخفيها عنى.. حتى يستطيع كل منا أن يحمى الآخر من الوقوع فى أى خطأ.. سأصارحك الآن بأنى كنت ألعب بمعرفة بعض البنات والنساء وقضاء بعض أوقات من اللعبة المعروفة معهن.. ولكن منذ مدة وجدت أن كل لعبة تترك فى داخلى مرارة تقرفنى من نفسى.. وإحساس بأنى رجل ضعيف خسيس يضحى باحترامه لنفسه واعتزازه بشخصيته.. أحس كأنى رجل جائع لا تشبعه أى لقمة حتى تفتتت أمعاؤه.. لذلك بدأت أحرم على نفسى اللعب.. ربما مازلت ألعب.. ولكنى ألعب

قليلا وفى فترات متباعدة.. ولكن حتى هذا القليل سأحرمه على نفسى.. وطبعا كنت ألعب دون أن أمسّ عائلتى بأى مساس

قالت كريمة وهى تنظر إلى أبيها فى إشفاق :

– لقد كنت أعرف، ولكنى لم أفقد ثقتى فيك أبدا كأب مثالى..

قال فورا :

– إذن صارحينى أنت أيضا بما فى حياتك ولا أعرفه..

قالت كريمة فى بساطة :

– إنى أصارحك دائما دون أن يبدو على مصارحتك.. صدقنى ليس فى حياتى أسرار.. وربما كان فيها سر لم يكتمل بعد حتى أصارحك به..

وتركته وهو ضائع فى حيرته..

وقرر أن يقطع فعلا كل علاقاته الخاصة بأى امرأة حتى علاقته بسميرة التى كانت أول امرأة دخلت حياته وهو متزوج.. لقد كانت علاقته بها قد بردت من تلقاء نفسها، ولكنها كانت لا تزال تفد على الشقة المفروشة كل شهرين أو ثلاثة مرة.. لقد حرم على نفسه هذه المرة أيضا.. بل وصل إلى ترك إيجار الشقة المفروشة كلها.. إنه يحاول أن يقيم من نفسه مثلا أعلى لابنته كريمة التى ورثت عنه كل عقليته..

وبعد أيام طويلة جلست إليه كريمة، وقالت وقد أرخت عيناها عنه فى حياء :

– لقد اكتمل السر الذى يجب أن أصارحك به.. إنى فى حالة حب.. حب عنيف.. وقضيت مدة طويلة وأنا أختبره حتى تأكدت

منه واستسلمت له.. استسلمت للحب لا لمن أحبه..

قال الأب فى جزع :

– من هو ؟

قالت فى صوت متنهد كأنها تحادث نفسها :

– إنه رؤوف ابن صديقك مصطفى بيه محرز.. إنه زميلى وهو لا يزال فى السنة النهائية، ولكنى واثقة أنه سينجح.. وقد اتفقنا على أن نعلن خطوبتنا إلى أن نتزوج بعد ظهور النتيجة حتى تكون لنا الحرية بأن نعرف بعضنا أكثر..

قال ساهما :

– وماذا تريدين منى ؟

قالت فى بساطة :

– لا شىء.. انتظر حتى يفاتحك والده فى موضوع الخطوبة..

قال وهو ينظر إليها فى كمد :

– قد لا أوافق..

قالت فى ثقة :

– إنى واثقة أنك ستوافق..

وتنهد وهو ينظر إليها فى دهشة.. كيف تكون واثقة من موافقته.. أو ربما كانت ستتزوج هذا الشاب حتى ولو لم يوافق.. وقال فى حدة كأنه يصدر أمرا يفرضه عليها :

– قبل أن يفاتحنى والده.. أريد أن أعرف شخصية هذا الشاب.. وأريد منك أن تدعيه إلى البيت دون أن يفاتحنى فى

شيء .. إنما يزورنا كصديق لك.. مجرد زميل.. يذاكر معك أو يودك..

قالت دون أن تفاجأ :

– هذا ما فكرت فيه..

وقد أصبح رؤوف يزور البيت.. حتى أصبحت الزيارة كل يوم.. وقد اقتنع وأعجب به الأب.. إن ابنته صورة منه حتى فى اختيار الناس وتحديد علاقاتها بهم..

وبعد فترة تقدم إليه صديقه مصطفى محرز يطالبه بإعلان خطوبة ابنته لابنه..

إلى أن تم الزواج..

وأحس الأب ممدوح رجب بأنه انتهى من تحقيق مسئوليته عن ابنته كريمة كما سبق وحقق مسئوليته عن أختيها سلوى ونيفين..

والغريب أنه عاد إلى استئجار الشقة المفروشة..

الحيـــاة قـــراطيـــس..

إنها منذ وقعت عـيناها عليه وهى تحس أنه لا يمكن أن يكون مــجـرد رجل عــادى.. إن مــجـرد تحركــاته بما فيــها تحركــات عينيــه تجعل كل من يقف أمامه ينجذب إليه وهو فاغرا فاه فى دهشة.. ولكنها دهشة تنطلق معها ابتسامة كأنه يهبها لك..

وقد كــان لقاؤهما ضــمن مجمــوعة كــبيرة من الكومــبارس السينمائيين مجتمــعين فى صالة الاستديو فى انتظار أن يظهر المخرج ليــختــار من بينهم من يظهر فى مــشاهد الفــيلم.. وكان رأفت يطوف عليــهم يحيى ويضــحك وكأنه يعرفــهم كلهم وهم يعرفــونه.. وعندما وصل إليها وقف ينظر مــبتسمــا فى دهشة كأنه فوجىء باختراع جــديد.. لقد كانت أول مرة يراها فى مثل هذا الجمع.. وكــانت أول مرة بالنســبة لها تعــرض نفســها فى سوق الكومبارس.. وقال رأفت وهو يشد على يدها مرحبا :

– أهلا.. شرفت..

ووجدت ابتسامتها تتسع بشفتيها حتى آخرها وهو يصافحها.. أحست باطمئنان كامل إليه كأنها تعرفه طول حياتها.. وظلت عيناها متعلقتين به بعد أن ابتعد عنها.. بل إنها وجدت نفسها تخطو وراءه كأنها أصبحت معه.. دون أن يتبادلا أى كلمة أخرى.. كأنهما ليسا فى حاجة إلى كلام.. إلى أن ظهر بينهما مساعد المخرج واصطفوا بسرعة أمامه.. وكان أول من نادى عليه هو رأفت.. وطلب منه أن يدخل غرفة تغيير الملابس.. قال رأفت فى هدوء :

– ما هو المشهد الذى سأظهر فيه..

ونظر إليه مساعد المخرج وهو يزفر أنفاسه فى زهق، ثم أخذ يقلب فى الأوراق التى بين يديه وقال فى صوت عنيف كأنه قائد يصدر أوامره فى معركة :

– ستقف بين بقية موظفى الشركة.. ويمر عليكم الباشا.. يصفع كل موظف بالقلم.. وعندما يصل إليك ويصفعك ترفع يدك كأنك تهم بأن ترد صفعته.. ولكنه يلاحقك بلكمة قوية تسقط معها على الأرض.. هذا هو كل المشهد المطلوب منك..

قال رأفت بسرعة :

– آسف.. لا أقبل الظهور فى هذا المشهد..

وتعقد وجه مساعد المخرج، ثم كأنه استطاع أن يقاوم ثورته واقترب من رأفت قائلا كأنه يرجوه :

– إنه مشهد ملىء بالحركة.. ويمكن به إبراز مواهبك..

قال رأفت فى هدوء :

– إنه مشهد يتعارض مع شخصية صاحب الشركة كما يقدمها السيناريو.. ولن يقنع جمهور المتفرجين..

وانسحب رأفت من بين صفوف الكومبارس رغم استمرار مساعد المخرج فى محاولة إقناعه..

وساعتها عرفت أن رأفت يعتبر من أبطال الكومبارس.. إن الكومبارس أيضا يضم أبطالا.. إذا لم يكن لهم اسم بين الجمهور، فلهم اسم بين محترفى العمل السينمائى.. كما لهم تأثير معترف به على الجمهور حتى لو كان تأثيرا عابرا بين مشاهد الفيلم.. وقد بلغ من اعتداد رأفت ببطولته أنه كان يجد من حقه مراجعة سيناريو أى فيلم يظهر فيه رغم أنه لا يظهر إلافى مشاهد الكومبارس..

ومضت دقائق خرجت بعدها من الاستديو كأنها تجرى بحثا عن رأفت..

ووجدته واقفا فى الفناء الخارجى يناقش بعض الأصدقاء.. وتقدمت إليه كأنه صديقها القديم وقالت فى بساطة :

– لم أختبر لأى مشهد أظهر فيه..

قال مبتسما ابتسامة تقطر بالسخرية كأنه يروى نكتة :

– هل تعرفين المخرج ؟

قالت فى دهشة :

– لا..

وعاد صوته ينبض بالسخرية :

- وهل تعرفين المنتج..

قالت بدهشتها..

- لا..

قال وهو ينظر إليها بإشفاق :

- من تعرفين من العاملين فى الفيلم..

قالت :

- لا أحد.. لقد تقدمت عن طريق مكتب التشغيل..

قال ضاحكا :

- إن مكتب التشغيل لا يقدم زبائنه للشغل، ولكنه يقدمهم لأصحاب الشغل.. لا بد أنك لجأت إلى مكتب ساذج برىء.. أو مكتب لا يطمع فى أن يربح من ورائك شيئا.. ولكن اصبرى.. فالطريق ليس سهلا..

وأمسك بذراعها وشدها بعيدا عن أصدقائه قائلا :

- إنى جوعان.. تعالى.. قد تشبعيننى وقد أشبعك..

قالت وهى مستسلمة له دون مقاومة :

- إلى أين..

قال فى بساطة :

- إلى أمى.. فقد وعدتنى بأن تعد لى طبخة بامية.. وبطنى تتغنى بالبامية وتضعف أمامها كما تتغنى عيناى بالورد وتضعف له..

واستسلمت.. إنها تعيش وحيدة، وربما كانت وحيدة منذ ولدت.. وشردتها الوحدة لتجد نفسها فى القاهرة تتنقل بين

الإقامة مع صديقات لا تجمعهن الصداقة بل تجمعهن معركة عنيفة فى البحث عن وسائل الحياة..

قالت وهى تسير بجانبه كأنها تذكرت فجأة أنه لم يعرفها ولم تعرفه بعد :

– إنى اسمى عليّة.. وعندما بدأت أحاول أن أعمل فى السينما نصحونى بأن أُسَمِّى نفسى علياء.. قالوا لى إنه اسم اشد اجتذابا للجمهور..

قال كأنه يقاوم كارثة :

– لن أعترف لك باسم إلا اسم عليّة.. إنه اسم ينطلق من أصالة كل مجتمعنا.. اسم يحس به كل مصرى بأنه اسم يمكن أن يكون فى بيته.. حتى جمهور السينما والمسرح والتليفزيون.. ينجذب أكثر إلى الأسماء الأصيلة.. وقد كان الفن قديما لا يجمع إلا هذه الأسماء الشعبية الأصيلة خصوصا بين الفنانات.. دولت أبيض.. أمينة رزق.. فاطمة رشدى.. زينب صدقى.. روحية خالد.. و.. و.. ولم تكن إحداهن تحاول أن تدعى لنفسها اسما من الأسماء « المودرن » إلا بعد أن تشوه المجتمع المصرى وأصبح يعيش على المظهر الكاذب.. وأصبح من حق الفتاة أن تستبدل اسمها.. برنة أخرى.. كما تستبدل ثوبها بطراز آخر.. كفروا بالأصالة وتعلقوا بالمظهر.. رغم أن الأصالة لها رنة أجمل من رنة الادعاء.. كما أن الموسيقى الأصيلة لا تزال رنتها أجمل من رنة الموسيقى الدخيلة المستحدثة.. لذلك لن أترنم إلا باسم عليّة، كما ترنمت بك..

قالت ضاحكة كأنها تخفف عنه :

- ربما لو لم أكن قد صارحتك بأن اسمى هو عليّة.. لرضيت باسم علياء..

قال وهو لا يزال مصرا :

- كنت سأعيش معك وأنا أُحس إحساسا غامضا بأنك تكذبين علىّ كذبة لا أستطيع اكتشافها والعثور عليها.. كأن الشك يساورنى بأنك لست مخلصة لى.. وأنا دائما أُسمى نجلاء فتحى باسمها الأصيل.. زهرة.. حتى أستكمل إعجابى بفنها دون أى مؤثرات دخيلة..

قالت وهى تنظر إليه كأنها مبهورة بأنه ليس كبقية الناس :

- اطمئن.. إن اسمى هو عليّة.. ولن يكون لى أبدا اسم آخر..



واستقبلتها أُمه فى بساطة وهى تنظر إليها نظرات مرتاحة كأنها تعرفها منذ زمان طويل.. وقال رأفت وهو يقدمها إليها فى كلمة واحدة.. عليّة.. وقالت لها الأم فورا :

- تعالى معى وساعدينى فى المطبخ.. فإن رأفت لا يطيق الانتظار.. وشدتها وراءها إلى المطبخ.. وعليّة تنظر حولها فى أنحاء البيت.. إنه بيت متواضع ولكن لا ينقصه شىء.. إنه يحيط رأفت بأكثر مما يستطيعه مجرد كومبارس من العاملين فى السينما.. ربما كانت له أعمال أخرى تدر عليه دخلا أكبر.. وأخذت تشارك أمه فى طهو ما تعده من طعام، وبسرعة زال إحساسها بالغربة وأصبحت تتحرك فى تلقائية كأنها ليست

غريبة عن هذا المطبخ.. وكأنها فى بيتها ومع أمها.. رغم أنها لم يكن لها أبدا بيت ولم تعاشر أما..

وحملت هى وأمـه أطباق الباميـة والأرز والسلاطة.. ورأفت جالس على رأس المائدة صـامت سرحان كأنه لا ينتظر شـيئا.. ومـا كـاد الطعـام يوضع أمـامـه حـتى بـدأ يأكل وهو لا يزال سرحـانا دون أن ينطق بكلمة.. ولم يأكل كـثيرا.. لقـمات قليلة يمضغـها فى بطء.. ثم قام من على مقعـد المائدة، وألقى بنفسه على الأريكة التى تتصدر الغـرفة.. وقد عرفت عنه فيـما بعد أن هذه هى عـادته.. لا يفـرط فى الأكل.. وربما كـان هذا هو سـر احتـفاظه بهذا القـوام الرشيق.. وقد قـامت هى وأمه تجمـعان الأطباق وتعـيدان المائدة إلى حـالتها.. ثم تركت أمـه فى المطبخ وتسللت إليه كأنها تريد أن تكتـشف أسرار يومه.. وفوجئت به جالسا وبين أحضـانه آلة العود يعزف عليها موسيـقى متقطعة كأنه يجرب لحنا جديدا.. وما كـادت تقترب منه حتى قال دون أن يرفع رأسه إليها وكأنه لم ير منها سوى قدميها :

– القهوة..

قالت وابتسامتها تملأ شفتيها :

– حاضر..

وقامت تجـرى إلى المطبخ وعندما عـادت إليه تحـمل فنجان القـهوة وجـدته لا يزال يضرب عـلى أوتار العود ويتـوقف فى فترات ليكتب على الورق حروفا موسيقية.. لعله يلحن..

ومد يده يشفط من فنجان القهوة وكأنه لا يحس بوجودها..

وجلست بجانبه صامتة.. واستمر ينقر على أوتار العود دون أن يحس بها بجانبه.. استمر مدة طويلة.. ساعتين وربما أكثر.. وهى لا تمل الصمت.. وعيناها مركزتان على أصابعه وهى تنقر على أوتار العود.. وأذناها متمركزتان على التقاط الأنغام.. إلى أن رفع رأسه وأزاح العود من بين ذراعيه وهو يشهق كأنه يزفر تعبه.. والتفت إليها مبتسما قائلا :

أهلا..

قالت فى حماس وكأنها التقت به بعد غيبة طويلة :

- إنه لحن رائع.. لم أعرف عنك ولم يخطر على بالى أنك ملحن..

قال مبتسما فى هدوء :

- إنى لا أعتبر نفسى ملحنا.. ولا ممثلا.. ولا إذاعيا.. ولا كاتبا.. ولا رساما.. رغم إنى ألحن وأمثل وأذيع وأكتب وأرسم.. إنى لا أطيق أن أحمل مسئولية تقديم أى فن لأى جمهور.. ولكنى أعيش الفن لأمتع به ذاتى.. إن الفن ينطلق من داخلى كأنفاسى التى تشعرنى بالحياة.. وأنا لست فى حاجة إلى أكثر من الحياة.. ولم تفرض على الحياة أن تحتاج ذاتى إلى جمهور..

قالت فى دهشة :

- ولكنك تظلم ذاتك وتظلم الجمهور بحرمانه من فن ذاتك..

قال فى هدوء :

- إن ذاتى ليست فى حاجة إلى الجمهور.. بل أنى أحمى

نفسى من الجـمهور.. فـالفنان الذى يخضع ذاته للجمـهور إنما يبـيع نفـسـه ولا يعـود فنه منطلقـا من داخـله بل يصـبح فنا مفروضا عليه من الجمهور.. يقدم له ما يشتريه ليقبض الثمن.. وما يعـانيه الفن هذه الأيام هو الفـارق بين قمة الروعـة الفنية وقيمة الشـهرة الشعبـية.. فأغلب أهل الفن أصبحوا يسعون إلى الشـهرة الشعبية ويهملون فى تقدير الروعة الفنية.. وقد وهبنى الله القـدرة على عدم السـعى إلى الشهـرة والاكتـفاء بمحـاولة البحث عن الروعة..

قالت وهى حائرة كأنها لا تستطيع أن تفهم ما يقول :

– ولكنك تظلم نفـسك.. كيف تستطيع أن تـعلن هذه الروعة إن لم تصل بها إلى الجمهور..

قال وهو ينظر إليها كأنه يشفق عليها :

– ما دمت قد وصلت إلى مستوى الروعة فإنها تصل تلقائيا إلى الجمهـور.. عشرات من الفنانين ظلوا مجهـولين حتى ماتوا ومضى على موتهم عشرات السنين إلى أن اكتشف الجمهور ما خلفوه من روعات فرفعهم إلى قمم الفن.

قالت وهى لا تزال حائرة :

– سأقـول لك أول تسـاؤل خطر على بالى ساعـة أن رأيتك فى استـديو السينما.. فـقد كان كـل من حولى يهمـسون بأنك ممثل رائع.. ثم سمعتك تجادل مسـاعد المخرج كأنك فعلا ممثل كبير له حق فرض آرائه ولست مجـرد كومبارس.. فلماذا تقدم نفسك إلى الـفن السينمائى ككومـبارس ولا تحـاول أن تفرض

نفسك كبطل من أبطال الشاشة..

ومد يده وأمسك بيدها يضغط عليها كأنه يريد أن تصل أعصاب أصابعها إلى تنشيط أعصاب عقلها حتى تفهم :

- لأنى صادق مع نفسى.. فإنى أحس أحيانا بنزعة فنية قوية تدفعنى إلى التمثيل أمام الكاميرا.. ولكن هذه النزعة لا تتجاوز دفعى إلى الوقوف أمام الكاميرا لبضع دقائق.. دقيقة أو اثنتين أو ثلاثا.. ولا تتجاوز إلى دفعى إلى تمثيل مشاهد تستمر الفيلم كله.. أى المشاهد التى يقوم بها بطل الفيلم.. لذلك ولأنى صادق مع ذاتى فكلما طرأت على هذه النزعة بحثت عن الوقوف أمام الكاميرا ككومبارس.. ودور الكومبارس يحتاج إلى فن كامل رغم أنه مجرد مشهد عابر.. وقد تتطور نزعتى إلى أن أقدم على تمثيل بطولة أحد الأفلام.. ولكنها لم تتطور حتى الآن..

قالت كأنها تلومه :

- إن التطور يفرضه الفنان على نفسه وعلى الجمهور وعلى كل ما أمامه.. وأنا تقدمت إلى دور كومبارس وأنا أخطط للتطور حتى أصل إلى الظهور كبطلة..

قال ساخرا :

- وقد رفضت حتى من بين مجموعة الكومبارس..

قالت فى حسرة :

- لا أدرى لماذا رفضت.. رغم أنى كنت أجمل كثيرا ممن تقدمن ..

قال مشفقا :

– رفضت لأنك أقدمت دون أن تكونى فنانة سينمائية.. إن الفن لا يهم مجرد القدرة على الأداء بل يهم أيضا طريقة الوصول إلى فرصة الأداء.. وقد فشلت فى اكتشاف طريقة الوصول لأنك لست فنانة سينمائية.. إنما لجأت إلى الفن السينمائى لأنك تريدين الشهرة وتريدين الثراء بالكسب الوفير.. ولأنك تعتبرين نفسك أجمل من ميرفت أمين أو شريهان أو ليلى علوى..

قالت وكأنها تهم بالبكاء :

– وكيف أصل ؟

قال فى هدوء :

– حاولى أن تكتشفى نفسك قبل أن تحددى ماذا تريدين.. وقد لا تكونى فنانة سينمائية، ولكن قد يكون فى داخل ذاتك فن آخر.. إنى ألتقط من كلماتك وأنت تتحدثين رنة موسيقية حلوة.. هل جربت الغناء..

قالت ضاحكة :

– لعلى أغنى منذ ولدت.. إنى لا أكف عن الغناء عندما أكون وحدى هادئة البال..

قال :

– ماذا تغنين ؟

قالت فى انطلاق :

– كل ما أسمعه من أغان أغنيه.. حتى الأغانى الأجنبية..

ماذا تريد أن تسمع.. هل تحب أن تسمع أم كلثوم ؟

وقبل أن يتكلم انطلقت فورا تغنى.. اعطنى حريتى أطلق يدى..

وعلت وجـهه مـلامح جادة والتـقط العـود من جانبـه وبدأ يعـزف لها لحـن أغنية أم كلثـوم.. وعندمـا رأته يمسك بالعـود انتقلت فوراً إلى أغنية.. كلمـونى تانى عنك .. فكرونى.. صحوا نار الشوق فى قلبى.. ولكنه صاح قبل أن تتم مقطع الأغنية..

– لا.. لا.. إن صوتك لا يمـكن أن يصل إلى المقام الموسـيقى لصوت أم كلثوم.. حاولى ترديد أغنية لمطربة أخرى..

ولم تبد عليها خيبة الأمل وصاحت كأنها فرحة :

– نجاة..

ثم بدأت تغنى.. حبك انت شكل تانى.. ولكنه عاد وصاح :

– ولا نجاة.. إن فى صـوتك رنة كأنها رنة زحـام الشوارع وليس معـبرا عن ضـعف وهدوء صوت نجـاة.. إن صوتك فى حاجة إلى ألحان خاصة به.. وسألحن لك أغنية.. أسمعينى أولا كل درجات صوتك.. قولى.. آه..

وانطلق صوتها.. آه.. ولكنها تـوقفت وهى تنظر إلى السـاعة المعلقة إلى الجدار.. وقالت :

– لقد وصلنا إلى الليل دون أن ندرى..

قال فى بساطة :

– هل يجب أن تعودى إلى بيتك..

وسكتت مترددة كأنها لا تريد أن تعود.. ليس لها بيت تعود إليه.. وإن كـان لها سرير تنام عليـه.. ولكنها قـبل أن ترد عليه

كان قد أزاح العود من بين يديه وقام واقفا وهو يقول مبتسما :

– أين البيت ؟

قالت وهى تجد نفسها تقوم لتنصرف كأنها مضطرة :

– فى شبرا.. إنى أقيم مع صديقتى شكرية..

وتوقف مترددا كأنه يهم أن يعرض عليها أن تبقى معه ما دامت لا تقيم مع أهل إنما تقيم مع صديقة.. إنه يستطيع أن يطمئنها بأنها ستقيم مع أمه.. ولكن كأنه عدل عن رأيه فخَطَا خارجا من البيت وكأنه يشدها وراءه.. وفى الطريق حدثته عن حالها فى كلمات سريعة دون أن تواجهه بعينيها كأنها تحادث نفسها.. إنها لم تر أبوها فقد مات قبل أن تعيه بعينيها.. وأمها تزوجت واضطرت أن تهرب من هذا الزوج بعد أن عانته طول طفولتها، وشبت إلى أن استطاعت أن تهرب إلى القاهرة وتعيش وهى تحفر الأرض بحثا عن الرزق.. وأهلها فى القرية لم يبحثوا عنها حتى أمها كأنها حمدت الله على ضياعها.. وهى تعانى فى بناء أيامها.. ولا تعرف كيف تبنيها ولكنها تحاول كل ما يضمن لها استمرار الحياة.. ورغم ذلك فهى قادرة على الاحتمال.. إنها تعتبر نفسها شاطرة.. وإيمانها بشطارتها هو الذى يدفعها إلى كل هذه المحاولات..

قال دون أن يرثى لها كأنه لم يفاجأ :

– وما هى الحياة..إنها استمرار فى محاولات.. والسعادة ليست فيما تصلين إليه بل فى قدرتك على الاستمرار فى المحاولة.. وقد يوجد رجل وصل إلى القمة، ولكنه لم يعد سعيدا

لأنه فقد القدرة على محاولة الوصول إلى قمة أخرى.. وتقوده تعاسته إلى الهبوط إلى منتهى القاع..

ثم قال وهو يتركها تدخل إلى حيث تقيم :

– غداً.. صباحاً.. سأوصى أمى بأن تعد لنا طبقا من البيض والفول..

وتركها.. وابتعد فى خطوات مطمئنة.. كأنه تعود العمر كله أن يلقاها ويفترق عنها لتعود إليه كل صباح..



وأصبحت كل أيامها معه.. والبيت كأنه بيتها.. وأمه كأنها أمها أو حماتها.. وتمر ساعات طويلة وكأنه بعيد.. يعيش فى دنيا أنغام يبحث عنها فوق أوتار العود.. أو يعيش مع القلم والورق يكتب صفحات.. ولا يدرى ماذا يكتب.. ولكن عينيها تتعلق بأصابعه وهى ملتفة حول القلم وتحس كأنها تقرأ كل ما يدور فى خياله.. وتفاجأ به يوما وقد نصب أمامه لوحة.. وجمع حوله ألوانا.. وأمسك بريشة وبدأ يرسم.. لا يهمها ماذا يرسم ولكنها دائما مبهورة بكل ما يضعه من خطوط وألوان.. وأيام أخرى يضعها كأنه يفردها أمامه ويبدأ فى بث اللحن وكلمات الأغنية التى أعدها لها.

ومهما ابتعد عنها فى دنياه فهى دائما دنيا تجعلها بقربه.. حتى عندما يترك البيت يصحبها معه.. كأنها زهرة يعلقها على صدره ولم يعد يستطيع أن يستغنى عنها.. وهى معه عندما يتردد على أستديوهات السينما.. أو على مكاتب بعض

الصحف.. أو على جلسات بعض الأصدقاء.. وعندما يذهب مع أمه إلى قريتها فى طريق القناطر الخيرية تكون معهما.. وقد عرفت أن أمه تملك هناك عشرة أفدنة مزروعة بأشجار المانجو والبرتقال.. ربما كانت هذه الأفدنة العشرة هى كل ما تمده من دخل مالى مستقر.. بل إنه كان يصحبها عندما يذهب ليقضى ساعات فى مقهى مدبولى عند أول مدخل العباسية.. وتجد نفسها المرأة الوحيدة بين الجالسين.. ولكنه لا يحس بأنه فرضها على زبائن المقهى.. إنه يحس أنه وحده وعليّة قطعة منه.. ولا يمكن أن يكون فى أى مكان إلا وعليّة بجانبه كأنها تبرز من داخله..

وكانت تعيش سعيدة.. أول سعادة تلتقى بها فى حياتها.. ولم يخطر على بالها أن تسأل نفسها هل تحبه وإلى أى حد تحبه.. يكفيها أنها سعيدة.. وقد زاد من سعادتها أنها اقتنعت بأنها مطربة رائعة.. وكان فى بعض جلسات الأصدقاء يمسك بالعود ويدفعها إلى الغناء.. وتغنى.. ولا يهمها أن تكتشف مدى إعجاب من يسمعونها.. وهو لم يحاول أن يستغل مواهبها بأن يدفعها إلى احتراف الغناء.. وهى نفسها لم تحاول أن تسعى إلى الاحتراف.. إنها تقضى اليوم كله وهى تغنى لنفسها.. أو تغنى له.. حتى عندما تغنى بين الأصدقاء لا تحس إلا بأنها تغنى لنفسها وله..

ومضت شهور.. وكانت عندما بدأت حياتها معه قد انتقلت لتقيم فى بيته .. وكانت تقنع نفسها بأنها انتقلت لتقيم مع أمه

بعد أن كانت تقيم مع صديقتها.. رغم أن الفراش يجمعها به لا بأمه.. ولكنها مع مرور الشهور بدأ يخطر على بالها تساؤل.. ما صفتها فى هذا البيت.. هل هى خادمة له ولأمه.. مجرد خادمة.. ولكنها لم تكن تريد أن تكون خادمة.. وهذه السعادة التى تغمرها لا يمكن أن تكون سعادة خادمة.. وهو نفسه لا يعاملها كخادمة..إنه يعاملها كأنها دنيا تنبض بالروائع.. ولكنه أيضا لا يحدد لها أى صفة فى هذه الدنيا.. إنه عندما يقدمها للناس وهى معه يكتفى بأن يردد اسمها عليّة.. ولكن ما صفة عليّة هذه بالنسبة له.. إن الناس أنفسهم لا يسألونه ولا يحاولون اكتشاف أى صفة لها.. لعلهم يكتفون بأنها مخلوق فى صحبة رأفت..

وأخذ هذا التساؤل يلح عليها.. وبدأ ينبض بنوع من الخوف على أن تضيع كل هذه السعادة فجأة وتجد نفسها حائرة وتائهة كما كانت..

وكانت فى أحضانه وهو لم يغمض عينيه بعد لينام عندما قالت هامسة.. وإن كانت همسة ثقيلة تحشرج صوتها :

– رأفت.. إننا لم نتزوج بعد..

قال وابتسامة مرحة ترقص على شفتيه :

– قطعا تزوجنا..

قالت فى دهشة وهى تعتدل جالسة من رقدتها :

متى وكيف تم هذا الزواج..

قال من خلال ابتسامته الراقصة :

- ما هو الزواج.. إنه إعلان وإشهار أن هذه المرأة أصبحت لهذا الرجل، وهذا الرجل أصبح لهذه المرأة.. ونحن أعلنا وأشهرنا منذ البداية أنك لى وأنى لك.. كل الناس الذين من حولنا أصبحوا يعرفون أن عليّة لرأفت.. ورأفت لعليّة.. أى أننا قد تزوجنا..

قالت وهو تحاول أن تبتسم فلا تستطيع :

- إن الناس لا تعترف بالزواج إلا إذا سجله المأذون على ورقة رسمية..

قال ضاحكا :

- إن الله عندما خلق سيدنا آدم لم يخلق معه مأذون ويضع بين يديه أوراقا شرعية ليزوجه من حواء.. إنما خلقهما وهما متفقان على الزواج وأنجبا هابيل وقابيل.. وهكذا عاش خلق الله فى منتهى السعادة والأمان.. الرجل للمرأة والمرأة للرجل بالإشهار والإعلان وموافقة كل منهما على أن يكون للآخر مع موافقة المسئولين عنهما..

قالت وهى تتنهد حسرة :

- ومن هم المسئولون عنا الذين أقروا أننا تزوجنا.. لم يكن لى أبدا مسئول عنى.. حتى أنت.. فمسئوليتك عنى ليست مفروضة عليك.. ولكنك تتبرع بها..

قال فى إصرار، وقد بدأت ابتسامته تختفى :

- لقد افترضت أن كل الناس مسئولون عنا لهذا أشهرت بينهم أنك لى وأنى لك.. فلم يعترض أحد ويعلن عدم موافقته..

قالت كأنها تئن :

- لعلهم يحتقروننا حتى يضنوا علينا بالموافقة أو الاعتراض.. ويكتفون بالفرجة علينا.. كأننا عورة مكشوفة تشدهم إلى فرجة مسلية يتندرون بها.. لماذا لا نرتفع إلى دنياهم ونعيش مستواهم نستدعى المأذون ليعقد قراننا..

قال فى حدة وقد اختفت ابتسامته عن شفتيه :

- تقصدين أن ننخفض إلى مستواهم.. هل تعرفين لماذا لجأ الناس إلى وضع قوانين وإجراءات تجمع بين الرجل والمرأة.. وخصصوا لهم موظفا مسئولا له سلطات الحاكم بأمر الله.. وهو المأذون.. ذلك لأنهم فقدوا ثقتهم بعضهم ببعض.. وأصبحت الحياة تقوم على افتراض الجريمة والخداع والغش.. فحاولوا أن يحاصروها بتقييد كل الرجال وكل النساء كأنهم كلهم أشرار.. لا يمكن الاطمئنان إلى إرادتهم، ويجب أن يعيشوا تحت إرادة القانون.. لم يعد هناك اعتراف بإرادة الفرد.. ولا افتراض أن هذه الإرادة يمكن أن تقوم على الحب الإنسانى.. والطهارة الإنسانية.. والصدق الإنسانى.. وإنى أتصور لو استدعيت المأذون ليعقد قرانى عليك كأنى ألجأ إلى موظف فى شركة سيارات لأشترى منه سيارة أركبها.. أو لأشترى منه ثلاجة تصون لى ما آكله... أو أشترى بوتاجاز يحتفظ لى بوهج النار التى أطهو عليها حياتى..

العقد بين البائع والمشترى لأن كلا منهما لا يثق ولا يطمئن إلى الآخر.. لا.. لن ألجأ إلى المأذون ليربطنى بك ويربطك بى..

ليس بيننا من يبيع نفسه للآخر أو يشترى الآخر.. إننا مرتبطان بقوة إرادتنا وحدنا.. إرادة تقوم على ارتباط شخصيتين كل منهما بشخصية حرة.. حريتهما أوسع حتى عن القانون.. ومهمة المأذون هو اغتصاب هذه الحرية.. يخيل إلىّ أن المأذون إنما يشد ورقة من دفتره ويلفها كأنه يصنع منها قرطاسا.. ثم يرفعنا نحن الاثنين ويلقى بنا فى هذا القرطاس.. لنعيش حياتنا كلها داخل قرطاس عقد الزواج.. لا.. إنى لا أحتمل أن نعيش أنا وأنت داخل قرطاس الزواج.. إننا نعيش أحرارا منطلقين فى سماء إرادتنا.. ولسنا فى حاجة إلى مأذون شرعى يقبر إرادتنا تحت الأرض.. ويضع رقابنا تحت سيف القانون كأنه يهددنا به..

وسكت رأفت وهو يزفر أنفاسه كأنه يستريح من مشوار طويل.. وقالت عليّة كأنها تحادث نفسها :

– هل نعيش الحرام أو الحلال..

قال رأفت من خلال زفراته :

– إن الحرام هو ما نخفيه عن الناس حتى لا تجاهرينهم بمعصية الله.. ونحن لا نخفى عن الناس لأننا لا نعصى الله.. فنحن نعيش فى الحلال..

قالت تائهة مع زفراتها :

– إن الحلال ليس ما ننفرد به دون بقية الناس.. إن الحلال هو ما يعترف به الناس ويعيشونه.. والناس لا تجمع بين رجل وامرأة إلا شرعا.. أى تجمعهم بعقد مكتوب على يد المأذون..

قال كأنه زهق من ترديد كلامه :

- إن المأذون يســـــجل إرادة هذا الرجـل وإرادة هذه المرأة.. ونحن قد سجلنا إرادتنا بإعلانها وإشهارها بين الناس..

ورفعت عينيها إليه وقالت كأنها قررت أن تلقى القنبلة :

- رأفت إنى حامل..

وواجـه عينيـهـا بالدهشة كـأنه فـوجىء وتاه فى المفاجـأة برهة.. وأخـرج لسانه يبلل به شـفتـيه كـأن دماءه قد جـفت.. ولكنه ما لبث أن استعاد وعيه وعلت شفتيه ابتسامة تخفف من صدمة المفاجأة.. قال منطلقا :

- هل صحيح.. هل سأصبح أبا..

قالت وكأنها تقذفه بكلماتها :

إذا لم نتـزوج زواجا شـرعيـا على يد مـأذون فلن تكون أبا ولن أكـون أمـا.. فـسـنقـتل مـولودنا وهو لا يزال جـنينا فى بطنى.... ولن أكـون وحدى المسئـولة عن قتله... سـتكون قاتلا معى.. فهو وليدنا نحن الاثنين..

وصاح رأفت ثائرا :

- لماذا نقتله... إن العالم كله سيعرف أنه ابننا نحن الاثنين.. وسنكتب فى شهادة ميلاده اسم أمه.. عليّة واسم أبيه.. رأفت.. وشهادة الميـلاد لا تفرض إبراز عقد الزواج.. يكتـفى الاعتراف بإرادة الأب والأم إنجاب مولود..

قالت كأنها تهم بالبكاء :

- أخاف على مولودى بأن يتهـمه الناس بأنه ابن حرام.. ثم

مـا ذنبه أن يولد لـوالدين لا يجمـعـهمـا الشـرع الذى يدين به الناس.. إنك لم تأخـذ رأيه قبل أن يولد فى اقـتناعك بأننا لسنا فى حاجة إلى هذا الشرع.. وقـد يعيش الدنيا وهو ساخط علينا نحن الاثنين.. يـقتلـنا لأننا جـئنا به إثمـا حـرامـا فى نظر كل الناس..

فلنقتله قبل أن يخرج إلى الدنيا ويقتلنا..

قال رأفت وقد بدأ يضعف فى مواجهة عليّة :

- إن مـجـرد اعتـرافنا بـه كأب وأم هو اعـتـراف وإعـلان لشرعية ولادته..

وصاحت عليّة ثائرة :

- لم أعد أحـتمل سـماع هذا الكلام الـذى تبرر به مـا تصر عليـه من أن أكـون لك جارية ولست زوجة.. وقـد كان الرجال « زمان » يعلنون ملكيتهم للجـوارى.. ويعترف لـهم الناس بهذه الملكيـة بمجرد إعـلانها.. يعـتـرفون بهـا كجـارية مملوكة لهـذا الرجل.. ويضعونهـا فى دنيا أخرى غيـر دنيا الزوجات.. ولكن إذا أنجـبت هذه الجـارية أسـرع الرجـل وأعلن اعـتـرافـه بهـا كزوجة.. ونقلها إلى دنيـا الزوجات.. حتى تكون أم ابنه، زوجة لا مـجرد جـارية.. فـإن الجوارى لا يعـتـرف بهن كزوجـات.. والمرأة لا يعترف بها كأم إلا إذا اعتـرف بها كزوجة.. وأنا قبلت أن أعيش مـعك جارية.. ولكنى لا أقبل أن أفـرض على مولودى أن يكون ابن جـــارية.. لا يمكـن أن يولد ويعـــيش إلا وهو ابن زوجة..

وهمَّ رأفت أن يرد عليـها مـجـادلا ولكن عليّة صـرخت فى وجهه..

- قم الآن واذهب إلى أُم حـسنين البـلانة وعُدْ بهـا لتقـوم بعـمليـة قـتل الجنين الذى فى بطنى.. لا أريد أن أذهب إليـهـا وحـــدى.. فـأنت الـذى وضــعت فــى بطنى هذا الجنـين وأنت المسئول عنه..

وسقطت رأس رأفت على صــدره وهو صامت.. ثم قام واقـفا وألقى العود الذى كان بين يديه ثم خطا خارجا وهو ينهج قائلا :

- انتظرينى..

وخرج رأفت..

وسقطت عليّة على وجهها ودموعها تعصر عينيها..



ومضت ساعة..

وعـاد رأفت إلى البـيت وبصـحـبـتـه رجل يرتدى الجـبـة والقـفطان وعلى رأسه عـمامـة ويحمل دفـترا كـبيـرا للأوراق وبصبحته اثنان من الغرباء..

وفـتحت عـليّة البـاب لهم وانطلقـت الدهشة صـارخـة على وجهها..

من هؤلاء ؟

ورأفت لا ينطق بكلمة..

ودخلوا وجلسوا..

وانطلقت ابتسامة واسعة على شـفتى عليّة.. ولسانها يترنح

دون أن تتكلم كأنها تزغرد فى صمت.. لا شك أنه المأذون وبطانته..

وشد رأفت عليّة من يدها وأجلسها بجانبه وقال للشيخ :

– اتفضل يا أستاذ.. لنبدأ على بركة الله..

وفتح المأذون دفتره وأخذ يترنم، ويسجل عقد الزواج، ووقع عليه الغريبان اللذان معه كشاهدين.. وأم رأفت واقفة فى آخر الغرفة صامتة هادئة كأنها لا تدرى ماذا يجرى أمامها..

وقام المأذون ومن معه وخرجوا بعد كلمات سريعة كأن لا معنى لها.. مبروك..

وقفزت عليّة من فرحتها وحاولت أن تلقى نفسها على صدر رأفت.. ولكنه أزاحها فى رفق.. ومد يده إلى العقد الذى تركه المأذون.. أخذ نسخة منه وأخذ يلفها بين أصابعه ويجعلها فى شكل قرطاس.. ثم أخذ القرطاس وعلقه على الحائط.. وصاحت عليّة ضاحكة :

– ماذا تفعل ؟

قال مبتسما ابتسامة ساخرة لا تخلو من مرارة :

– إنى أعلن الدنيا التى أصبحنا نعيش فيها.. أن دنيانا أصبحت فى هذا القرطاس.. قرطاس الزواج..

وصاحت عليّة ضاحكة والسعادة ترقص فى مرح :

– إنها أجمل دنيا دخلت إليها لأعيش فيها.. والقرطاس واسع.. يساعنا أنت وأنا.. ويساع أبناءنا.. ويساع حماتى.. ويساع كل ما يريده الله لنا..

قال وهو يستدير إليها ويأخذها بذراعيه إلى أحضانه :

– إنى لا أحس بها قرطاسا يجمعنى بك وحدك.. وكل ما عدانا يحتاج إلى أن نقيمه فى قراطيس .. والدنيا كلها قراطيس معلقة كالقراطيس المعلقة على عربات باعة الترمس.. وقرطاس الزوجة.. وقرطاس البنوة.. وقرطاس الميزانية.. و.. و.. وقد كنت أحاول أن أعيش بلا قرطاس.. ولكنى لم أعد أطمئن إلا وأنا داخل قرطاس يجمعنى بك.. وبعدها سنبدأ فى جمع بقية القراطيس.. وسأعيش وأنا أجر عربة محملة بالقراطيس..

ولم تحاول عليّة أن تفهمه.. وألقت نفسها بين شفتيه.. وهى تحس كأنها تغوص بينهما أكثر.. كأن الحياة لا تكتمل فعلا إلا داخل قرطاس..

أستغفر الله ..

لقد أصبح عادل الهجرسى يحس كأنه فيلسوف اجتماعى فقط.. أصبح يفلسف كل ما يحيط به من مظاهر الحياة بل أصبح يضع تفسيرا فلسفيا لكل فرد من أفراد المجتمع الذى يحيط به.. لقد ارتفع فوق القمة وأصبح يطل على الدنيا من تحته ، ويرى فيها مالم يكن يراه وهو يعيش فيها كمجرد واحد من أهل هذه الدنيا..

وكان من بين المبادىء الفلسفية التى اكتشفها. هو أن الفرد إذا غير عادة من عادات معيشته فإنه يجب أن يغير معها كل المجتمع الذى يعيش فيه.. فمثلا.. إذا قرر فرد يدخن السجائر أن يقلع عن التدخين فإنه يجد نفسه يبتعد عن كل المجتمع الذى كان يحيط به.. وهو مجتمع كل أفراده يدخنون.. وليس هو الذى اختار هذا المجتمع ولكنه وجد نفسه فيه منذ بدأ يدخن..

فــإن التــدخين ليس مــن غرائز الإنســان ولد بهــا وتشــمل كل الناس.. ولكنه عادة مكتسبة من ناحية من نواحى المجتمع.. وقد يكون قد بدأ التــدخين تقليدا لوالده حتى يصل مــثله إلى مظهر من مظاهر العظمة والقوة.. أو تقليدا لأصدقائه الذين سبقوه فى التدخين حتى يشاركــهم فى استكمال مظاهر الرجولة المبكرة.. ويجد هذا الفرد نــفسه يعيش وسط مجــتمع كله من المدخنين.. فــإذا قــاوم التدخــين وأقلــع عنه وجد نــفســه غــريبــا عن هذا المجــتمع.. بل يجــد نفــسه غــريبا حــتى عن أبيــه الذى لا يزال يدخن.. إنهــا غربة تفقــده التجــاوب الكامل مع عقليــة ومظاهر المجــتمع المدخن.. وهو يرى بعض الأفــراد من غــيــر المدخنين يترددون على مجتمع التدخين.. ولكنه يراهم كلهم كأنهم غرباء لا يتحــملون طويلا هذا المجتــمع.. حتى بين الأخ وأخــيه.. فــقد يكون أحدهما يدخن والآخر لا يدخن فإذا الواقع يفرض التباعد بينهما وكــأن كلا منهما يعــيش فى دنيا لا يعيش فيــها الآخر.. وهو تباعــد يفصل بين شخــصية كل منهــما وأخلاقــه وأهدافه وأسلوبه فى الحياة..

وقد وصلت به فلسفته إلى محــاولة اكتشاف السر فى تعود التدخين رغم أنه ليس من معالم غريزة الإنسان ، إنما هو مجرد اكتســاب لعادة من العادات.. واكتشف بما أقــنع نفسه به.. وهو أن التدخين هو تعود على تقــاليد مجتمعات أجنبــية خارجة عن المجتمع المصــرى.. فإن التدخين لم ينتشــر كل هذا الانتشار فى المجتمعــات المصرية إلا بعد الاحتلال البــريطانى.. وأصبح يمثل

مظهـرا من مظاهــر قــوة الإنجليـزى.. واندفع أفـراد المجـتـمع المصرى يحـاولون اكتسـاب هذا المظهر بأن يدخنوا كـما يدخن الإنجليز.. وقـبل الاحتلال البريطـانى كان المنتشر فى المجـتمع المصرى هو تدخين الشـيشة.. لأن الشيشة كـانت تمثل المجتمع التركى.. وكانت تـركيا هى التى تحتل مصـر والشيشة تعـتبر مظهرا من مظاهر العظمة والقوة التـركية ، ولذلك اندفع المجتمع المصرى إلى محاولة اكـتساب هذا المظهر بتدخين الشيـشة كما يدخنها الأتراك.. وحـتى الجوزة لابد أنها جاءت إلى مـصر من الخارج ، فـليس فى كل ما خلفـه قدمـاء المصريين من آثـار ما يثبت أنهم كـانوا يعرفون الجـوزة ، وأن تدخينها كان منتـشرا بينهم كانتشارها داخل المجتمع المصرى هذه الأيام..

وعـادل الهـجـرسى يمكـن أن يتـحـدث طويلا ، ويعـرض تفاصيل فلسـفته حول انتشار التدخـين فى مصر.. ولكن ليس المهم هو التـدخـين.. وهو نفســه يفـرط فى تدخـين السجـائر والشـيـشة والجـوزة ولا يخطر على بالـه أبدا أن يقلع عن هذا التدخين.. إنما المهم هو تعود تعاطى الخمر..

وهو يذكر أنه شـرب الكأس الأولى وهو طالب فى الجامـعة وكان يصحبه صديقه نبيل.. أو بلبل كما تعود أن يناديه.. وكان قد دعـاه صديق أكـبر منهمـا سنا إلى بيتـه وقدم لهـما الكأس مؤكدا أنها تفتح شهيتهما قبل تناول العشاء.. وقد فتحت الكأس شهـيتهمـا فعلا.. وقـضيا مع صـديقهما سـهرة لا تكف فيـها الضـحكات.. ولم تكن الضـحكات هى كل شىء فـقـد بدأوا من

ليلتها يتناولون الأفكار.. وكانت أفكارا تعلن عن عبقرية كأنها كانت مدفونة.. وعن جرأة فى مواجهة الواقع الذى كانوا يعيشون مستسلمين له.. وقد انتهى عادل ليلتها وهو ليس مخمورا.. ولا يمكن اعتباره سكرانا.. إنه يسير طريقه فى خطوات عادية ويقول كلاما ليس فيه أى كلمة شاذة ، أو لا يقصدها ولا يعيها..

ومن يومها أصبح هو وصديقه بلبل يتعمدان البحث عن الكأس.. ولم يتعودا أن يبحثا عنها كل ليلة أو يجداها فى أى ليلة يريدانها.. وكان بلبل تغلبه شهوته أحيانا فيمد يده إلى مخبأ زجاجات الخمر الذى يحتفظ بها أبوه فى البيت ويحرم ابنه منها لأنه لا يزال طالبا يذاكر دروسه.. يصب بلبل كأسا له وكأسا لصديقه عادل.. ثم يعودان إلى المذاكرة.. كأس واحدة لكل منهما.. كأنهما يريدان مذاق الخمر لا مفعولها..

إلى أن تخرجا كلاهما فى الجامعة.. وتخرجا بامتياز ووجد كل منهما عملا مشرفا مجديا.. وقد أصبحا يجتمعان كل ليلة فى بيت بلبل وزجاجة الخمر بينهما.. أو يكونان مدعوين إلى صديق يقدم لهما الزجاجة أيضا.. إنهما ودون تعمد أصبحا يختاران تلقائيا الأصدقاء الذين يقبلون قضاء السهرة معهم وكل منهم يقدم الزجاجة.. وعادل نفسه لم يكن يستقبل بلبل فى البيت ولا يدعو إليه الأصدقاء ، فليس فى بيته زجاجات ، وأبوه يحرم بشدة تقديمها ، ويعتبر مجرد وجودها رجساً من

عمل الشيطان.. وأصبح كلما أحس بواجب المجاملة ورد الجميل أن يدعو أصدقاءه إلى كأس فى أحد المحال أو الفنادق العامة وطبعا لم يعد عادل أو بلبل يكتفيان بكأس واحدة.. ولكنهما لم يصلا إلى منتهى الإفراط.. كأسان أو على الأكثر ثلاثا.. إنهما لم يسرفا فى تعود الاستسلام للخمر حتى يفقد أحدهما وعيه واتزانه..

وكانت شهيرة أخت بلبل تشاركهما جلسات الليالى.. وكانت هى أيضا وهى لا تزال عذراء تشرب كأسا أو اثنتين.. إن الكؤوس معترف بها فى تقاليد هذه العائلة..

وقد جمع الحب بين عادل وشهيرة.. وربما كان حبهما لا علاقة له بالكأس أو لم تدفعهما الكأس إليه.. ولكنهما كانا أشد إحساسا بهذا الحب ، وأشد جرأة فى التعبير عنه بعد أن يرتشفا الكأس الأولى..

وقد تزوجا..

وأصبح بيتهما لا يخلو أبدا من الزجاجة ، والكأس تجمعهما كل ليلة.. وقد يكون معهما بلبل أو يكونان قد وجها الدعوة لبعض الأصدقاء.. وأغلب الليالى وحدهما.. والزجاجة والكأس دائما تشاركان فى إحياء سهرتهما.. إن كل مظاهر وأحاسيس الحب بينهما لا تتجمع وتتركز إلا مع الكأس.. بل إن شهوة كل منهما إلى الآخر لا تنطلق إلا مع الكأس.. حتى أنهما تعودا ألا يذوق كل منهما قبلة الآخر إلا ومعهما ما تتركه الكأس من رائحة تنطلق إلى الشفاه.. كأن كلا منهما يقبل كأسا فى شفتى

الآخر.. كأس معطرة برائحة الويسكى أو الكونياك ، أو النبيذ ، أو الجبن.. وهذا لم يغير من طبيعتهما التى لا تتركهما يفرطان فى تناول الكأس.. فقط كأسان لكل منهما ويصلان أحيانا إلى ثلاث كؤوس أو إلى أربع.. دون أن يصلا إلى أن يكون أحدهما فى حالة هذيان السكارى..

وقد مرت السنوات وهو فى منتهى السعادة بزوجته وبنجاحه فى عمله.. إنه يبنى نجاحه بسرعة.. وكل فكره أصبح مركزا فى تحقيق مزيد من النجاح.. ثم وجد نفسه لا ينتظر ساعات المساء التى تجمعه خلالها الكأس مع زوجته.. إنه أحيانا ينسى الكأس إلى أن تذكره بها زوجته شهيرة وتدعوه إليها صارخة كأنه قد نساها هى شخصيا.. ويعود ويلتقط الكأس ، ولكن ليس فى منتهى الإقبال الذى تعوده.. بدأ يحس كأن الكأس تعكر تركيز فكره على مشروعاته التى يحقق بها نجاحه ، والتى أصبحت تأخذ كل عقله فى كل ساعات يومه.. بل إنه أصبح يضيق بجلسات الكأس مع صديقه بلبل ، ومع بقية أصدقاء الكأس.. أصبح يعانى وهو جالس معهم فى إبعاد فكره عن مشروعات نجاحه حتى يتفرغ للاشتراك معهم فى أحاديثهم المنطلقة بلا مسئولية.. وأصبح يحس بضحكاتهم كأنها قطع من الحجارة يقذفونه بها حتى يضحك معهم.. وحتى لو ضحك لا يحس بمتعة الضحك كاملة كما كان يحس بها.. ورغم ذلك فهو لا يزال يرفع الكأس إلى شفتيه كأنه يحترم تقاليد عائلية ثابتة لا يستطيع أن يخل بها..

إلى أن دهمته حالة أخرى بدأت تسـيطر عليه.. فإن استمرار نجاحــه فى عمله بدأ يشعــره بفضل الله عليــه.. وكلما نجح فى تحقــيق مشروع أحس بدافع قــوى إلى أن يصلى شكرا لله.. ثم بدأ يسائل نفسه عن إهماله أداء فريضة الصلاة.. لماذا لا يصلى دائمــا وكل الصلوات الخــمــس.. إن كل أفــراد عــائلتــه يؤدون الصــلاة كــاملة.. أبوه يصلى.. وأمــه تصلى.. وأخـوه الأكــبـر يصلى.. وأختــه تصلى منذ كانت طفلة ولا تزال متــمسكة بأداء الصــلاة بعد أن تزوجت وأنجـبت.. كــان هو وحده فى العــائلة كلهــا الذى لا يــواظب على الصــلاة.. كــان يدعــى أحــيــانا أداء الصلاة إرضــاء لوالده.. ولكنه لا يشغل نفــسه أبدا بدوافع أداء الصلاة.. كأنه الكافر الوحيـد بين أفراد العائلة.. ربما كانت هذه إحدى النوازع التى كــانت تسيطر على صباه وشــبابه.. نوازع الانطلاق بالحرية حتى حــرية التخلص من نوازع الدين.. ولكنه الآن لا تســيطر عليــه هذه النوازع.. فلمــاذا لا يتــخلص منهــا ، ويبدأ فى أداء كل فروض الصلاة.. إنه يؤدى فرض الصيام فى رمــضــان بحكم التــعود ، فــلماذا لا يــعود نفســـه أيضــا على الصلاة.. وبدأ يؤدى فــروض الصلاة فعلا.. بل أن دوافــعه إلى الصــلاة أصبحــت أقوى من دوافــعه إلى صــيام رمضـــان.. إنه يصوم بحكم التعود ، ولكنه يصلى بحكم وصوله إلى استكمال إيمانه بفضل الله عليه وحاجته إليه..

وكان يؤدى فــروض الصلاة فى البــيت.. وزوجتــه شهــيرة تنظر إلى ماجدً عليه وهى ساخرة.. لقد عرفته وأحبته وتزوجته

وهو لا يصلى.. فماذا جدَّ عليه.. لعله استجاب لنوازع شاذة أو لمظهر من مظاهر الجنون.. ولم يقلقها شذوذه أو جنونه فإنه لا شىء ينقص من حولها.. وهو لا يحاول أن يفرض عليها أن تبدأ هى الأخرى فى أداء فروض الصلاة.. إنه يتركها إلى أن يدهمها هى الأخرى دافع الصلاة.. لقد عرفته وأحبته وتزوجته، وكلاهما لا يصلى، ولكنه أصبح يصلى وربما دفعها الحب إلى أن تصلى معه حتى لا تتركه وحده فى صلاته.. حتى تقف معه بين يدى الله ليباركهما معا ويشملهما برضائه سبحانه وتعالى وهما معا.. هكذا كان يتمنى.. ولكن لا شىء يدفعها إلى تحقيق أمنيته بأن تصلى معه.. إنها ليست فى حاجة إلى شىء من الله، ولا ينقصها شىء منه هو شخصيا..

حتى الكأس لم تنقصها ..

لا تزال الكأس تجمعها بزوجها كل مساء.. وكل ما تغير فيه أنه لم يعد يقرب الكأس إلا بعد أن يصلى صلاة العشاء مكتفيا بأن يفرض على نفسه الأمر بأن لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى.. إنه لا يقرب الصلاة بعد أن يبلل شفتيه بالخمر حتى ولو لم يكن قد أصبح سكران، لذلك فهو لا يقرب الكأس إلا بعد أن يؤدى كل فروض الصلاة..

ولكنه يزداد نفورا من الكأس.. بينما شهيرة تزداد إقبالا على الكأس حتى أصبحت كأنها تغرق نفسها فيها.. إلى أن خطر له خاطر آخر وهو جالس معها وأمام كل منهما كأسه وقال مبتسما وهو يحتضنها بعينين تبرقان بحبه :

- شهيرة.. إننا نعيش فى بيت واحد.. وننام فى فراش واحد.. وكل ما فى الحياة نعيشه معا.. فلماذا لا نشرب من كأس واحدة..

قالت فى دهشة كأنها لا تفهم وكأسها فى يدها :

- ماذا تقصد ؟

قال وهو يلفها بمزيد من الحب :

- أقصد أن يكون لنا نحن الاثنين كأس واحدة.. أنت تأخذين رشفة من الكأس وأنا رشفة من نفس الكأس.. حتى لا يكون لكل منا كأس تبعده عن الآخر.. إن رشفة الكأس كأنها همسة.. فلتجمعنا الهمسات في كأس واحدة..

وأطلقت شهيرة ضحكة عالية كأنها وجدت لعبة جديدة تلعب بها.. وأبعدت كأسها من أمامها ، ومدت يدها إلى كأسه ورفعتها إلى شفتيها وارتشفتها.. ثم مدت يدها بها إلى شفتيه ليرتشف هو الآخر رشفة منها.

وقد كان يظن أن هذه الفكرة ستخفف عنها ثقل الخمر.. فقد أصبح هو الذى يمسك بالكأس ويرتشف منها.. وقد يدعى الارتشاف دون أن يرتشف منها ولاقطرة.. ثم يمدها إلى شفتيها.. ويسحبها قبل أن تتمادى فى ارتشافها.. ثم يعلن النهاية فى الوقت الذى يحدده ويدعوها إلى الفراش..

ولكن الفكرة لم تحقق ما يريد.. فلا هى أصبحت تخفف من شرب الخمر.. ولا هو أصبح مستريحا من الخمر.. رغم أنه لم يعد لهما سوى كأس واحدة.. إنها تمد يدها إلى الكأس قبل أن

يمـد يده إليهـا.. وتسكب فى جوفـها مـا تريده دون أن تتركـه يتـحكم فـيـما تـريده.. ثم تعطيـه الكأس وقـد لا تنتظر حـتى يرتشف منها وتعود وتأخذها إلى شفـتيها.. أو قد تصل الكأس إليه ، ويكتـفى بأن يبلل شفـتيه بما فـيها دون أن يسكبـها فى بطنه.. ويظل محتفظاً بها فى يده مـدعيا أنه لا يزال يشرب فلا تمهله طويلا وتشد الكأس إلى شفتيها..

إنها مدمنة..

ولا يمكنه أن يخفف من إدمانها..

وأخيـرا ثار على نفسـه لتردده وتحـايله فيمـا يريده.. وهو يريد أن يقلع عن شـراب الخمـر.. أن يحرمـها ولو على نفـسه وحده.. حـتى هذه الرشفـات من الكأس التى يبلل بها شـفتـيه أصبحت تتـعبه كأنهـا رشفات من النار تشعله أمـعاءه وتهرى معـدته ، ثم ترتفع إلى رأسـه وتصيـبهـا بصداع مـؤلم عنيف يستـمر حـتى صباح اليـوم التالى.. إنه لم يعـد يحتـمل شرب الخمر.. إلى أن كانت إحـدى الأمسيات وجاءت زوجتـه شهيرة بالزجاجة والكأس ووضعتهـا بينهما وهى تجلس بجانبه.. ومد يده والتقط الكأس ثم ألقى بها على الأرض بعنف..

وتحطمت الكأس ،.. وهو يصرخ :

- لن أترك الكأس تصل إلـى شفـتى.. خـلاص.. لن أشـرب الخمر..

ونظرت إليـه شهـيرة فى ذهول.. ثم تخلصت من ذهولـها ،

وقالت فى برود :

– أنت حر.. وأنا حرة..

ثم مدت يدها والتقطت كأسا أخرى صبت فيها الخمر ورفعتها إلى شفتيها وشربت كل ما فيها فى جرعة واحدة.. كأنها تغيظه وتتحداه..

وقضيا هذه الليلة وهو جالس معها صامتا يقلب فيما يصل إلى يده من صحف أو أوراق ويطل بعينيه على السطور دون أن يقرأ منها شيئا.. أو يفتح الراديو يحاول أن تستمع إليه.. أو التليفزيون يحاول أن يتتبع بعينيه ما يعرض أمامه دون أن يرى شيئا.. وهى بجانبه صامتة أيضا تملأ الكأس ثم تصبها فى جوفها إلى أن اكتفت فقامت مبتعدة عنه إلى الفراش وهى لا تزال صامتة..

ولعله أحس بأنه يجب أن يخفف عنها صدمتها بأن تركها تشرب الخمر وحدها.. فقام ولحق بها على الفراش ومد ذراعه يحتضنها.. ولكن ما أن همّ بأن يضع شفتيه على شفتيها حتى دهمته الرائحة المنطلقة منها.. رائحة الخمر.. وقد كان لا يشم هذه الرائحة وهو مخمور مثلها تنطلق منه هو أيضا نفس الرائحة.. أما الليلة وهو لم يشرب الخمر فلم يستطع تحمل رائحتها.. إنه يحس بها كزوبعة كريهة تعصف به.. وهى أيضا.. أنها تحس بشفتيه كأنهما شفاه ميت فقد الحياة..

ومضت الأيام مع مزيد من التباعد حتى أصبحت شهيرة تقضى أمسياتها وحدها مع الكأس ، بينما عادل وحده فى

الغرفة الأخرى يقرأ أو يشاهد التليفزيون.. وهو يتمنى كأنه يحلم بأن تصدر الحكومة المصرية أمرا بمنع الخمر وتحريم وجوده تطبيقا لأوامر الإسلام ، ولكن في مصر أديانا أخرى لا تحرم شرب الخمر.. ومجرد إصدار هذا الأمر بالتحريم لا يعنى ألا يشرب أحد ، ولكنه يفرض صفة اجتماعية تقلل من الإقبال على شرب الخمر ، وتحريم الحشيش لم يقض عليه ، ولكنه أقام صفة اجتماعية جعلت مجال الحشيش ضيقاً على الأقل ، جعلت أى فرد ينكر أنه حشاش حتى لو كان حشاشا.. وقد يؤدى تحريم الخمر أيضا إلى أن يصبح شربها سرا يختبىء به الشاربون وليس مظهرا علنيا يتباهى به الشاربون.. ولكن المشكلة أساسا هى أن الدول المصدرة للخمور هى دول راقية ، وأى دولة أخرى تحرم الخمر تدخل فى معركة أقرب إلى الحرب ، وقد سبق أن حرمت أمريكا الخمر فدخلت فى معارك استمرت سنوات مع باعة الخمر تساندهم كل الدول التى تصنع الخمر وتصدره.. وانتهت هذه المعارك بهزيمة الدولة الأمريكية وعادت إلى إباحة الخمر.. لا أمل فى أن يتمنى بأن يصدر أمر بتحريم الخمر حتى يفرضه على زوجته شهيرة..

إلى أن فوجىء ذات ليلة باختفاء زوجته.. إنها ليست فى غرفة الجلوس تشرب كأسها.. ليست فى البيت كله.. وكاد يجن.. أين ذهبت.. لا يمكن أن تكون قد انتحرت بعد أن هجر ليالى الكأس معها.. وأمسك بالتليفون وأخذ يسأل عنها لدى كل من تعرفهم إلى أن وجدها لدى أخيها.. إنها معه.. تشرب معه..

وكانت حـجتها بسيـطة.. إنها لا تستطيع أن تستـسلم للانفراد طول عمرها بكأسـها.. وأخوها يشرب فـقررت أن تعيش وهى تشرب معه..

وقد اسـتسلم ، وإن كان قد حـاول أن يقنع أخاها بأن يأتى إلى زيارته البيت ، ويشارك زوجـته الكأس هنا لا هناك.. ولكن أخاها قال ضاحكا :

- إنى لا أطيق أن أجـلس وفى يدى كـأس وأمـامى واحـد يرفض الكأس ويحلق فىّ كأنه يتمنى أن يخنقنى حتى لا أصب الكأس فى زورى..

وأصبحـت هذه هى حياتها.. تذهب كل ليلة لتـشرب الكأس مع أخيها.. وطبـعا ليس أخوها دائما وحده فكثـير من أصدقائه يجتمعون كل ليلة فى سهرة خمر.. ولعل زوجته شـهيرة تنضم إليـهم وتقضى السـهرة بيـنهم وهى سكرانة.. ترى ماذا يقـال ومـاذا يحـدث.. والأوهـام تلهب أعـصـاب الزوج المسـتـسلم الضـعـيف.. وقد بـدأ عادل يناقـش نفسـه.. إنه يحب زوجـتـه ويريدها ، فـإذا كانت الكأس هى أقـوى ما يجـمعـهما ، فلـماذا يهجر الكأس.. لماذا لا يعود ويشرب الخمـر حتى يحتفظ بحبه.. إن الإسلام لا يمكن أن يقسـو على المؤمنين به إلى أن يحرمهم من الحب الشرعى حـتى لو كان من المكتوب عليهم أن يـتحدوا التقاليد ، ويشربوا الخمر..

وبدأ فى إحدى الليـالى يشرب.. كان وحده.. زوجـته تركت البيت إلى أخيـها كما تعودت أخـيرا.. وقد جاء بزجاجـة الخمر

ومعـها الكأس ، وجلس الجلسة التى كـان يجلسها مع زوجـته وهى تشاركه الخـمر.. بل أنه جاء بكأس أخرى ووضـعها على المائدة كأنهـا زوجته وفى انتظار أن ترشف منها.. وهو يبـتسم ساخرا بـينه وبين نفسه.. لقد وصل إلى حـد أن أصبح يجلس وحده ويشرب وحده.. مع أنه لا يريـد من الكأس إلا أن تجمعه بزوجته.. ولكن لليلة واحدة يفرض على نفـسه فيها العودة إلى شرب الخـمـر.. وغدا سيشربها مـعها.. لن يتركهـا تغادر البيت بحثـا عن من يصاحـبها الكأس ، سـتجمع الكأس بيـنه وبينها وحدهمـا.. فى الغرفـة التى كانا يقـضيـان فيهـا ساعـة يعدان نفسيهما للانتقال إلى الجنة التى تجمعهما فوق فراشهما..

ورفع الكأس وشرب أول رشفـة.. وأحس كأنه يشرب المر.. لم يعد يحس بأى مـتعة فى الكأس.. وشـرب الرشفة الثـانية ، وكأن النار قد اشتعلت فى معـدته ومصارينه.. ولم يعد يحتمل بل أنه بدأ فى الصـراخ وهو يتلوى على مـقـعده وهو يضـغط بيـديه على معـدته ومـصارينه.. ولم يعـد يجـرؤ على مجـرد التفكير فى الرشفة الثالثة.. وليعترف بالحقيقة.. إنه لم يقلع عن شرب الخمر لمجرد التمسك والصلاح ، ولا تمسكا بتعاليم الدين الإسـلامى.. إنه أقلع عن شـرب الخـمـر لأنه لم يعـد يحـتـمل شربها.. إنه مـريض ولم تعدد أمعاؤه تحتـمل تلقى الخمر.. إنه لم يهـرب من الخـمر ، ولكنـه يهرب من الآلام التـى أصبـحت الخمر تصبها على معدته وأمعائه ، وتشتد حتى ترتفع إلى عقله ويحس بأن رأسـه يكاد ينفجـر من جـحيم الصـداع.. هذه هى

الحقيقة.. لقد هجر شرب الخمر لأن معدته لم تعد تحتمل شربها.. إنه لم يتطور فى إيمانه بتعاليم الدين وفى تمسكه بشعائر الفضيلة ، ولكن صحته هى التى تطورت وتركته وهو لا يحتمل أن يشرب الخمر.. معدته ومصارينه هما اللذان فرضا عليه الامتناع عن شرب الخمر.. وليس عقله هو الذى ألح عليه حتى أخذه إلى دنيا الإيمان بتعاليم الدين وإلى دنيا الفضيلة..

إذن : فليس من حقه أن يلوم زوجته شهيرة لأنها لا تريد أن تشاركه فى الامتناع عن شرب الخمر.. إنها ليست مريضة مثله.. والخمر لا تسبب لها الآلالم التى تسببها له.. إنها لا تزال تجد فى الخمر متعة الطيران إلى أعلى بعيدا عن هموم الدنيا.. ليس من حقه أن يلومها إذا لم تمتنع معه عن شرب الخمر.. إن الأسباب التى دفعته إلى التوبة عن الخمر لا يستطيع أن يفرضها على زوجته شهيرة.. لا يستطيع أن يفرض عليها هى الأخرى أن تمرض بمعدتها ومصارينها حتى لا تقبل الخمر.. ولكن كان يمكنها أن تكتشف أنه مريض وتراعى واجبها بعد أن أصبح مريضا فتمتنع هى الأخرى عن شرب الخمر حتى لا تتركه وحيدا مع المرض.. إن واجب الزوجة الكاملة أن تراعى حالة زوجها وتعيش فى حدود ما تستطيعه حالته.. إنها ليست مريضة ولكن زوجها مريض وهذا يكفى لتبتعد عن الكأس.. ولكن شهيرة ليست زوجة كاملة.. وهو يحبها رغم إنها ليست كاملة..

هذه الخواطر التى تزحف عليه ويقضى ساعاته فى

مناقشتها جعلته يتحمل أكثر الاستسلام لكل تصرفات زوجته شهيرة.. وقد أحس أنه أصبح يعتمد على بركة الله وحده فى تحمل هذ الاستسلام.. ووجد نفسه يتقرب إلى الله بأداء المزيد من فروض الدين.. أصبح يبالغ فى أداء الصلاة ويصلى التراويح.. ويحرص على صلاة الجماعة فى المساجد.. وأحيانا تطوف على شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يسأل نفسه.. هل كانت زوجته شهيرة يمكن أن تصلى معه.. إنها طوال عمرها كله لم تتجه إلى الله بركعة واحدة.. وهى ليست كافرة ولكن لعلها أقنعت نفسها بأ الله فرض الصلاة على الغلابة الجهلة.. وهى ليست من الغلابة الجهلة.. إنها تصل إلى الله بالمناقشة الواعية التى تفرض الحلال.. وتصل إليه بأن تمتع نفسها بالحياة لأنه هو الذى خلقها ووضعها فى هذه الحياة..

إلى أن فوجىء فى إحدى الأمسيات بزوجته وقد جلست حيث تعودا أيام زمان أن يقضيا أمسياتهما ، وقد وضعت أمامها زجاجة الخمر وكأسا واحدة.. كأنها استسلمت هى الأخرى أنها لن تجد قى بيتها من يستحق كأسا أخرى.. ووقف أمامها كأنه مذهول بهذه المفاجأة.. لماذا لم تذهب هذه الليلة لتشرب الكأس مع أخيها.. ونظرت إليه نظرة عادية وبين شفتيها ابتسامة كأنها تربت بها على خده.. كأن ليس هناك جديد تحمله هذه المفاجأة ، وقالت من خلال ابتسامتها :

- اجلس يا عادل.. واسمعنى.. لقد مرت الآن شهور ولم نعد نستطيع أن يعود كل منا إلى الآخر كما كنا.. لذلك فإنى أجد أنه

من الأفضل أن تكون لكل منا حياته.. أى أن ننفصل.. ولا تكون زوجى ، ولا أكون زوجتك..

وصاح مذهولا :

- ماذا تقصدين..

قالت وهى لا تزال تبتسم :

- أقصــد الطلاق.. وكل منا يصبــح حرا فى بناء حيــاته من جديد..

قال فى ضعف يهز صوته :

ولكننا نعيــش أحرارا بلا طلاق.. أنت حرة فى كل حــياتك ، وأنا حر رغم أننا زوجان..

قالت فى حدة كأنها تهدد :

- إن مجــرد أن نعيش فى بيت واحــد لا يعتبــر زواجا.. إننا مطلقان داخل البيت فلنجعلها حيــاة طبيعية ونعيش الطلاق كله دون أن يجمــعنا بيت.. إنى مصممــة على الطلاق ، ولا تجعلنى ألجأ إلى وسائل أخرى..

وأحس بالثــورة تزحف عليــه وتثيــر أعــصابه وصــرخ فى وجهها :

- لم يكن يجمعنا إلا الحب الذى عشناه منذ صبانا.. فما دام الحب قد تخلى عنك فأنت طالق.. طالق.. طالق..

وتركــها خارجــا بعد أن مــد يده ورفع زجــاجة الخمــر من أمامــها وألقى بها على الأرض وحطمــها.. ونظرت إليه شــهيرة ساخــرة وتتبعــته حتى اخــتفى ، ثم فتــحت الدولاب وأخرجت

زجاجة أخرى.. وعادت تشرب..

وقد ذهب وأقام مع عائلته وتركها تعيش وحدها فى بيتهما.. إنه يعتبر أنه طلقها فعلا ، ولكنه لم يتخذ أى إجراء رسمى لتسجيل وإعلان هذا الطلاق.. وهى أيضا لم تطالب بإجراءات إعلان الطلاق.. يكفى أن كلا منهما قد أصبح يعيش وحده ليكونا مطلقين.. وهو يعيش معها فعلا طوال كل يوم.. لايكف عن التفكير فيها وتخيل تصرفاتها.. ترى كيف تعيش وكيف تفكر وهو بعيد عنها.. ربما كانت قد طلبت الطلاق لأنها تريد أن تتزوج واحدا من شلة الخمر التى تجمعها فى السهر مع أخيها.. مستحيل إنها لا تستطيع أن تتزوج ، فهو لم يتخذ إجراءات الطلاق وإن كان يعيشان كمطلقين.. وعلى كل حال.. فإذا كان من حقها أن تبحث عن زوج آخر فهو من حقه هو الآخر أن يبحث عن زوجة أخرى.. ولا يكفى أن تكون هى الأخرى على خلق وشرف ومن عائلة محترمة.. و..و.. إلى آخر اللائحة التى تحدد عملية البحث عن زوجة.. إنما يجب أن تكون معه فى كل تفاصيل الحياة.. حتى يمكن أن تجمعهما حياة فى هذه الدنيا فهو الآن لا يشرب الخمر فيجب أن تكون هى الأخرى لا تشرب.. وهو يعانى ضعفا فى معدته ومصارينه ، فيجب أن تكون لها معدة ومصارين تعانى هذا الضعف.. على الأقل حتى يعيشا داخل أصناف واحدة من الأغذية.. والأهم من ذلك أنه الآن فى الخامسة والأربعين من عمره ، فيجب أن تكون هى فى الأربعين على الأقل.. فإن الزواج لا ينجح إلا إذا جمع

بين اثنين من جيل واحد.. أى أنه يجب أن يتزوج من جيل الأربعين..

وقد مضت شهور طويلة وهو يعيش وحدته فى بيت عائلته دون أن يمضى يوم دون أن يقضيه مفكرا فيها ومتخيلا حياته بعيدا عنها.. إنه يحبها.. ولا يستطيع أن يطلق حبها حتى لو طلقها هى شخصيا.. وكان فى هذه الشهور قد بدأ يحس باسترداده لكامل قوة كيانه.. حتى قوة معدته ومصارينه.. والفضل طبعا لرعاية أمه التى كانت مشرفة على كل تفاصيل حياته ، بل وعلى كل لقمة تدخل إلى فمه ويأكلها.. وكانت مؤمنة بأن أقوى ما فى الطب هو الاستسلام للطبيعة.. حتى أنها منذ يومين وضعت أماما لقمة ساندوتش من الفسيخ.. مادام خلق الله قد اكتشفوا الفسيخ منذ آلاف السنين فلا شك أن فى الفسيخ فوائد دفعت خلق الله إلى اكتشافه فلماذا لا يجرب أكل الفسيخ.. وقد أكل سندويتش الفسيخ مرغما تحت إلحاح أمه.. ولكن من العجيب أنه أحس بالراحة فعلا بعد أن أكل الفسيخ.. أحس كأن معدته ومصارينه قد استردتا كل قواهما كأنهما كانتا تلعبان لعبة رياضية مع الفسيخ.. إلى أن سأل نفسه يوما.. لماذا لا يجرب.. وليعترف بالواقع.. لقد حرم على نفسه شرب الخمر لأنه كان قد أصبح لا يتحملها فى بطنه.. فليجرب.. ربما يستطيع الآن أن يتحملها.. وفعلا ذهب واشترى زجاجة من الخمر.. وأعد الكأس.. وردد فى منتهى الإخلاص أستغفر الله.. أستغفر الله.. ثم صب الكأس بين شفتيه.. عجيبة..

إنه لا يحس بأى قلق ولا أى ألم.. إنه يستطيع الآن أن يشرب.. أن يعود إلى الخمر..

ورفع سماعة التليفون بسرعة واتصل بزوجته شهيرة.. إنها فى البيت.. ولم ينطق بأى كلمة.. أعاد سماعة التليفون ، ثم قام مسرعا مهرولا بعد أن حمل زجاجة الخمر فى يده.. وركب سيارته وانطلق مسرعا إلى بيته.. بيت الزوجية القديم..

ودخل البيت وشد شهيرة من يدها وأجلسها حيث تعودا أن يجلسا أيام زمان لقضاء الأمسيات ووضع بينهما زجاجة الخمر ، ثم قام وأتى بكأس لها وكأس له.. وبدآ يشربان..

وقال بعد الكأس الأولى..

– لنعد كما كنا..

قالت وهى تلقى بنفسها فى أحضانه :

– لقد كنت دائما معى.. لا يشغلنى عنك إلا الكأس.. والآن كلاكما معى..

أنت والكأس.. وشفتاه فى شفتيها.. كأنه يشرب الخمر من أنفاسها..

وعادا..

ولم يتغير منه شىء إلا أنه يغالى فى أداء الصلاة حتى صلاة العشاء ، ولا يكف عن أن يردد بينه وبين نفسه.. أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله..

غـريبـان من بطن واحـدة ..

لم يكونا شقيقين ولكنهما أخوان.. من أم واحدة وكل منهما له أب.. الاسم الثانى.. أى اسم العائلة. فكل منهما يحمل اسم أبيه.. الأخ الأكبر محمود الصفرانى.. والأصغر مصطفى عبد الخالق.. ومجرد اختلاف الاسم الثانى كان يشعر كل منهما بأنه غريب عن الآخر ولا يشعران حتى بأنهما من أُم واحدة.. ورغم ذلك فقد عاشا مرحلة طويلة من العمر وهما فى بيت واحد، وتحت رعاية أم واحدة وأب واحد.. وقد تعودا كلما التقيا بغريب عنهما أن يذكرا له بعد إعلان اسميهما له بأنهما أخوان.. لأن الاسم وحده لا يكفى لإعلان أخوتهما.. ولا حتى هناك تشابه بينهما يثير افتراض أخوتهما.. فكل منهما لم يأخذ شيئا من ملامح أمه تشركه مع الآخر فى تشابه واحد.. بل إن كلا منهما صورة من أبيه.. الأخ الأكبر محمود الصفرانى طويل القامة وبشرته لها

لون أسمر فاتح وأنفه كبير مدلى حتى شفتيه.. وشعر رأسه ناعم منظم فوق رأسه.. الأخ الأصغر مصطفى عبد الخالق قصير القامة.. وبشرته لها لون أسمر غامق.. وكل ما على وجهه صغير.. أنفه صغير.. وشفتاه فى خط ضيق رفيع.. وعيناه ضيقتان.. وشعر رأسه أكرت منطلق بلا تنظيم كأنه حشائش برية سوداء تغطى قطعة من الأرض..

ومنذ أن انطلق وعى كل منهما بالحياة وهما مختلفان فى كل ما تدفعهما إليه هذه الحياة.. كأنهما متناقضان.. ووصل بهما التناقض إلى حد التباعد بينهما.. كان كل منهما لا يطيق الآخر.. محمود لا يطيق مصطفى.. ومصطفى لا يطيق محمود..

ولم يكن دافع هذا التناقض هو أن كلا منهما يعيش فى رعاية أب غير أب الآخر.. فأب محمود قد مات قبل أن يراه.. وأب مصطفى رغم ما هو معروف عنه من صرامة عنيفة إلا أنه لا يفرق فى معاملة الولدين.. حتى من ناحية إحساسه وعواطفه.. فلا يبدو أنه يفرق فى إحساسه بابنه عن إحساسه بابن زوجته.. بل كلاهما نشأ وكأن هذا الأب لا يحس بهما هما الاثنان.. إنه صارم فى فرض إدارة حازمة على بيت العائلة تجمع كل من فيه.. وربما لا يحس بالبيت إلا كدكان من أحد دكاكين مشروعاته المتعددة التى يديرها وينجح فى إدارتها.. بل إنه يبدو كأنه لا يخص ابنه بما يميزه حتى يكون قادرا على صيانة الإرث من بعده.. إن ابنه هو الذى سيرثه فى حين سيبقى الابن الآخر بعيدا عن هذا الإرث.. ولكنه لا يشغل نفسه

بمصيـر هذا الإرث.. أما أمهمـا.. وهى الكيان الذى أنجبهـما من بطن واحدة.. وأمـدهما بماء الحيـاة من كوز واحد.. فـهى امرأة طيبـة فى غاية الطيبـة.. ومستسلمـة إلى منتهى الاستـسلام.. وربما كان عقـلها أضيق من أن يتسع لمراقـبة هذا التناقض بين ولديهـا.. ومـحاولـة فهم أسـبـابه والسـعى إلى التـغلب عليـه والجـمـع بينهـما فـى أخوة صـادقـةلا تترك مـجـالا لكل هذا التناقض..

ولعل الدافع الأساسى لهـذا التناقض والتباعـد بين الأخوين هو الاختلاف الواضح الواسع بين الشخـصية التى ولد بها كل منهما.. فالأخ الأكبر محمـود يعتبر شخصية هادئة منطوية منذ ولد.. حـتى أنه لـم يكن من طبـيـعـتـه السـعى إلى ثدى أمـه ليرضـعه.. كأن ليس من طبيـعته أن يحس بالجـوع.. فلا يبكى ولا يصـرخ مطالبا بالـرضاعـة ويظل هادئا مسـتـسلما حـتى تتذكـره أمه وتقدم له ثديهـا.. ويظل يرضع حتى تجـد أمه أنه أخذ ما يكفى فتسحب ثديها من بين شـفتيه.. أما مصطفى فمنذ ولد وخـرج إلى الحيـاة وهو لا يكف عن المطالبـة بالرضاعـة.. كـأنه لا يشـبـع أبدا.. أو كـأنه لا يمكن أن يتـنازل عن حق من حقوقه أو شىء يستطيع أن يصل إليه حتى بلا حق.. وتستسلم له الأم وتعطيه ثديهـا حتى إذا قدرت أنه قد أخذ كـفايته وهمت أن تسـحب ثديها من بين شفتيـه، وعاد يصرخ بكل طاقته حتى تعيد له الثدى.. حـتى لو أغمض ونام وهو يرضع وحاولت الأم أن تسـحب ثديها منه فتح عينيه صارخا، ولا يمكن أن يسكت إلا

إذا عاد الثدى إلى شفتيه.. كأن طبيعته لا تدفعه إلى مجرد الشبع، ولكنها تدفعه إلى الاستئثار بكل ما يملكه.. وهو يعتبر نفسه مالكا لثدى أمه.. وليست أمه هى التى تملك ثديها..

وقد ظل هذا التناقض يتسع مع عمرهما.. وعندما كانا صبيين كان محمود يلاحظ أنه عندما يجلس ليلاعب أخاه مصطفى لعبة السيجة أو الكوتشينة إنه يغش فى اللعب.. ويتسلل بأصبعه لينقل حجرا من أحجار السيجة أو ورقة من أوراق الكوتشينة خروجا على أمانة اللعب.. فيصرخ فى وجهه.. وإن كانت صرخاته دائما بريئة لا تحمل قوة التحدى والتهديد.. وأخوه مصطفى يرد على صرخاته ضاحكا ويقول فى تفاخر :

- ما هو الغش.. إنه شطارة.. ولا يهم أن تغش أو لا تغش، ولكن المهم هو أن تؤكد شطارتك بأن تكسب.. وهذه هى المرة الأولى التى تقاوم فيها شطارتى وتنتهى بالغش.. ولكنى كسبتك مئات المرات من قبل دون أن تجد ما تقاوم به شطارتى.. فارحم نفسك من شغل عقلك باكتشاف الغش، أو عدم الغش.. واحصر كل أهدافك فى أن تكسب.. لعلك تكسبنى..

واكتفى محمود بأن يلوى شفتيه قرفا، فقد تعود أن يسمع من أخيه مصطفى مثل هذا الآراء القذرة التى يحس كأنها تحريض على الحرام..

حتى عندما كانا يلعبان مع صبية الحى ألعابا رياضية كان مصطفى يغش فى كل لعبة يلعبها.. وينتصر.. أو يتفوق.. ولكنه

لم يلعب أبدا لعبة كرة القدم.. ربما لأن مجال الغش فى هذه اللعبة ليس متوفرا، فى حين أن محمود كان متعلقا بلعب الكرة لأن الغش ليس من طبيعته..

وحتى فى امتحانات المدرسة.. لقد كان محمود يرقب أخاه مصطفى وهو يقضى ليالى قبل الامتحان فى إعداد الأوراق التى تسمى فى مجتمع الطلبة بأوراق « البرشام » يسجل عليها المواد التى يقدر أنه سيمتحن فيها ويخفيها فى كم سترته، أو فى أنحاء بنطلونه حتى يغش منها وهو يمتحن.. وقد كان مصطفى ينجح فى كل امتحان.. بل كان يتفوق بنجاح على نجاح محمود الذى لا يحاول أبدا أن يغش أو يعتمد على أوراق البرشام.. حتى أصبح معروفا فى العائلة أن الأخ الأصغر أشطر من الأخ الأكبر.. وقد كان الاثنان متزاملين دائما فى نفس المدرسة، وفى نفس الفصل الدراسى رغم فارق السن بينهما.. ربما لأن محمود كان مهملا فى طفولته إلى أن تأخر إلحاقه بالمدرسة إلى أن ألحق بها مع أخيه الأصغر.. إلى أن حدث فى أحد الامتحانات المدرسية أن التقط المدرس الرقيب صورة مصطفى، وهو ينقل عن ورقة البرشام فصاح فيه من آخر الصالة :

– ما هذه الورقة التى بين يديك..

وقبل أن يصل إليه كان مصطفى قد دس ورقة البرشام فى جيب أخيه محمود الذى يجلس بجانبه دون أن يحس محمود بشىء متفرغا لكتابة إجابته عن أسئلة الامتحان.. وقال

مصطفى للمدرس الرقيب الواقف فوق رأسه :

- ليس معى أى ورقة.. عجيب يا أستاذ أنا ليس من هذا الصنف الذى يحاول أن يغش..

وصاح الأستاذ :

- لقد رأيت الورقة بعينى..

ثم أخذ يفتش فى جيوب مصطفى وفى أنحائه.. بينما مصطفى ينظر نظرات خبيثة إلى أخيه محمود كأنه يخاف عليه أن يفتش هو الآخر.. ولم يجد المدرس مراقب الامتحان أى برشامة يحملها مصطفى، ولكنه كان قد لاحظ نظراته إلى أخيه.. فتركه وفاجأ محمود بأن بدأ يفتشه هو الآخر.. ومحمود تكاد تخنقه المفاجأة.. وما كاد الرقيب يدس يده فى جيبه حتى التقط منه ورقة البرشام. وصاح :

- إذن هو أنت الذى كنت تغش..

وصاح محمود :

والله العظيم لست أنا صاحب هذه الورقة.. ولا أدرى كيف دخلت جيبى..

والله العظيم أنا عمرى ما غشيت..

ثم أجهش بالبكاء..

ولكن المدرس لم يرحمه وأمسك بتلابيبه وقاده مقبوضا عليه إلى مكتب التحقيق.. ومحمود يبكى ويقسم على أنه برىء دون أن يتهم أخاه بأنه صاحب هذه البرشامة.. ولعله هو الذى دسها فى جيبه..

وكان محمود معروف فى المدرسة بأدبه ودماثة أخلاقه، وهدوء طباعه.. لذلك بدأ ناظر المدرسة يعامله برفق.. وبعد أن قارن بين ما هو مكتوب فى ورقة البرشام وما كتبه من أجوبة فى ورقة الامتحان.. ثم مقارنة الخط المكتوب هنا وهناك.. قرر براءته وإعادته ليتم الامتحان.. وإن كان حضرة الناظر يحس بأنه غلبته شفقته على محمود.. بل إنه قرر إنهاء التحقيق كله وكأن شيئا لم يحدث.. وعاد محمود إلى الامتحان وهو يعانى آثار الصدمة، ولكنه مكتف بإخفاء هذه المعاناة داخل صدره دون أى كلمة يقذفها فى وجه أخيه مصطفى بل دون أن يطلق عليه من عينيه أى نظرة.. وجلس يحاول أن يحصر ذهنه فى الإجابة على أسئلة الامتحان..

وحتى بعد أن عاد إلى بيت العائلة.. لم يحاول محمود أن يشكو إلى أمه، أو يشكو أخاه إلى أبيه.. ومصطفى هو الآخر لا يطرح الموضوع ولو بكلمة اعتذار لأخيه.. إنها مجرد صدمة لم يكن يحسب حسابها وقد مرت بسلام.. صدفة عابرة لا تستحق أن تخلق مشكلة..

وقد نجح كلاهما فى هذا الامتحان.. وإن كان مصطفى الغشاش قد تفوق فى درجاته على محمود الطاهر البرىء..

واستمر بهما هذا التناقض حتى توفى رب العائلة وهو أب مصطفى.. وقد كان مصطفى هو الوارث الوحيد وأصبح المالك لكل ما كان يملكه الأب.. ولكن الأم كانت قد قدرت مصير ابنها الأكبر محمود الذى لا يشمله هذا الإرث فتنازلت له عن نصيبها

من إرث زوجها.. كما كانت قد ادخرت خفية عن ابنها مصطفى وسلمت ما ادخرته لابنها محمود.. وبذلك تقارب مستوى اعتماد كل من الأخوين فيما أصبح لكل منهما.. وإن كان الأخ الأصغر لا يزال هو الأكثر ثراء وهو الأعلى فى مستوى رأس ماله.. وكان الاثنان لا يزالان فى السنة النهائية من المدرسة الثانوية عندما توفى الأب.. وقد قطع الأخ الأصغر مصطفى دراسته فورا بمجرد موت أبيه وتفرغ للعمل فى السوق.. وكان قد عاش فى هذه السوق وتعود عليها فى حياة والده.. أما الأخ الأكبر محمود فقد استمر فى المدرسة حتى انتهى من الثانوية والتحق بكلية التجارة، ولكنه فى الوقت نفسه كان حريصا على الاحتفاظ بالأموال التى أصبحت له.. ويتعامل ببعضها أحيانا فى السوق.. فهو أيضا فهم الكثير عن هذه السوق بمعاشرته لزوج أمه الذى كان بمثابة أبيه..

ولكن الفارق بينهما كبير فى التعامل داخل السوق.. إن مصطفى لا يهمه الأسلوب الذى يتعامل به.. قد يكذب أو يغش أو يزيف أو ينافق.. المهم هو أن يصل إلى الهدف الذى يطمع فيه.. أى أن يصل إلى تحقيق المزيد من الربح.. فى حين أن محمود لا يتعامل إلا بالأسلوب النظيف سواء أفلح به فى تحقيق الهدف أو لم يفلح.. أى أن ليس هناك فارق بينهما فى الهدف.. كلاهما يريد أن ينجح فى كل صفقاته ويحقق أرباحه.. ولكن الفارق فى أسلوب كل منهما والخطوات التى يخطوها لتحقيق هذا الهدف..

وكان مصطفى قد بدأ يقيم الدعوات السخية داخل البيت لمن يتعامل معهم من رجال السوق.. يقدم فيها الخمر وقد يدعو إليها نوعا منحلا من النساء للترفيه عن المدعوين.. ومحمود يغلى داخل نفسه وهو يشاهد هذه الدعوات التى تتم داخل بيته.. أو على الأقل داخل البيت الذى يقيم فيه.. إنه متدين بطبيعته.. يصلى ويصوم. وهو حريص على رضاء الله عنه فى كل حركة من حركاته وفى كل كلمة من كلماته.. والله لا يبيح تقديم الخمر. ولا يبيح هذا التهتك بين الرجال والنساء.. وأخوه مصطفى لايؤمن إلا بأن الله قد وهب الإنسان العقل.. وتركه حرا فى استغلال عقله لتحقيق مآربه.. وهو لا يصلى ولا يصوم.. إلا إذا اضطر يوما إلى المشاركة فى الصلاة لتحقيق هدف يرمى إليه عن طريق أحد المصلين.. فيتظاهر بالصلاة معه.. أو يصوم مضطرا لأنه دُعى إلى مأدبة إفطار تجمع فريقا من أهل السوق يحتاج إليهم فى معاملاته.. أى يدعى صياما كاذبا.. وقد حاول محمود أن يقنع أمه بأن تطلب من مصطفى أن يمتنع عن إقامة هذه الليالى أو على الأقل يقيمها خارج البيت.. ولكن أمه كما هى.. ضعيفة مستسلمة.. وهى لا تظهر فى هذه الليالى التى يقيمها مصطفى.. ولكنها تتفانى فى إعداد وتوفير متطلباتها ارضاء له.. إلى أن قرر محمود ألا يشترك بنفسه أبدا فى هذ الليالى.. وبعد أن غاب عنها بضع ليال حادثة أخوه مصطفى فى هدوء وكأنه يشفق عليه ويعتبره ناقص العقل.. قائلا :

– لماذا لا تشترك معى فى الترحيب بأصدقائى.. لا أحد يفرض عليك شيئا لا تريده.. إنك فقط تجلس معهم، وقد تكتفى بالفرجة عليهم.. ومحاولة فهم ما يدور فى خواطرهم من أعمال السوق.. مادمت أنت أيضا لك أعمال فى السوق..

وكطبيعة محمود بدأ يشارك فى هذه الليالى إرضاء لأخيه لا اقتناعاً بأسلوب تعامله فى السوق.. وكان يجلس بين المدعوين يغلبه الصمت كأنه فعلا يكتفى بالتفرج عليهم.. ولكنه كان يضيق بسرعة ويتركهم ويعزل نفسه عنهم فى غرفته قبل انتهاء السهرة.. وهم يعتبرونه وهو جالس بينهم كأنه إنسان شاذ ليس منهم ولا يحتاجون إليه كما لا يحتاج إليهم.. ولا يكاد يختفى من بينهم حتى يتضاحكوا عليه، ولكن دون النيل منه حرصا على إحساس أخيه صاحب الدعوة..

والسنوات تمر.. والأخ الأصغر يعيش دائما فى مشاكل تنطلق من تعامله فى السوق.. حتى أصبح أخوه الأكبر محمود مقتنعا بأن مصطفى لا يستطيع أن يحقق أهدافه إلا بالتصدى لهذه المشاكل.. فى حين أن محمود لا يقدم على أى عملية من عمليات السوق إلا بعد أن يتأكد مائة فى المائة من انه لن يواجه أى مشكلة.. وهو مستعد لأن يرفض أى عملية مهما قدر لها من أرباح لو كان واحد فى المائة منها معرضا لإثارة أى مشكلة..

وكان مصطفى لا يكف بين حين وآخر عن أن يشرك أخاه محمود فى إحدى عملياته.. كأنه طامع فى استغلال رأس المال الذى يملكه.. إنه أقرب رأس مال إليه.. إنه رأس مال أخيه.. وقد

جاءه يوما وهو منطلق بالفرحة.. أو ربما كان يدعى هذه الفرحة.. وصاح :

– لقد وقعنا على أكبر عملية يمكن أن تحقق سيادتنا على السوق كلها.. أكثر من مائة ألف دجاجة مجمدة مستوردة نتولى نحن توزيعها على أساس نصف الجملة.. تصور كم نربح من هذه العملية.. إن التقدير المبدئى للربح يصل إلى مليون جنيه..

قال محمود فى براءة :

– من الذى قام باستيراد هذا الدجاج..

قال مصطفى من خلال فرحته :

– إنه الحاج عمر البهنسى.. وقد اتفقت معه على أن يأخذ نصيبه بعد التوزيع بعد أن نساهم فى مقدم الثمن..

قال محمود وهو يلوى شفتيه ساخطا :

– إن الحاج عمر معروف بأنه غشاش ومهرب وحرامى.. وقد سبق أن حكم عليه بالحبس ثلاثة شهور ومصادرة أمواله..

وصاح مصطفى :

– ولماذا لا تفترض أن الحاج عمر قد تغير وأصبح يراعى القانون فى كل تصرفاته.. ثم أن البضاعة لن تظهر فى السوق باسم الحاج عمر إنما باسمنا نحن الاثنين حتى نجنبها شكوك رجال الحكومة.. إن اسمنا من أطهر أسماء السوق..

وطال الحديث ومصطفى يلح على محمود بأن يشترك معه

فى الصفقة.. وقد استسلم محمود أخيرا، وإن كان لم يشترك إلا بنسبة محددة لا تتعدى العشرة آلاف جنيه..

ولم يمض أسابيع حتى اكتشفت الحكومة أن هذه الكمية الضخمة من الدجاج المجمد مصابة بالإشعاع الذرى علاوة على أنها دخلت معتمدة على تلاعب فى إجراءات الجمرك.. وصادرت الحكومة كل كمية الدجاج، وثارت مشكلة من أعنف المشاكل التى سبق أن خاضها مصطفى عبد الخالق.. إلى أن استطاع أن يحصر العملية كلها فى مسئولية الحاج عمر.. وخرج هو وأخوه محمود بريئين.. وإن كان مصطفى لم يرد المبلغ الذى دفعه أخوه.. محتجا بأنه سبق أن دفع للحاج عمر، ولا يستطيع أن يطالب بما دفعه حتى لا يعتبر شريكا له ويقبض عليه معه..

ومن يومها اتخذ محمود قرارا لا يحيد عنه أبدا يقضى بألآيساهم مع أخيه مصطفى فى أى عملية من عمليات السوق..

وكان محمود قد أتم تخرجه فى كلية التجارة بجامعة القاهرة.. وتفرغ كله لحياة السوق.. وكان لا يحقق إلا أرباحاً متواضعة.. ولكنها دائما أرباح نظيفة.. بينما أخوه مصطفى يحقق أرباحا هائلة ليست دائما نظيفة.. واختلفا فى تقدير أهل السوق وعامة الناس لكل منهما.. محمود يقدرونه على أنه رجل أعمال نظيف.. وإن كانت نظافته تصل أحيانا إلى حد الغباء.. بينما يقدرون أخاه مصطفى على أنه رجل أعمال خطير.. يتردد كل من يتعامل معه فى قبول أسلوبه فى التعامل.. ولكه قطعا أذكى من أخيه..

وأحس محمود بعد تخرجه وتفرغه للعمل بحاجة إلى إتمام نصف دينه.. ولم يتردد فى اختيار نادية زوجة له.. إنها بنت الجيران.. كان يراها من بعيد.. وأعجب بها من بعيد.. وأحبها وتمناها من بعيد.. وربما كانت هى أيضا قد تعلقت به من بعيد.. لذلك تم زواجه بها بمجرد أن تقدم إليها عن طريق أمه..

وعاش بزوجته فى نفس بيت العائلة الذى يضم أمه وأخاه مصطفى.. ومنذ اليوم الأول قرر ألا تشترك زوجته أو تظهر أمام غريب خلال هذه الليالى التى يقيمها مصطفى.. ولكن مصطفى اعترض وصاح محتجا :

- إن زوجتك نادية أصبحت ست البيت.. فكيف لا تستقبل أصدقائى وبينهم من يأتى ومعه زوجته.. وقد كان أصدقائى يعذروننا لأن أمى لا تستقبلهم لأنها عجوز.. ولكن كيف يعذروننا إذا لم تستقبلهم زوجتك وترحب بهم..

قال محمود فى حدة :

- لن أسمح لزوجتى أن تظهر فى جلسة تقدم فيها الخمر..

وصاح مصطفى :

- مالها ومال الخمر.. ومن يفرض عليها الخمر..

وطال بينهما الجدل إلى أن ضعف محمود واستسلم لأن تشترك زوجته فى الترحيب بأصدقاء أخيه مصطفى خصوصا وقد علم أن بينهم ثلاثة من المدعوين مع زوجاتهم..

وكان محمود يتصور أن أى حفل يجمع الرجال بنساء محترمات شريفات يفرض أن تتجمع النساء مع بعضهن فى

ناحيـة بينما يتجـمع الرجال فى ناحيـة أخرى.. حتى يتـجنبوا كلهم ما يمكن أن يدفـعهم إليه الوسـواس الخناس.. ولكنه وجد أن هذا الحـفل جـمع بجانب الـزوجات نسـاء من النوع الآخـر اللاتى تعودن تلبـية دعوات مـصطفى، وليس من الزوجات بل من المنطلـقـات إلى أى رجل.. ثم إن الرجـال والنـسـاء اخـتلط بعـضـهم ببـعض منذ اللحظة الأولى.. كل رجل بجـانبه امـرأة.. حتى الزوجـات ليست بينهن واحـدة بجانب زوجهـا أو بجانب زوجة أخرى..

وقد استقبل الرجال زوجته نادية وهم مبهورون كأنها نجم جديد قـد لمع فى سمائهم.. نجم يشع بنور هادىء من الجـمال الذى يشـع بسذاجة الأبرياء.. وفرض الحـفل نفسه على زوجته فوجـدت نفسها تجـلس بجانب رجل من المدعوين.. ثم يجـذبها رجل آخر لينفـرد بها بجانبه.. وهو نفـسه جالس بعيـد عنها لا تخفت عـيناه عن تتبـعها.. ويخـيل اليه أن هذا الرجل يحـادثها بكلام لا يسمعـه كأنه يهمس فى أذنيهـا.. وخيل اليه أن الرجل الآخر مد يده وتحـسس يد زوجته.. ثم فوجىء بزوجـته تقوم وتتقدم إلى المـائدة التى تحمل زجاجات الخمـر وتبدأ فى صب كأس.. ربما تلبية لمطلب الرجل الذى كان يجلس بجانبها.. وجن محمو وفقد كل سيطرته على أعصابه وصرخ :

– نادية..

ثم قفز من على مقعده وانطلق إليـها وشدها من ذراعها قبل أن تحمل الكأس التى صبتهـا، وخرج بها من الحفل ودخل إلى

غرفته وأغلق الباب عليهما بالمفتاح..

وعقــدت الدهشة ألسنة المدعـوين وهم يتتـبعونــه، ولكن ما كادت الدهشة تخف حتى انطلقوا يـتضاحكون عليه.. ولعله قال كلامــا كثـيرا لزوجتـه، ولكنه لم يقل شـيئا من يومــها لأخـيه مـصطفى.. وفى الصبــاح التــالى قضى الـيوم كله يبـحث عن شقة.. لقد قرر أن ينعزل هو وزوجته عن أخيه، ويقيما وحدهما بعيـدا عنه.. لم يعد يحـتمل أكـثر.. وقد اسـتطاع فعــلا أن يجد الشقة فى يوم واحد.. وأن يزودها بمــا تحتاجه من قطع الأثاث الضــرورية فى يومــين.. ولــم يهــمــه كم دفع من أمــواله.. إنه مصــمم على العزلة عن أخيــه مهمــا دفع.. ويوم خرج من بيت العائلة خيّر أمه من أن تنتقل معــه لتعيش معه أو تبقى كما هى مع مصطفى.. ولــم تنتقل الأم معــه.. إنها لا تستــطيع أن تترك البيت الذى عـاشت فيــه كل هذا العمر.. وإذا كــان مـحـمود هو الابن البكر.. فــإن مـصطفــى هو أيضــا آخـر العنقــود.. ابنهــا الأصغــر.. وحاول مـصطفى أن يقنعــه بألا يترك بيت العــائلة.. ولكنه قابل إلحــاحه بصمت جاف كأنه لم يعـد يطيق أن يسمع منه كلمة.. وخرج هو وزوجته إلى بيته الجديد.. وأصبح ما بين محمـود وأخيه مصطفى كــأنه قطيعة تامة.. فكلاهمــا لا يتصل بالآخــر ولا يسأل عنه إلاّ فى المناســبات العــامة.. أو إذا حــدث لأحدهما حادث كبير.. بل إن محمود لم يعد يعرف عن مصطفى إلا مــا يسمــعه صــدفــة.. وكل ما يســمعــه ينطلق فى الســوق وينحصر فى العمليات الكبيــرة التى يقوم بها مصطفى ويُحقق

بها الأرباح الضخمة ويجتاز بها مشاكل خطيرة يستطيع أن يجتازها.. ومحمود لا يستطيع أن يتوقف عن المقارنة بينه وبين أخيه.. إن كلا منهما يعيش فى دنيا لا يعيش فيها الآخر.. ربما كان كل منهما قد ورث دنياه عن أبيه.. فمحمود يسمع عن أبيه أنه كان رجلا فى منتهى التدين.. وكان أيضا من تجار السوق، ولكنه كان معروفا بأنه شريف متواضع فى أهدافه التى تحقق أرباحه.. ويتمسك بأسلوب نظيف فى تحقيق هذه الأهداف، ولا يقدم على أى هدف يفرض عليه أى أسلوب قذر من أساليب الغش.. أما أب مصطفى فمعروف عنه فى السوق أنه كان مغامرا جريئا يعيش المشاكل ولا يحقق أى هدف إلا من خلال هذه المشاكل مهما لطخت سمعته كرجل أعمال.. بل سمع أنه لم يتزوج أمه إلا لأنه كان أيامها فى بدايته.. وكانت أطماعه لا تزال محصورة فى رؤوس الأموال الصغيرة.. وكانت أمه، كما كان ابنها قد آل إليهما ميراث متواضع بعد وفاة الأب فتزوجها ليستولى على هذا الإرث.. وقد استولى عليه فعلا.. أى أن محمود وأخاه مصطفى ورث كل منهما طبيعته عن أبيه..

وقد كان محمود رغم قطيعته لأخيه مصطفى يواظب على الاتصال بأمه ليطمئن عليها ويزود حنان الابن للأم.. ولكنه كان يتعمد أن يتصل بها فى أوقات لن يلتقى خلالها بمصطفى.. أو يتصل بها بالتليفون وهو واثق أن مصطفى لن يرد عليه.. ورغم ذلك فقد ظل أبدا يشعر بالشوق إلى أخيه..

وقد تزوج مصطفى أيضا.. ولكنه لم يتزوج مجرد فتاة من

بنات الجيران.. أو فتاة أعجب بها من بعيد كما تزوج محمود.. ولكنه تزوج ابنة وكيل وزارة الذى يعتبر أقوى شخصية مسيطرة على السوق.. وقد وصل محمود بطاقة دعوة لحضور حفل الزواج كأنه غريب لا دخل له فى حياة أخيه.. وقد ذهب إلى الحفل بصحبة زوجته.. وكما توقع لم يكن الحفل مقسما إلى مكان مخصص للرجال وآخر مخصص للنساء.. ولكنه كان حفلا يخلط بين الجنسين.. ورغم إحساس محمود بفرحة صامتة لزواج أخيه فإنه لم يستسلم لتقاليد هذا الحفل وظل ملتصقا بزوجته لا يتركها أبدا وحدها بين بقية المدعوين.. لم يتركها إلا فترة عابرة وضعها فيها بجانب أمه..

وقد انتقل مصطفى بزوجته من بيت العائلة ومعه أمه إلى فيلا كأنه قصر فخم فى أرقى أحياء القاهرة.. إنه الآن من الشخصيات البارزة فى مصر. بينما محمود ظل كما هو.. باق والعائلة فى الشقة المتواضعة التى استأجرها منذ سنوات.. ولا يميز شخصيته إلا تواضعه ونظافته وأسلوبه الشريف فى تحقيق أى هدف من أهدافه.. وهو ما جعل القطيعة بينهما تصبح واقعا أكيدا.. كل منهما يعيش دنيا تزداد تباعدا عن دنيا الآخر..



ومرت سنوات طويلة..

وكان الأخ الأكبر محمود قد أنجب ابنه عبد الهادى.. وابنتين.. سميرة على اسم أمه.. وشريفة على اسم أم زوجته..

وكان محمود فخورا بابنه ويزداد فخرا كلما كبر.. ويخيل إليه أن ابنه ورث عنه كل طبيعته.. فهو منذ البداية وهو متدين مأخوذ بأداء كل الفروض بانطلاق سمح كأنه ليس مجبرا على أدائها ولا يفتعل فيها شيئا.. ثم إنه نظيف شريف فى كل أساليب حياته التى يحقق بها أهدافه.. حتى وهو يلعب مع بقية الأطفال فهو لم يلعب إلا نظيفا شريفا دون أن يخطر على باله أن يتحايل ليفوز فى أى لعبة.. وقد كبر عبد الهادى حتى أتم دراسته الثانوية بنجاح دائم، ثم اختار أن يلتحق بكلية التجارة كوالده دون أن يفرض عليه والده رأيه.. وقد بدأ خلال ذلك يغوص ويفهم أعمال السوق التى يتعامل فيها والده.. وكان أحيانا يقول لوالده آراءه فى توجيه العمل.. ويقتنع بها الوالد، وتنتهى بأن تحقق النجاح.. إنه يبدو كأنه أذكى من أبيه.. ولعل الدنيا التى ولد وعاش فيها قد زودته بذكاء أكبر.. فهو لم يعش غريبا فى بيته مع زوج أم يثير فيه عوامل نفسية قاسية تمتص جزءا من ذكائه.. ولم يكن له أخ ليس بشقيقه ويعيش معه فى دنيا ليست دنياه..

وكان الابن قد تخرج فى الجامعة وبلغت ثقة أبيه فيه إلى حد وكّله فى إدارة كل أعماله.. وهو يحقق بهذه الأعمال من النجاح أكثر مما كان الأب يحققه.. وهو نجاح شريف نظيف لا تعترضه أى مشاكل يمكن أن تعرض الأب أو الابن لكلام الناس..

إلى أن فوجىء محمود يوما بزوجته تقول له إن ابنهما عبد الهادى

كان فى زيارة عـمه مصطفى.. وشـهق محمـود فى هلع.. ماذا جمع ابنه بأخيـه مصطفى رغم القطيعة الكاملة بـين العائلتين.. ربما كان مصطفى قـد سمع عن شطارة عبد الهـادى فى أعمال السوق فاصطاده ليستغله كما هى عادته..

ونادى محمود ابنه وسـأله فورا دون أن يستطيع كتم الهلع الذى سيطر عليه :

– هل كنت فى زيارة أخى مصطفى..

قال عبد الهادى فى هدوء :

– نعم.. ذهبت إلى زيارته..

قال الأب :

– هل هو الذى اتصل بك ودعاك إلى هذه الزيارة ؟

قال عبد الهادى دون أن يفقد ابتسامته :

– لا.. أنا الذى اتصلت به وطلبت زيارته..

وصاح الأب :

– لماذا.. ماذا كنت تريد منه ؟!

قال عبد الهادى :

– لا شىء.. ولكنى أردت أن أرى عمى وأعرفه..

قال الأب كأنه عاد يعيش مأساته :

– لقـد عانيت من عـمك هذا الكثـير حـتى أنى ابتعـدت عنه، وقطعت كل ما بينى وبينه..

قال عبد الهادى فى برود :

– إنى لم أعان منه شيئا حتى أقاطعه أنا الآخر..

وصاح الأب :

- إن من طبيعته الغش.. والكذب.. والتزيف.. والانحلال فى كل مجالات العمل.. وأخاف عليك من أن تقع فى براثينه..

وجلس عبد الهادى بجانب أبيه، وقال وهو ينظر إليه برفق :

يا أبى إنى أسمع عن كل رجال السوق أنهم غشاشون وكذابون ومزيفون ومنحلون، ولو استسلمت لما أسمعه لهجرت السوق كلها حتى لا أعرض نفسى لكل هذه القذارات.. ولكنى عودت نفسى على ألا أهتم بما أسمعه عن الناس، ولا أهتم بتعامل الناس بعضهم مع بعض.. كل ما أهتم به هو التعامل معى أنا.. أى قد يغش أحدهم الآخر، ولكنه لا يمكن أن يغشنى أنا.. لأنى أعتبر نفسى أذكى وأقوى من أن يغشنى غشاش.. أما إذا استطاع واحد أن يغشنى فعلا فإنى أقاطع التعامل معه وأطرده عن دنياى وهو ما لم يحدث لى حتى اليوم.. وأكثر من ذلك.. إنى لا أربط كل من أعرفهم بحاجتى إلى التعامل معهم فى السوق.. إنى أرحب بكل من أعرفهم من خارج السوق.. ولا أختار بينهم.. بل أرحب بأى صدفة تجمعنى بأى إنسان مهما كلن يمثل.. سواء يمثل الحلال أم الحرام.. وسواء كان غنيا أو فقيرا.. ناجحا أو فاشلا.. فإن السوق لا تنحصر فى هذه الدائرة الضيقة.. ولكن السوق هى سوق الدنيا كلها.. وأنا أستلهم الله وأدرب نفسى على أن يتسع عقلى لتحمل الدنيا كلها.. وكنت دائما أحس بأنى مقصر فى حق نفسى لأنى لا أعرف أقرب الناس إلىّ بعد أبى.. وهو عمى.. أخوك.. حتى لو

كان أخا غير شقيق.. ثم إنى لست مسئولا عما جرى بينك وبينه أيام زمان.. ويجب أن أكتشف بنفسى ما يمكن أن يجرى بينه وبينى أنا.. لذلك تجرأت وذهبت إليه دون أن أستأذنك وإن كنت قد أبلغت أمى..

وتاه الأب مع نفسه.. ربما كان ابنه على حق.. فهو لم يعان ما عاناه .. وليس من حق الأب أن يورث معاناته لأبنائه.. ويكفى أن يروى لهم أحداث التاريخ، ويعرض عليهم آراءه، ثم يتركهم أحرارا فى مواجهة تاريخهم وتحقيق ما يقتنعون به من آراء.. وابتسم لابنه ابتسامة مرتعشة وقال له :

وكيف استقبلك أخى مصطفى..

قال الابن منطلقا :

– استقبلنى بفرحة صاخبة.. كأنه أبى وقد وجدنى بعد أن كنت تائها عنه.. بل لم يحس أحدنا بأنه غريب عن الآخر، وكأننا لم نكن أبدا محرومين أحدنا من الآخر.. والواقع أنى بعد فترة بدأت أشعر بالإشفاق عليه.. فقد ذهبت إليه وأنا أتصور كما أسمع عنه بأنه قوى جبار يبطش بكل ما أمامه.. ولكنه بدأ يحدثنى كأنه يشكو من ضعفه.. وينسب ضعفه إلى وحدته.. إنه وحيد بعد أن توفيت زوجته رغم أنه أنجب ولدين.. كبرا دون أن يساهم أحد منهما فى حمل مسئولية أبيه ويشاركه فى عمله.. أحدهما أصبح طبيبا، والثانى يحترف العزف على الجيتار وله فرقة موسيقية.. وقد تزوج كل منهما وانفصل بعائلته عن أبيه.. بل لا يذكرانه إلا إذا احتاجا أن يمدهما ببعض

أمواله.. حتى ابناه انفصل أحـدهما عن الآخر.. ليس حول عمى مـصطـفى أى رباط عـائلى.. لا بـيننا ولا بينه، ولا بيـنه وبين أولاده..

وقال الأب كأنه يرثى أخاه :

– إنه منذ ولد وفرديته مـسيطرة عليه.. لم يكن يرتبط أبدا لا بأبيه.. ولا بأمـه، ولا بى.. فليس غريبـا أن ينفصل بفـرديته حتى عن أولاده..

قال عبد الهادى وهو لا يزال مشفقا على عمه :

– ولكنه يبـدو منهـارا.. وجهـه منهار بـعضــه على بعض.. وقوامــه مهدل كـأنه أيضا منهـار بعضه على بـعض.. إنه يبدو بالنسبة لك كأنه هو الأخ الأكبر وأنت الأصغر..

قال الأب كأنه لا يشفق على أخيه :

– لقد قضى عمره فى معارك عنـيفة تحوطه مشاكل خطيرة، ولا شك أن كل ذلك أنهك كيانه حتى سبقنى نحو الشيخوخة..

وابتسم الأب ابتسامة حاقدة واستطرد قائلا :

– لقد كـان دائما يتبـاهى بأنه يسبـقنى إلى كل شىء.. وقد التقيت به منذ عـامين يوم أن ماتت أمى ولاحظت أن التجـاعيد بدأت تزحف على وجهه.. ولـكنه لم يثر شفقتى فـقد عودنى ألا أشفق عليه.. إنه متعال، ويرفض شفقة أحد عليه..

قال عبـد الهادى وهو لا يزال غارقا فـى إحساسه بالشـفقة على عمه :

– لقد أحســست بأنه يعانى الكثير فى أعـماله.. وإن كان لم

يصارحنى بما يعانيه..

قال الأب وهو يبعد عينيه عن ابنه :

- لم أتعود أن أصدق أخى مصطفى سواء ادعى المعاناة أو ادعى القوة.. فأرجوك أن تحرص وأنت تحس بأنه يعانى.. فقد تكون معاناة كاذبة تخفى هدفا آخر من أهدافه تكون أنت ضحيته..

قال عبد الهادى وهو يقوم مبتعدا :

- اطمئن يا أبى.. لا أحد يستطيع أن يكذب على..

وبعد أيام عاد عبد الهدى يقول لوالده :

- لقد كنت فى زيارة عمى.. إنه فى نكبة.. يكاد يعلن إفلاسه.. حتى أنه قرر أن يبيع القصر الذى يقيم فيه ليسدد بعض الديون حتى أنى وعدته بأن أساعده فى عملية بيع هذا القصر..

وصاح فيه أبوه :

- إنك لست سمسارا حتى تتعهد بيع أو شراء المبانى..

قال ابنه عبد الهادى فى هدوء :

- وعدته أن أشترك فى البحث عن سمسار والاتفاق معه ومراجعة العملية.. إنه منهك، ولم يعد يستطيع أن يتحمل المسئولية كاملة وحده.. واطمئن يا أبى..

وابتعد عبد الهادى وهو واثق من استمرار رضاء أبيه عنه..

وبعد أيام عاد إليه قائلا :

- إن عمى لم يعد يطيق الابتعاد عنك.. ولو مجرد رؤياك..

وقد كـان يلح عليّ أن أصحـبك في زيارته.. ولكني أقنعـته بأن الأخ الأصـغـر يـجب أن يكون البـادىء بزيـارة الأخ الأكـبـر.. وسيأتي لزيارتنا هذا المساء..

ورغم المفاجأة فقد بدأ محـمود يحس فعلا بالشوق إلى لقاء أخيـه مصطفى.. إنه مـجرد لقاء أخ بأخـيه لن يتـسع لأي عمل يبرز الخـلاف بين طبيعتـيهما وقـد قضى محمود فـعلا طوال اليوم وهو يعد لاستقبال أخيه.. ويتذكر ما كان يفضله ليوصي زوجتـه بإعداده له.. وعنـدما رأى أخاه مـصطفى أمامـه أحس بدموع الفرحـة تكاد تنطلق من عينيه.. ولم يكتفـيا بأن يصافح أحـدهما الآخـر بل جمـعتـهمـا الأحضـان.. وانهارت الدمـوع الصامتة فعـلا على وجنتيهما.. وتكلما كثيـرا وذكرياتهما تطلق الضحكات.. وكأنهما نسيـا ما كان بينهما من خلاف وصل إلى حد القطيعة بينهما.. إلى أن قال مصطفى :

– هل سرد عليك ابننا عـبد الهادي تفاصـيل المشروع الذي تحدثنا فيه..

قال محمود :

– أي مشروع.. إن ابني لم يحدثني عن أي مشروع لك دخل فيه..

قال عبد الهادي وهو فرح بأبيه وعمه :

– لقد فضلت أن يعرض هذا المشروع بينكما دون أن أتدخل في عرضه.. فأنتمـا الأصل وأنتما الأساس.. وتنحنح مصطفى، ثم قال بلهجة جدية كأنه مقبل على عمل كبير :

- إن عبد الهادى يعلم أنى أعانى متاعب كثيرة فى أعمالى.. ولكن رأس المال الذى لا يزال سليما يوازى تقريبا رأس المال الذى تعتمد عليه أنت يا محمود.. لذلك فقد فكرت فى أن ننضم فى شركة واحدة.. تتولى أعمالى وأعمالك.. وذلك على أن يكون ابنك وابنى عبد الهادى وكيلا عنى كما هو وكيل عنك.. وله مطلق الحرية فى إدارة العمل..

وسكت محمود طويلا إلى أن قال :

- ما رأيك أنت يا عبد الهادى..

قال عبد الهادى فى جدية :

- لقد مكننى عمى مصطفى من دراسة رأس المال الذى يتقدم به.. كما مكنته من دراسة رأس مالنا.. وأنا واثق أن مشاركتنا ستحقق نجاحا كبيرا بإذن الله..

والتفت محمود إلى أخيه مصطفى قائلا :

- وأين أولادك ؟

وتنهد مصطفى كأنه يسخر من نفسه :

- لو كنت أراهما لكانا معى اليوم.. واطمئن.. لقد اتفقت مع عبد الهادى على ألا يدخل اسم أى واحد من أبنائى فى عقد الشركة.. وأن يكون نصيبهما من الإرث بعد أن أذهب إلى الله مقصورا على حقهما فى رأس المال دون أى حق فى إرث الشركة.. أى لن يكون لأى منهما حق التدخل فى أعمال الشركة سواء خلال حياتى أو بعد مماتى.. لقد أصبحت مقتنعا بأنى أنا وأنت لم ننجب إلا ابنا واحدا هو عبد الهادى..

محـمود غـارق فى التفكيـر.. وابتسامـته الضـيقـة تتسـع.. وتتسـع أكثر.. ثم صـاح ينادى زوجته نادية.. ثم قام إلى داخل الشقة وعـاد يشدها لتجلس مع أخيه مـصطفى.. بعد أن مضت سنوات طويلة كـان يحرم عليـها لقـاء أى رجل غريـب.. وكأن أخاه مصطفى أحد الغرباء..

ولكن الدنيا تغيرت..

بطاقة فهرسة

لمن اترك كل هذا / إحسان عبد القدوس
القاهرة : أخبار اليوم ، قطاع الثقافة ، ٢٠٠٨
١٣٦ ص ؛ ٢٠ سم . ـ (الأعمال الكاملة)
تدمك : ٢ ١٣٨٤ ٠٨ ٩٧٧
١ - القصص العربية
أ - العنوان
٨١٣

رقم الإيداع
٢٠٠٨/٢١٠٢٣
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977-08-1384-2

الأعمال الكاملة للكاتب إحسان عبد القدوس

١	التجربة الأولى	٣٤	لا تتركونى هنا وحدى
٢	منتهى الحب	٣٥	اللون الآخر
٣	شفتاه	٣٦	يا عزيزى كلنا لصوص
٤	آسف لم أعد أستطيع	٣٧	البنات والصيف
٥	يا ابنتى لا تحيرينى معك	٣٨	لا أنام
٦	لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص	٣٩	أنا حرة
٧	حتى لا يطير الدخان	٤٠	شىء فى صدرى
٨	زوجات ضائعات	٤١	أنف وثلاث عيون ج.١
٩	الرصاصة لا تزال فى جيبى	٤٢	أنف وثلاث عيون ج.٢
١٠	البحث عن ثورة	٤٣	لن أعيش فى جلباب أبى
١١	ومضت أيام اللؤلؤ	٤٤	سيدة فى خدمتك
١٢	فى وادى الغلابة	٤٥	النساء لهن أسنان بيضاء
١٣	خواطر سياسية	٤٦	دمي ودموعي وابتسامتي
١٤	بعيداً عن الأرض	٤٧	الحياة فوق الضباب
١٥	علبة من صفيح	٤٨	وعاشت بين أصابعه
١٦	الطريق المسدود	٤٩	وغابت الشمس ولم يظهر القمر
١٧	زوجة أحمد	٥٠	قلبى ليس فى جيبى
١٨	لا ليس جسدك	٥١	كانت صعبة ومغرورة
١٩	لا شىء يهم	٥٢	فوق الحلال والحرام
٢٠	لا تطفىء الشمس ج.١	٥٣	وكر الوطاويط
٢١	لا تطفىء الشمس ج.٢	٥٤	لن أترك كل هذا
٢٢	فى بيتنا رجل	٥٥	ونسيت أنى امرأة
٢٣	النظارة السوداء	٥٦	بنت السلطان
٢٤	صانع الحب	٥٧	وتاهت بعد العمر الطويل
٢٥	بائع الحب	٥٨	الهزيمة كان اسمها فاطمة
٢٦	أين عمرى	٥٩	الراقصة والسياسى
٢٧	بئر الحرمان	٦٠	الحب في رحاب الله
٢٨	الخيط الرفيع	٦١	الوسادة الخالية
٢٩	عقلى وقلبى	٦٢	العذراء والشعر الأبيض
٣٠	على مقهى فى الشارع السياسى	٦٣	رائحة الورد وأنوف لا تشم
٣١	السعادة ليس لها تاريخ	٦٤	أيام شبابي
٣٢	حالة الدكتور حسن	٦٥	ثقوب فى الثوب الأسود
٣٣	لم يكن أبداً لها	٦٦	تاريخ أحد اللصوص

فهـرس

صفحة